
رواية
مُذكراتي
مِنَ العَالَم الآخَر
هدى بكير
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

مذكراتي
من العالم الآخر



الكتـــاب : مذكراتي من العالم الآخر
المؤلــف : هدى بكير
تنسيـق داخلي : سمر محمد
تـدقيق لغـوي: عبدالله أسامة
الطبعة الأولى: ينـايـر 2018
رقـم الإيـداع : 2017/26946
L.S.B.N: 978-977-6541-39-9

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

مذكراتي
من العالم الآخر

رواية

هدى بكير



هذه الرواية لا تمت للواقع بصِلة، ربما في البداية سآخذ أبطالي من عالمنا، لكنني سأطوف بهم لأزمنة أخرى وأماكن غريبة ليست واقعية أبدًا..

المقدمة

لم أكن أعلم أن بمجرّد استيقاظي بهذا العالم.. أنني سأغيّره.. لقد أثّرت في كل نفس قابلتها.. لقد أحدثت فارقًا.. ولأجل هذا، قرّرت كتابة مذكّراتي بالعالم الآخر، والتي استعنت بكل نفس قابلتها للتعبير عن ما حدث..

{1}

ها قد استيقظت الأميرة

هل شعرت في مرّة أنك نمت لسنين؟ أخذتك الموتة الصغرى لدرجة أنك نسيت ماذا ومن كنت بحياتك؟ لا تذكر إلا أنك كنت بخير قبل تلك الآلام المزمنة في عظامك، تنغّص عليك بداية يومك غير الظاهر، والذي عليك أن تكتشفه بنفسك والآن.. هذا ما شعرت به حين نهضت من ذلك الفراش الوثير والذي لم يمنع عني كل ما يشعر به جسدي، وكأن شيئًا دهسه عدّة مرّات وترك لي فتات جسد.. فتحت عينيّ الجديدتين وأبعدت عنهما آثار النوم العميق، تنفّستُ بتثاقل وكأن قلبي خُلق للتوّ ليدقّ أولى دقّاته، كما شهقت رئتاي أول أنفاسهما..

نظرت حولي بينما أحاول القيام ببطء وحذر، لا أعلم أين أنا، ولا أذكر أي مكان مألوف ليكون موطني.. أردت أن يقع نظري على أي شيء يجلب لي الحياة، يشعرني بانتمائي لمن يتنفسون، ويجعلني أتنهّد بارتياح، لكن ما من شيءٍ هنا.. فقط ذلك الفراش وسط تلك الغرفة المظلمة، لا يضيئها سوى بعض الشعلات المتّصلة بجدار خارجي لتلك الخليّة الصغيرة التي أقبع بها.. تحرّكت للأمام ببعض الخطوات ومددت يدي للأمام، حتى لامست بعض القضبان.. وكان أول ما جاء على بالي.. كلمة «سجن»!

رفعت رأسي بحيرة للحارس الجالس أمام زنزانتي وحاولت نداءه، فأتى صوتي ثقيلًا، غريبًا لا يُميَّز أبدًا.. وكأني أُناديه من أعماق البحر كحوريّة ملعونة، تتحدّث من داخل فقّاعة مائية سميكة كسُمك جلدها.. لم يلتفت لي، فأخرجت كفي الأيمن

من بين تلك القضبان الواسعة ويدي الأخرى تقبض على الحديد كي لا أقع أرضًا، فجسدي بالكاد يحملني.. ومرّة أخرى ناديت.. بشيء لم أستطع فهمه، لكن لحسن الحظ التفت لي أحد الحارسين، الواقفين بثبات عند بابٍ ما على اليمين، تحرّك للحارس الجالس أمامي والذي لم يتمكّن من سماعي، لكزه في كتفه ليستفيق من غفلته ويلتفت لي.. وحين أصبحت الأربع عيون مصوّبة نحوي، تحرّك جسدي بضياع وحرّكت يدي ملوحة بها أمام عيونهم بحركة رخوة ضعيفة، وما حدث أمامي أذكره حق التذكّر..

عاد الحارس الثاني للباب واقترب الأول من زنزانتي، أخذ يبحث عن مفتاح خلاصي في سلسلة المفاتيح الكبيرة، التي التقطها من سترته من الداخل، وحين وجد ما يبحث عنه اقترب من قفل زنزانتي الانفرادية وأخرجني منها، قابضًا بيديه على معصم يدي اليسرى فوق اليمنى بغير اكتراث، مثبّتًا إياهما خلف ظهري بقسوة، لأهمس أنا حروفي غير المنظّمة بتشتت.. لكنّي لم أسمع صوتهم هذه المرّة! فبدأت أشك في أنني قد فقدت النطق، أو حاسة السمع!

أدرت رأسي للجانبين لأنفض تلك الأفكار عني، فشعرت بنسمات هواء قذرة الرائحة تحيط بي، تأتيني من بين خصلات شعري لتصل لأنفي بطريقة مستفزّة، وقبل أن يعود وجهي لموضعه الأول، لاحظت وجود ثلاث زنازين أخرى غير التي كنت أقبع بها، توقفت قدماي الضعيفتان عن السير فدفعني الحارس، فعاندته أنا بوقوفي وتثبيت جسدي على الأرض الحجرية، لأرى بوضوح ما كان قد جذب انتباهي.. زنزانتي.. هي الوحيدة الخالية، والثلاث زنازين الأخرى تحتوي على فتيات غيري، نائماتٍ بعمق، لا تصدر منهن تلك الأنفاس الضعيفة أو الهمهمات التي صدرت مني حين قاربت على الاستيقاظ، حتى ظننت أنهن.. ليسوا بأحياء من الأساس!

لم يلبث الحارس أن يتركني لدقيقة أخرى، فقبض على معصمي بقسوة ودفعني للأمام، يحثّني على السير، فيتحرّك جسدي للأمام تفاديًا للألم. عبر

بي الباب الحديدي الأسود ذا الشرّاعة الصغيرة، والذي يقف على حراسته اثنان، أدين لأحدهما بالشكر لأنه لاحظ استيقاظي، وفي نفس الوقت أدين له بلكمة قويّة على وجهه، لأنه تركني بين يدي هذا الهمجي القاسي..

لم يكن الممرّ أكثر إضاءة من الغرفة ذات الزنازين الأربع، ولم تكن أنظف كذلك، فرائحة الطين غزت أنفي بقوّة، جعلتني أشهق أنفاسًا متباعدة من فمي؛ محاولة في تجاهل تلك الرائحة العفنة.. لم تطل حركتنا، فدقيقة ووصلنا لباب حديدي آخر، يشع منه النور.. ذلك النوع من النور الذي يجعلك تشعر بأن الباب الذي أمامك هو بابٌ سحري، وأن ما يقبع خلفه هو المستقبل المشرق بكل غموضه.. ارتعشت شفتاي واتّسعت حدقتا عيني بحماس ودهشة عظمى، لكن سرعان ما أغمضت عيني وأخفضت وجهي بسرعة حين تفاجأت بأن نور المستقبل قوي لدرجة أنه قادر على سلب بصري، أسبلت أهدابي عدّة مرّات متتالية حتى سمعت صوت الباب من خلفي يغلق مصدرًا صريرًا عظيمًا، وأيضًا صوت الحارس الذي يمسك بي يهمس في أذني بتشفٍّ:

- ألقي نظرة على ما حاربت لأجله واستيقظت.. لن تنالي أي شيء صدقيني!.

حلّ قبضته القويّة القاسية عن معصمي وضحك بصوتٍ عالٍ وقال لأناسٍ أنا غير قادرة على رؤيتهم بوضوح:

- استيقظت الأميرة النائمة.. فليخترها أحد ويحرس جسدها الهشّ.. ووجهها القبيح!.

ألقى بي على العشب الأسود كظلّه، وكظلمة كل شيء من حولي، إلا من بعض المصابيح التي قرّبوها من وجهي بقسوة ليتفقدوا ما قال وقتها.. فباتت الرؤية لي واضحة بعض الشيء، أدركت أن أمامي خمسة أفراد يرتدون ملابس بسيطة، وبجانب كل واحدٍ منهم جواده.. ربما هم فرسان.. وجوههم تبتسم بتشفٍّ، إلا

واحدًا منهم.. لم يظهر وجهه لي حتى.. وقبل أن أستمرّ في تحليلي لكل شيء غريب من حولي سمعت واحدًا منهم يقول باستهزاء:

- أنا أنسحب يا أصدقائي.. أفضّل انتظار الأميرة التالية!.

ضرب كفّه في كفّ الآخر بجانبه والذي قال:

- أعرف من سيختارها!.

وأشار بذقنه إلى ذلك الذي لم يهزأ بي معهم، ذلك الصامت، خفي الملامح، وحين لاحظ هو ذلك شدّ يده على لجام جواده حتى ابيضّت مفاصل يده، وكانت ظاهرة لي بسبب حمله لمصباح بيده الأخرى مما زاد من هالة الضوء حوله.. زاد صوت ضحكات هؤلاء الأشخاص المستهزئين، وأنا أراقب الوضع الغريب.. لم أسأل عن ما يحدث لي.. لم أسأل عن ما يتفوهون به هؤلاء الحثالة.... أو أين أنا.. ولم أتساءل عن من أكون!

سمعت صوت الحارس الذي رماني أرضًا منذ دقائق يتحدّث بعصبيّة قائلًا:

- فليخترها أحد، أريد العودة لباقي الفتيات!.

ردّوا عليه بضحكاتهم، فزفر الحراس -على يميني- بملل وقال أحدهم يريد إنهاء هذا الموضوع التافه بالنسبة له:

- هيّا يا ظافر.. اظفر بها كما تظفر بكل شيء!.

تقدّم المدعو بـ «ظافر» إليّ وانحنى على ركبته، أبعد المصباح عن وجهي القبيح قليلًا حتى لا يؤذيني الضوء، وهمس لي بصوته العميق:

- أتستطيعين الوقوف؟.

حاولت أنا الوقوف لكن كان هذا الفعل متكلفًا، فقد استنفدت كل طاقتي بالتفكير ولم أعد قادرة على تحريك أيٍ من عظامي، فهززت رأسي نفيًا.. زفر هو بضيق ونظر حوله قائلًا لهم:

- اخترت تلك الضعيفة لتكون في حمايتي...

هزّ آخر كتفيه وقال بلا مبالاة:

- بل أجبرت أن تحميها.. فهي دميمة مثلك! هه! الطيور على أشكالها تقع!.

لم تكن لحظة عادية بالنسبة لي، حين قام الرجل الماثل أمامي، وسلّ خنجره في وجه من نعتني بالدميمة وقال بلهجة غامضة محذّرة:

- لن أحب رؤيتك مرّة أخرى.. ولكن ما أبغضه بشدّة، هو أن أرى وجهك المزيّن بسنّ خنجري!.

زمجر الحارس من خلفي قائلًا بنفاد صبر:

- فقط خذها وانصرف من هنا.. هيا!.

وتوجّه نحو الباب الحديدي وفتحه بعنفٍ وقال بتهكّم:

- أراد أن يحرس أميرة استثنائية.. وها هي... مستثناة من قواعد الأنوثة بأكملها!.

قالها ليضحك الباقين إلا هو.. أو أنا. وضع خنجره اللامع بجرابه واقترب مني وحملني برفقٍ بعد أن علّق المصباح على سرج حصانه، وما هي إلا ثوانٍ حتى أصبحت على الجواد، وانطلق بي بعيدًا، والأصوات من خلفه تصيح باستهزاء، وسمعت أحد الحرّاس ذا نفوذ يخرسهم قائلًا:

- كفى... إلى أماكنكم!.

سمعت صوت صهيل جواد حارسي.. وقتها حاولت الاعتدال في جلستي، لأجد أنني أستند على صدره الواسع القوي، مثبّتة بذراعيه المفتولتين بينما يمسك بهما سرج الجواد.. رفعت نظري بإعياء للأعلى، لأجد أنه يتحرّك بي نحو قلعة عظيمة.. محاطة بالشعلات لتضيئها من كل الجهات، أعلى ما بها برجٌ عظيم،

وجنودها يقفون حولها بالمرصاد. حين اقتربنا منها جاءت ببالي إحدى الحكايات الأسطورية.. فبذكرهم كلمة «أميرة» ترسّخت الفكرة بعقلي أكثر.. أميرة.. وفارس على جواد.. لكن من المفترض أن يأخذني من القلعة، بعيدًا عنها.. لا إليها! وجواده.. ينبغي أن يكون أبيض اللون.. لا أسود، والفارس.. أين وجهه الوسيم.. بل أين وجهه من الأساس؟!

ظلّ عقلي يعبث بالأفكار بداخلي، حتى أدركت أن كل شيء يسير عكس ما تسير الرواية الأصلية، فهنا لا يوجد أميرة! لا يوجد إلا فتاة دميمة، قبيحة الوجه مشعثة الشعر.. لا تذيب الجليد بابتسامتها ولا تسحر أنبل الفرسان بنظراتها.. فالموجودة الآن هي.. أنا.. فقط أنا! فتاة لا تذكر عن نفسها أي شيء غير قبحها.. وانقباضة قلبها من كل شيء!

{٢}

= انعكاسي الدميم =

لا أدري لماذا كل هذا الألم، تلك الدقّات الغريبة في صدري وطعم المرارة في حلقي.. التقطت أنفاسي بصعوبة حين أنزلني الحارس لأتحامل على نفسي وقت الدخول، متعلّلًا بأنني يجب أن أبدو قوية للحظات، حتى يتم إدخالي.. لم أسأل عن مصيري إذا كنت طبيعية هكذا بآلامي المتفرّقة، فبادرني هو بقول:

- لا مكان للضعفاء هنا.. إمّا أن تكوني قوية فيحترمونك ويعتبرونك من ضمن الموجودين، أو أن تكوني ضعيفة ولا يعترف بكِ أحد.. ويتم نفيك من الوجود.

سرت بجانبه بخطوات قليلة، لا تتلاءم مع خطواته الواسعة، فسبقني، لأرى بنيته الشديدة، وطوله الفارع المتّشح بالسواد؛ فكان يرتدي زيًّا غريبًا عن بعض الحرّاس بالخارج؛ من اللونين الأسود والرمادي الداكن بعباءة سوداء ترفرف خلف بنيته القوية بعد أن غطّى الجزء العلوي منها نصف وجهه العلوي، والنصف الآخر استخدم قطعة قماشية أخرى لإخفائه، ليكون وجهه مختفيًا بالكامل.. لا أعرف حقيقةً ما طبيعة الناس هنا، لكن ما أراه أنه شخصٌ مريب وغامض.

لم أسمع صوته منذ أن همس لي بآخر ما قال، لكنّي أتذكر بحّة صوته.. عميقة تتسلل للروح دون استئذان، فريدة من نوعها، لم أسمع مثلها قطّ.. في حياتي.. التي لا أتذكّرها بتاتًا..

توقّف الحارس ونظر إليّ، عيناه الرماديتان الباهتتان مصوّبتان إليّ بشكلٍ واضح.. كعيني قابض أرواح حين رؤية ضحيّته الأخيرة.. عبست قليلًا بينما أتفقّدهما، لكنّه حين لاحظ أنني أفعل هذا شدّ غطاء رأسه للأسفل أكثر ليحجب عني رؤية ما يظهر منه، وقال بصوته العميق:

- قفِي بقوامٍ ممشوق، ستأتي من تتفقّدك...

وقبل أن أسأل أي شيء وجدته ينصرف من أمامي، منسحبًا للخلف، مستندًا على الجدار الداكن المرشّق به عدد لا نهائي من اللوحات لملوك وملكات.. جذبت انتباهي هيئة الأشخاص بتلك اللوحات، فهم فائقو الوسامة والجمال، ملابسهم فخمة للغاية، صدورهم الرجولية الواسعة مرصّعة بالنياشين، والإناث منهم يرتدون أفخم الحُلي والزينة. ارتفعت عيناي للسقف لا إراديًّا حين تنبّهت أن الضوء آتٍ من الأعلى، لأجد الثُّرَيَّا كبيرة من الكرستال، تتفرّع بحريّة من حول الوسط كفروع الأشجار، ليتدلّى منها أكبر قدر ممكن من ثمار الكرستال وأماكن مخصصة لوضع الشموع.. شكلها ساحر بشكل مبالغ فيه.. أهذا ما يضعونه في الرواق؟ أتساءل عن أكبر غرفة وما بها!

انتفضت بإجفال حين سمعت صوت من تتنحنح بالقرب من أذني، مقتحمةً مساحتي الخاصّة، ولا إراديًا نظرت إلى مصدر الصوت، لأجد أنها سيّدة بدينة بيضاء البشرة بشكل مبالغ فيه، كبيرة سنًّا، وهذا ما لاحظته برؤية الزينة كثيفة الطبقات على صفحة وجهها، رمشت بعيني دون كلام، وكنت أقصد أن أعلمها بأنني في كامل تركيزي، منتظرة لسماع أي شيء لينتشلني من ضياعي وعجزي، وأدركت هي رسالتي، فتوقّفت عن دورانها من حولي متفحصة ونظرت في عينيّ بقسوة وقالت بصوتٍ رفيع مزعج:

- ما اسمك يا عود الثقاب أنتِ؟.

فتحت فمي مندهشة وبلا وعي نظرت للأسفل، أتفقّد جسدي بعينيّ، لأجد أنني -كما أشارت هي إليّ- نحيلة كمومياء متعفّنة بأتربة من كل الأزمان.. فرفعت رأسي لها وتلعثمت حروفي.. لتصرخ بي هي:

- ألا تسمعين؟ سألتك عن اسمك!.

رفعت يدي اليمنى لألمس رأسي المنزعج من صوتها العالي، وقلت بصوتٍ ضعيف:

- لا أعرف.. من أنا؟.

وبعد أن وجّهت السؤال إليها شهقت بصدمة، واقتربت مني جدًا حتى إن أنفي الحسّاس اشتم رائحة عطرها، ذي رائحة القرنفل المزعجة جدًا، تلك الرائحة تأففني بحق.. كيف يصنعون من هذا الشيء عطرًا.. هل يغوي الرجال؟ عطّار ربما!

اتّسعت عيناي بفزع حين وضعت يدها على صدر فستاني الرثّ ومزّقته بقوّة، ومع صوت تمزّق الفستان علا صوتي، بصرخة ضعيفة متفاجئة.. رفعت كلتا يديّ إلى صدري أخفي ما ظهر منه بذعر، وجسدي يرتعد فزعًا من حركتها المباغتة، وظلّت هي على نفس الوضع، منحنية للأسفل قليلًا تقرّب عدسة مستديرة بسلسلة ذهبيّة من عينها اليسرى مغلقة اليمنى بقوّة، وكأنها تقرأ!

نظرت على يميني مستغيثة بمن يُدعي حارسي.. لكنّه كان فقط واقفًا هناك.. يراقب كل شيء بمنتهى البرود.. لماذا لا يفعل شيئًا! لست متأكدة حقًا إن كان رأى ما حدث وما زال يحدث أم لا، فعيناه محجوبتان عن عينيّ..

- على ماذا تخشين يا فتاة؟ لم أر أي شيء يستدعي الاختباء!.

قالتها الشمطاء باستهجان وسخرية وتركتني لأقبض أنا على فستاني المتمزّق، وأنظر لقامتها القصيرة مندهشة من ما حدث للتوّ، وقبل أن أقول أي شيء، اندلع صوتها مجلجلًا في المكان مرّة أخرى قائلة:

- لا تقفي هكذا كالتمثال! اتبعيني!.

أجفلت من صوتها وتحرّكت على الفور خلفها، متناسية كل آلامي التي بدّلتها الصدمة.. وما هي إلا ثوانٍ حتى رأيت حارسي يسير معي جنبًا إلى جنب، خلف تلك السيدة المريبة.. بمنتهى الهدوء والريبة!



أصبحت بغرفةٍ أكثر إضاءة، واسعة، بعكس ذلك الرواق الذي كنت به. لم أسمح لنفسي بالشرود بتكوين الغرفة كثيرًا، فما لمحته كان كافيًا لمعرفة أين أنا..

رأيت تماثيل حجرية متقنة الصُنع، بلا رؤوس، أجسادهم مستورة بملابس من كافة الألوان والأقمشة.. أشك في أن معالم تلك الأجساد منحوتة بشكل ممتاز يخطف الأنظار لذا أخفوهم جميعًا، إلا من صفّ أو اثنين على اليمين واليسار، يضعون فيه التماثيل بوجهها إلى الحائط، كأطفال تتلقّى عقابها بغرفة المدير. دست على البساط الواسع بلون البحر بجميع درجات انعكاس الشمس عليه وقت الغروب، لألاحظ أنني حافية القدمين.. بشكلٍ قذر، كالمتشردين.. عدت ببصري لتلك السيدة لأجدها تتحدث لأخرى، أصغر منها سنًّا وأنضر منها وجهًا، بينما تنظر لي باحتقار.. من أنتِ لتحتقريني يا ذات الوجه المجعّد والرئحة المنفّرة؟! وقبل أن يحدث شيء جديد التفتُّ لحارسي وهمست له:

- لمَ هذا الإذلال؟ أين نحن ليعاملوني هكذا؟.

وأضفت بتذمّر:

- أكانوا يسخرون مني أيضًا.. حين دعوني بالأميرة؟.

لم يرد عليّ، فمددت يدي أرفع غطاء رأسه المستفزّ من على عينيه، لكنّه سبقني وأمسك برسغي وأنزله كما كان وقال بهمس:

- لا أحد يراني غيرك.. لذا تصرفي وكأنني غير موجود...

جحظت عيناي بصدمة، لم أفهم ما قال.. هل يقصد أنه شبح؟ ما هذا الهراء؟ ألا يكفيني ما أنا فيه الآن؟!

- أنتِ.. اقتربي...

قالتها السيدة ذات الصوت المزعج، لأهزّ أنا رأسي وأقترب منها ومن معها بوهن، محاولة التركيز عليهما فقط، دون النظر لأيٍ من العيون الجديدة التي تنظر إليّ من عيون تلك التماثيل الميتة.. وحين أصبحت أمامهم، عبست السيدة الأخرى وقالت بصوتٍ معتدل:

- أظنّها متعبة.. ببعض الاهتمام و....

قاطعتها الأخرى بصوتها الذي أذى أذني حقًّا هذه المرّة من علوّه:

- لا يهم.. قومي بعملك فقط، فالعبرة بالنهاية.

وأضافت بتهكّم هامس مع ابتسامة خبيثة:

- وقتها سيكون كل شيء واضحًا كضوء القمر!.

قالتها وانصرفت ونظرت أنا إليها وهي تمشي بين التماثيل المكسوّة، وعدت ببصري لتلك السيدة وأردت سؤالها عن ماذا سيحل بي، لكنني تفاجأت بها تقول بمنتهى البساطة:

- اخلعي ملابسك.

زدت من ضمّ ذراعيّ إليّ وعبست بشراسة، رافضة ما تقول، برغم عدم تذكري أي شيء عن العفّة... أو العهر.. لكنّي فقط رفضت! حتى أتت بمرآة طويلة، حرّكتها أمامي حتى ظهرت بها صورتي.. وتفاجأت!

وقعت كلتا ذراعيّ بجانبي من الصدمة لينفتح الجزء الذي حاولت جاهدة إخفاءه من تمزّق فستاني، واتّسعت عيناي وأنا أقترب بخطى بطيئة لتلك المرآة التي كشفت قبحي، الذي زاد أضعافًا فوق الصورة التي رسمتها لنفسي!

رمشت بعيني وأنا ألمس بشرة وجهي المشبّعة بالبثور وبآثارها البنيّة، أنفي الكبير، شفتاي المتشققتين بلونٍ مقزّز واكتشفت أن عينيّ ليستا واسعتين، بل الواسع هو ذلك السواد المظلم تحتهما!

باعدت المسافة بين شفتيّ دون لمسهما لأرى أسناني.. وتنهّدت بارتياح.. لم تكن بها مشاكل، كلها موجودة وفي أماكنها الصحيحة.. إذًا.. هذا هو وجهي! كنت أعلم بأنني قبيحة، وكأنه اعتقاد راسخ بعقلي منذ قديم الأزل، كأنني معتادة على هذا.. لكن ليس لتلك الدرجة! ألهذا كانوا يسخرون من وجهي! معهم كل حق!

وقبل أن أبكي على حظّي، تفاجأت بالسيدة تقف خلفي في المرآة، راقبت ما كانت تفعل، أزالت غطاء رأسي المتصل بالفستان، لينكشف شعري.. تنفّست بصعوبة حين اشتممت رائحته ولاحظت أن أطرافه قصيرة للغاية، بالكاد تصل لشحمتي أذنيّ.. وكأنها.. محروقة!

- دعيني أكشف على باقي جسدك، لأستطيع تقدير حجم المشكلة.

هززت رأسي بقلق، وعيناي الداكنتان انطفأتا.. أكثر من ذي قبل..

أدخلتني السيدة الهادئة إلى غرفة صغيرة مربّعة متّصلة بالغرفة الأم، جدرانها هي فقط مرايا... مرايا قاسية، تعايرني بقبحي.. وبدون أي كلمة أخرى من السيدة تلك، خلعت عني ذراعيّ فستاني بحذر كي لا أزيد قطعه، بالتأكيد سأحتاجه لستر جسدي أيًا كان نوعه؛ جميلًا كان أم بشعًا، وأصبحت بدون الفستان. ملابسي الداخلية بالكاد تسترني، وهذا بالضبط ما أرادته السيدة، أشارت إليّ برفع ذراعيّ للأعلى، واستندت على المرآة من خلفها ونظرت على جميع المرايا من خلفي، ولم

تنس النظر لجسدي نفسه.. لم تطلب مني الاستدارة، فكل شيء واضح.. جسدي غير معتنى به بالمرّة.. ليس قبيحًا، لكنّه كما قالت منذ قليل: «يحتاج للاهتمام».. ارتديته مرّة أخرى على عجلة لأستطيع التركيز في ما تقول:

- من الواضح أنكِ نمتِ كثيرًا.. وبالطبع لا تعرفين كم مضى على آخر مرّة اعتنيت فيها بجسدك!.

هززت رأسي نفيًا وانطلقت قائلة بذعر:

- أنا لا أتذكر أي شيء.. كما أنني لا أعرف سبب وجودي هنا!.

هزّت كتفيها بلا مبالاة وقالت وهي تشير إلى إحدى المرايا الأربع:

- الإجابة عن تلك الأسئلة ليست من اختصاصي...

نظرت إلى ما تشير إليه، وإذ بلوحةٍ مُظلمة تظهر بدلًا من تلك المرآة، فاتّسعت عيناي بغرابة لأدرك أنه.. باب، أو نافذة بحجم لوح زجاج المرآة التي تبدّلت! وقبل أن أسألها.. شعرت بها تدفعني بقوة.. لأهوي للأسفل! ظللتِ أصرخ بذعر وقلبي يوشك على التوقّف! ولا أتوقف عن السقوط! الهواء البارد يغلفني بسرعة سقوطي، ارتفع ردائي لأعلى ليحجب عني الرؤية قليلًا، فقماشه القديم المهترئ قد نال من وجهي معظمه، ليختفي بعدها في الهواء لأبقى بقطعتين خفيفتين من القماش لا أكثر... وفجأة، وجدت حارسي ذا الملابس السوداء يتبعني في سقوطي، لكنّه كان هادئًا، وكأنه يحلّق بمنتهى البراعة! وإذ بصوته يهمس لي ببرود:

- خذي نفسًا عميقًا، وأغلقي منافذ الهواء لديك.

نظرت له بغير فهم وقد توقّفت عن صراخي المذعور.. وقبل أن أنطق بالـ «ها؟» التي تعبر عن غبائي.. سقطت.. في ماء!

فتحت عينيّ ببطء لأرى فقاقيع الماء الغزيرة حولي أثر سقوطي المفجع، وذراعاي مفرودتان بجانبي، وساقاي متعبتان، لا يقدران على السباحة بي للأعلى.. زفرت

آخر أنفاسي من رئتيّ للخارج لينتشر ثاني أكسيد الكربون الخاص بي حولي، يودّعني بمنتهى القسوة.. وقبل أن أدرك أنه فعلًا نفسي الأخير، تفاجأت بحارسي يسبح إليّ، يمد ذراعه لي من الأعلى.. لا أتذكّر إن كنت قد مددت له ذراعي، أم التقطها هو.. لكنّني أتذكر جذبه لي للأعلى.. لأصبح خارج الماء.. بطريقة مدهشة كما دخلت إليه!

- لقد أنذرتك.. اعتادي على التصرّف السريع من الآن فصاعدًا.

قالها بنفس الهدوء والبرود بصوته الذي يثير بداخلي الهواجس، لأنظر أنا له بينما أشهق أكسجينًا من الهواء حول تلك الـ.. بركة الغريبة... بركة؟!

- إنه جزء من النهر...

قالها ليخرس تساؤلاتي ونظرت حولي بغرابة بينما أُزيل خصلات شعري القصيرة المزعجة من على وجهي، لأجد أنني في مكان أشبه بالكهف.. حوائط صخرية بعيدة عني بمساحات كبيرة، كما هي طبيعة الأرض.. إلا من ذلك التجويف الكبير المليء بالماء الذي أتواجد فيه.. مع ذلك الغريب!

هدأت أنفاسي وتساءلت عن ماذا حدث! وجدت صوت السيدة آتيًا من الأعلى، فنظرت للأعلى لأجدها تقف في ذلك الباب المضيء، شبحها بالكاد يظهر من ضوء غرفة المرايا، تنادي عليّ:

- نظّفي نفسك جيّدًا، فأنا أنتظرك بالغرفة الأخرى.

- غرفة؟!.

صحت بها بسخرية وأنا أرفع يديّ بسخط لتغلق هي الباب وكأنها لم تسمع تهكّمي.. زفرت بضيق، وارتعبت من المكان الذي أنا به. نظرت للأسفل لأجد أنني أقف على صخرة لزجة، ترفعني عن سطح الماء ببعض السنتيمترات.. ولصدمتي.. أنا الآن عارية!

كيف حدث ذلك؟ هل ارتطمت بسطع الماء بقوّة فتجردت من قطعتي الملابس؟ أم أن قماشهما المتواضع قد ذاب بعذوبة ماء النهر معتدل الحرارة؟

- أنتِ تهدرين الوقت، هيّا قومي بأخذ حمّامك قبل أن تنادي عليكِ.

شهقت وأحطت نفسي بذراعيّ ونظرت له شزرًا، وصببت غضبي عليه قائلة:

- أدر وجهك للجهة الأخرى وكفّ عن التصرف بمنتهى البرود! وفضلًا عن ذلك، أخبرني بأي شيء يرضي فضولي!.

سمعت ضحكاته، فتجمّدت في مكاني والتفتُ له بحذرٍ وترقُّب، ووجهي أحمر خجلًا من هيئتي المهينة.. لأجده ينظر للجهة الأخرى، يمسح على عباءته الطويلة -التي كانت تتطاير خلف ظهره- والتي خلت تمامًا من أي أثر للماء! فقرّرت أن أنتهي من هذا سريعًا.. أخذت أدوات الاستحمام من إحدى الزوايا بالبركة وقرّبتهم إليّ، سكبت بعضًا من السائل المنظّف على شعري وجسدي بينما أفكر في ذلك المكان الغريب بهؤلاء الناس وعن حالتي التي تفاقمت كثيرًا عن الصورة التي أرسمها في مخيّلتي، ورغمًا عني، كنت أذرف الدموع الخفيفة..



بعد مراقبة رغوة حمّامي وهي تطفوا -بعيدًا عني- سابحة باتجاه مصرف منحدر، خرجت من الماء ببطء، ونظرت للحارس بحذر، فكان شاردًا في شيء ما بعيد عن موقعي. بحثت بعيني عن أي شيء يستر ما يظهر من جسدي النحيل، الذي بالطبع لن يغوي ذكر الخنفساء حتى، مما جعلني مرتاحة بعض الشيء، حتى وجدت بعض المناشف فاتحة اللون موضوعة على أحد الجوانب من الأرض الصخرية، فأسرعت إليها متفاجئة ببرودة الأرض، ارتعش جسدي وأنا أتناول منشفة طويلة، لففتها حول جسدي، وأخرى حول رأسي لتمنع الهواء البارد عن

الوصول لأذني.. وفجأة وجدت الحارس يقترب مني ويشير إلى أحد تجويفات الصخور كالكهوف ويقول:

- هيّا...

سرت خلفه ببعض القفز الخفيف، لأتفاجأ بأن وهني وضعفي قد ولّيا.. وأنني صرت شبه طبيعيّة!

وجدت أنه يهبط على درجٍ غير مرئي بالنسبة لي، ففعلت مثله بمنتهى الحذر بينما يداي ممدودتان للأمام، اعتقدت أنني كنت سأتشبّث بكتفيه إن اختلّ توازني، أصبح الظلام يحيط بنا من كل اتّجاه، فهمست له بذعر:

- هل وصلنا؟.

توقّف فجأة فاصطدمت بظهره القوي، وفي الثانية الأخرى وجدت نفسي محمولة بخفة بكفّيه من ذراعيّ، فوق مرفقيّ بقليل -كما تُحمل الدُمى- ووضعني أمامه على ذلك الدرج الضيّق كممرّ ثم همس لي:

- قومي بدفع الباب.

لم أرَ أي أبواب، لكنّني بالفطرة دفعت الجدار من أمامي، لأتفاجأ بضوء خفيف يتسلّل منه، ليكشف لي ما نقف عليه.. درج من الصخور... فارغ من الجانبين.. ومن أسفله فجوة من الظلام.. لا أدري عمقها!

شعرت بالذعر فأسرعت بوضع إحدى قدميّ على أرض تلك الغرفة الأكثر أمانًا، مستندة على جانبي الباب، لأهرب من تلك الكارثة التي أقف فوقها، وسرت قليلًا حتى أصبحت بالداخل وبجانبي الحارس..

أغلقت شابّة ما الباب من خلفي وهي ترتدي زيّ الخدم، الفستان القصير الأبيض والأسود والمريول البسيط، المعترف به في كلّ مكان، خصوصًا الحكايات

القديمة.. تقدّمت إليّ واحدة ممسكة بيدي، قادتني حتى جلست على مقعد وثير، مريح للغاية ولم أقاوم إغماض عيني لأستسلم لإحساس الراحة هذا، لكن سمعت صوت السيدة الهادئة تقول لي:

- الآن سنبدأ بالاعتناء بجسمك.. حاولي الاسترخاء فقط، لا تتوتري.

نظرت لها بغير فهم وتساءلت:

- هل هناك ما سيؤلم؟.

وها قد جاءت الإجابة على هيئة فعل.. قاسٍ للغاية! وكرد فعل صرخت متألمة.. تذكّرت ألم العملية البسيطة تلك.. واقشعرّ بدني كثيرًا، ولم أستطع فتح عينيّ وبتُ أذرف دموع الألم القليلة الثقيلة، حتى جاءني صوت ضحكات رجوليّة هادئة! ففتحت عينيّ بصعوبة وأنا ألتقط أنفاسي بألم، لأرى حارسي يجلس على المقعد القريب مني، متهالك من كثرة الضحك على هيئتي!

وضعت إحدى الخادمات سائلًا لزجًا على وجهي ذا رائحة نفّاذة، رائحة قهوة ربّما.. فردت السائل بيديها بحذر وهمست لي:

- هذا لتوحيد لون البشرة.

فتأوهت أنا وسط كل هذا الصخب الذي أشعر به وقلت باستهزاء:

- أي بشرة تلك! أنا مشوّهة.. لن يجدي أيٌّ من هذا بالنفع!.

وبعد قليل، قرّبت إليّ السيدة المرآة الطويلة، فاقتربت أنا منها مبتسمة بغرابة، لأرى أن ما قد فعلوه بي، قد أتى بالنفع!

أصبح جسدي أكثر نضارة من ذي قبل، كل موضع من مواضع الألم سكن بمجرّد رؤيتي النتيجة، وهذا القناع اللزج على وجهي، قد أدى لتفتيح لون بقع البثور وآثارها.. والأسود تحت عيني، اختفى بطريقة ملحوظة! هو يظل قابعًا تحت عيني

لكن حضوره بسيط.. وشعري.. أطرافه متساوية، لا تشوكني بعد الآن ولا تزعجني، قاموا بوضع مستحضر ما ليجعله يطول قليلًا بطريقة فوريّة لتلاقي أطرافه كتفيّ، هذا ما قالوه حين أزعجهم شعري القصير هذا، بالمداومة عليه سيعود طوله الأصلي.. أتذكر صوت السيدة حين قالت بأسف:

- أنتِ هزيلة، وإمكانيات جسدك معدومة.. بالتغذية السليمة سيتحسن هذا بصورة كبيرة.

نظرت للسيدة بغير تصديق وتساءلت بفضول:

- في نظرك.. هل ما زلت قبيحة؟.

أقسم بأنني رأيت شبح ابتسامة يرتسم على وجهها.. ولم تجبني! هل كانت تسخر مني بعقلها؟

اتّجهت لأحد الفساتين وأشارت لي أن أقترب، تفحصت الفستان وزفرت بإجهاد:

- سنضطر لحياكة ما يناسبك.. لكن ارتدي هذا مؤقّتًا.

أخذت فستانًا بسيطًا من خزانة كبيرة بعرض الحائط، باللون الرمادي الباهت وأعطته لي، قائلة:

- لقد انتهى عملي هنا.

ابتسمت لها وشكرتها.. وقبل أن أتساءل عن أي شيء أشارت لي على الباب الذي دخلت منه، فتنحنحت وخرجت وهمست لمن يتبعني:

- والآن ماذا؟.

كدت أضع قدمي على أولى الدرجات الصخرية المريبة، إلا أنني وجدت المكان من خلف الباب قد تبدّل.. إلى الرواق ذي لوحات الملوك في كل مكان.. عبست بغرابة، لأسمع صوت الحارس يقول وهو يفتح باب إحدى الغرف:

- كإجابة عن سؤالك الأول... نعم؛ ما زلتِ قبيحة.. وردًّا على الثاني، فستفهمين كل شيء في الحال ريثما تعبرين من هذا الباب.

تجاهلت جملته الأولى، لم تصبني في مقتل، فأنا أدرى بنفسي! لكن ما جذب انتباهي كانت ثاني جملة، فنظرت للباب الذي يمسك بمقبضه وعبرت من خلاله.. لأجد نفسي في غرفة صغيرة؛ الإضاءة بها خافتة، بها فراش بسيط، ومنضدة خشبية للطعام.. ومقعد! لم أفكّر كثيرًا، اتّجهت للشرفة الصغيرة ذات القضبان، ونظرت منها على المظهر الخارجي وأطلقت شهقة مكتومة، لأسمع صوت الحارس يتكلّم بعد أن أغلق الباب:

- أهلًا بكِ في الحياة الأخرى...

التفت إليه وقد لاحظت أن نبرته جديّة، بعد أن ترك الهمس، هززت رأسي بغير فهم فقال بغرابة هادئة:

- العالم الآخر ألم تسمعي عنه؟ ذلك الذي يأتون إليه بعد الموت!.

تدلّى فمي من المفاجأة واقشعرّ بدني من قسوة ما قال.. ومن برودة وصفه.. وتساءلت بما أخشى:

- إذًا.. أنا ميتة؟.

هزّ رأسه، ولكي يكون واضحًا أكثر أضاف بلا أي تعبير:

- مؤكد...

وضعت كلتا يديّ على فمي وجلست أرضًا، ضامةً ساقيّ إلى صدري؛ تلك الجلسة التي تعبر عن العجز بالنسبة لي.. ولا تسألني كيف عرفت!

اقترب ذلك الحارس مني ومد كلتا يديه ليربّت على كتفيّ قائلًا:

- لا داعي للحزن، لقد محو ذاكرتك لهذا السبب أتعلمين؟.

هطلت دمعة من عيني بينما وضعت يدي على موضع قلبي هامسة بغير وعي:

- أنا لا أتذكّر أي شيء فعلًا.. فقط ذلك الإحساس اللعين بالألم.. والقهر!.

مد يده إليّ كي يساعدني على الوقوف، فوقفت بمساعدته واستندت على الجدار من خلفي وقد عاد الوهن إليّ، وهمست بألم:

- حتى اسمي... نسيته!.

اقترب إليّ ذلك الحارس -ببطء- ولم يكن بوسعي التراجع، فأنا ألتصق بالجدار أصلًا.. شعرت بأنه قريب مني بطريقة مريبة، فرفعت عينيّ له بذعر وسألته:

- وأنت.. من أنت؟.

رفعت ذراعيّ تلقائيًا أمام صدري، لأتفاجأ به ينزلهما ببطء، ويقرّب أنامله لصدر فستاني يريد فتح أزراره.. تسارعت دقّات قلبي وأنفاسي في محاولة الابتعاد عنه بينما أكرّر سؤالي:

- من أنت!.

وأضفت بدهشة:

- اترك ملابسي وابتعد عني فورًا!.

فكرة أن لا أحد يراه غيري جعلتني أحبس أنفاسي في اللحظة الأخيرة عن الصراخ والاستنجاد بأي أحد.. رغم أنني لا أعرف أحدًا!

ثبّتني برفع ذراعيّ فوق رأسي بقبضته القويّة بينما يده الأخرى ما زالت تقوم بعملها بسرعة وخِفّة، حتى انتهى من فضّ الأزرار العلويّة، وفجأة باعد بين ضفّتي الفستان كالباب المفتوح، وقال بهمسٍ مندهش:

- مقتولة...

أخيرًا استطعت دفعه بكل قوّتي، ليبتعد عني قليلًا، لكن سرعان ما اقترب وثبّت ذراعيّ فوق رأسي مستطردًا بنبرة هامسة.. غير مصدقة:

- لم تموتي.. بل قُتلتِ!.

نظرت له بغير فهم، فأشار على موضع صدري وقال:

- مكتوبٌ هُنا...



{٣}

= عاد مشوهاً كما كان! =

نظرتُ له بغير فهم، فأشار على موضع صدري وقال:

- مكتوبٌ هُنا...

نظرت للأسفل على ما يشير إليه، تحت رقبتي ببعض السنتيمترات، وشهقت حين رأيت شيئًا ما، هو مخطوطٌ بالفعل! وكأنه وشم!

ابتعدت عنه وظللت أدور بالغرفة، ذهابًا وإيابًا، أبحث عن مرآة.. لكنّي لم أجد! فصحت فيه ليبحث معي:

- ألا ترى مرآة؟ أي مرآة؟!.

وقبل أن يجيب لاحظت وجود وعاء عميق من الماء وبجانبه كوب حديدي صغير، فاتّجهت إليه وجلست على ركبتيّ المكسوّتين بالقليل من اللحم، واقتربت بوجهي منه، لأرى انعكاسي.. رفعت جسدي قليلًا وفتحت الفستان، ولم أر شيئًا! فالإضاءة بالغرفة سيئة للغاية!

اقترب مني وقال بهدوء:

- اهدأي.. لن تستطيعي رؤيته، يمكنني قراءته لكِ.

زادت دقّات قلبي وقلت بتلعثم:

- لكن.. لكن تلك السيدة.. القصيرة.. استطاعت قراءته.. لماذا؟ وأنت.. كيف ذلك؟.

اقترب مني وثبّتني من كتفيّ، لأصبح واقفة باستقامة أمامه وقال بعمق:

- يمكنها ذلك.. ويمكنني.. ليس الجميع يمكنه ذلك.. بما فيهم أنتِ.

وأضاف بشرود:

- وبالرغم من أنها قرأته، لم تبدِ تعجّبها من الأمر.. غريبٌ حقًّا!.

نظرت لموضع عينيه وكأنني أراهما وهمست برجاء:

- أطلعني على كل شيء! أشعر بأنه يتم قتلي فعليًّا بكل هذا الغموض!.

دفعني للخلف قليلًا لأجلس على الفراش من خلفي، فجلست وضممت ساقيّ إليّ، أحتوي نفسي وأحميني من الهواجس.. فكلمة «مذعورة» هي أقل كلمة يمكنها وصف شعوري بعد أن أخبرني عن كوني مقتولة.. وموجودة بالعالم الآخر!

جذب المقعد الخشبي البسيط ليضعه أمام جلستي على الفراش، جلس بالوضع المعاكس لطبيعة المقعد، ومال بجذعه للأمام مستندًا على الظهر الخشبي بكلتا يديه وبدأ في الحديث، ليأتيني صوته متنهّدًا:

- لا تخافي لستِ الوحيدة.. هناك المئات والمئات أتين منذ أيام.

قضمت شفتيّ بتوتّر، أعتقد أنها عادة حين أكون مشتّتة.. وسألته بينما شفتاي مضمومتان قليلًا:

- وماذا قرأت.. غير كوني مقتولة.. هل اسمي مذكورٌ أيضًا؟.

سألته وأنا أكاد أجن، أسأله سؤالًا بسيطًا بينما أعيد ترتيب كل ما أردت سؤاله عنه بعدها، حتى لا تهرب حروفي المرتعشة من بين شفتيّ المتشقّقتين.. ملايين الأفكار والهواجس قفزت لطيّات عقلي بلا استئذان، لأرتجف قليلًا وأتحرك بلا

وعي للأمام وللخلف، مشاعري متخبّطة، حتى قبل أن يقول أي شيء.. كم أردت أن أصيغ كل ما أريد معرفته في سؤالٍ واحد؛ كي أستمع لتفسير عميق يشبع فضولي ويسكن قلبي ولو قليلًا! لم أستطع ذلك بالطبع فآثرت الصمت، حتى أتت إجابته:

- أنتِ مقتولة.. فقط.. لا يوجد أي شيء آخر عنكِ، وأعتقد أنه ليس بالأمر الغريب.. لقد سمعت عن فتيات يأتين بدون أي معلومة!.

أومأت برأسي وأرهفت سمعي لصوته العميق والذي بدأ بالاسترسال:

- نحن هنا في العالم الآخر، نقوم بعمل ما لم نستطع فعله في الحياة... فلكلٍ منّا هدف من الوجود هنا.. حتى لو أن وجودنا هنا ليس بمحض إرادتنا...

لم يسكن كلامه ذلك التشويش بعقلي، فسألته:

- وكيف سأعرف هدفي إن كنت أجهل هويّتي؟!.

أُقسم أن صوتي كان واضحًا، بالتأكيد سمع كل ما قلته.. لا شيء مضحك في ما أقول! وبرغم هذا.. ضحك..

أرهفت سمعي لصوت الرياح القادم من الخارج، وفي نفس اللحظة دخلت بعض الرياح عبر تلك الفتحة السخيفة ذات القضبان بالحائط، لتجعل جسدي يرتجف بوهن، فهممت لإغلاق أزرار فستاني الخفيف والذي لا يوجد أي شيء ليستر عظمي البارز إلا هو، والتي نسيت إغلاقها تمامًا بمجرد أن رأيت تلك الكلمات.. شعرت بالاختناق... ومجدّدًا.. سألته:

- ما المكتوب هنا؟.

وأشرت إلى جسدي بتلقائية، فأجابني:

- مقتولة.. كنتِ تحاولين إنقاذ أحدهم...

اعتدلت وجلست القرفصاء وطالعته بمنتهى الاهتمام، وتساءلت:

- أنا؟ كنت أنقذ أحدهم؟.

هزّ رأسه وقال باستهزاء:

- من الواضح أنكِ مُضحية...

ابتسمت بشرود.. بقليل من الفخر وحاولت تخيّل نفسي في أيٍّ من مواضع البطولة والتضحية.. فلم أجد! فعدت إليه وتساءلت:

- وهل لي اسم؟.

تحرّكت أصابعه تداعب خشب المقعد المتهالك وقال بلا أي تعبير أو اهتمام:

- مؤكد كان لديك...

انقبضت معدتي بتوتّر.. أهكذا يشعر الغريب؟!

- إليونورا...

لم أدرك تلك النبرة الغريبة في صوته.. لكنّها أجفلت قلبي الصغير، جعلته يخفق بعنف.. بحماس.. بطريقة رائعة! جعلت لوقع الاسم الذي قاله رنينًا..

- أنا إليونورا؟.

هزّ رأسه وقال بنبرته العادية، وكأنه لا يهتم:

- هل تمانعين؟!.

وجدت الابتسامة طريقها إليّ.. وقلت بلا وعي:

- أحببت الاسم!.

نهض من مقعده، وتركه بجانب الحائط وقال بهدوء:

- يليق بكِ...

وأضاف بعد أن أدرك غرابة ما قال:

- الآن عليكِ النوم.. فأمامك يومٌ طويل بالغد.

دقّ قلبي وقلت بطريقة معتوهة للغاية:

- كيف لهذا الاسم الجميل أن يليق بي؟ وأنا دميمة هكذا!.

خلع عنه عباءته السوداء المثبّتة بكتفي ملابسه، مسّدها باهتمامٍ غريب، وكأنها قطّة سوداء ناعمة.. وناولني إيّاها، فنظرت له متسائلة.. ليقول:

- لم يؤمّنوا لكِ ما تتدثرين به.. والجو بارد الليلة.

وبقوله آخر كلمة دوى صوت الهواء عاليًا، فأخذت عباءته ولففتها حول جسدي الضئيل فابتلعتني باحتضان، تدثّرت بها جيدًا حتى اختفى وجهي أيضًا.. كم هي واسعة.. ودافئة!

تنهدت بعد أن عم الدفء جسدي.. ونظرت له لأجده يقف بالقرب من الشرفة، يطالع القمر، موليًا ظهره العريض لي.. فقلت متسائلة:

- هل.. اا.. ألا تشعر بالبرد؟.

لم يجبني، فتنحنحت وناديته بينما استلقيت بجسدي النحيل على الفراش القديم:

- ظافر....

التفت إليّ واقترب مني متسائلًا:

- كيف عرفتِ اسمي؟.

ضيّقت عينيّ بغموض، وكدت أن أراوغه، إلا أنه قال متذكّرًا وقت خروجي من الزنزانة:

- اااه تذكّرت...

وما لبث ليصمت وقال:

- ماذا تريدين؟.

زفرت من قلّة صبره وقلت بسخط مشاعري:

- لا تقسو عليّ هكذا! أنا مقتولة وفاقدة للذاكرة... راعِ مشاعري إن تكرّمت!.

ضحك باستهزاء فرميته بنظرة غاضبة وأردت سؤاله عن شيء، لا أتذكر ما هو.. لا أتذكر إلا أنه اقترب مني ومرّر كفّه فوق عينيّ وهمس بشيء لم أفهمه، أجفلني لأول وهلة، إلا أن عينيّ فقدتا القدرة على البقاء مفتوحتين لوقتٍ أطول. كل شيء أصبح دامسًا بالسواد حين أسبلت أهدابي واستسلمت للإحساس المفاجئ بالنوم. وقتها لم يبق بعقلي أي فكرة إلا أن.. ظافر ألقى عليّ تعويذة ما.. لأنام!



استيقظت.. لا أستطيع القول إذا كنت قد استيقظت في اليوم التالي.. أم في نفس الليلة الداكنة.. تنهّدت وأبعدت العباءة عني وأنزلت قدميّ لألامس الأرض الصخرية داكنة اللون كالجدران، اكتشفت أنني نمت بالحذاء الخفيف الذي حصلت عليه البارحة مع الفستان. نظرت حولي، أبحث عن ظافر، لكن الظلام كان أقوى من تلك الرغبة، استندت على الحائط وناديت اسمه بهمس.. لكن لا من مجيب! وضعت أناملي على عيني وقلت بغير وعي:

- هل أطفئت الشعلة؟.

وأضفت بضيق:

- لمَ هذا الظلام!.

وقبل أن أصل لحرف الميم في آخر ما قلته، سمعت صوت فرقعة أصابع، وفجأة عاد بصري!

اتّسعت عيناي بغرابة لأجد ظافرًا هذا يقف أمامي.. وأصابعه ما زالت بالقرب من عيني.. فهمست بغير فهم:

- كيف؟.

أنزل أصابعه ببطء وتخطّاني، ليأخذ عباءته من على الفراش.. نفّضها، ثبّتها خلف ظهره كما كانت، وعاد إليّ، وقال بلهجة غريبة:

- اشربي قليلًا من الماء...

لم أفهم سبب ما قال.. لكن لا يهم، فأنا كنت أشعر بالعطش فعلًا فاقتربت ببطء لدلو الماء وأنا أطالع هيئته، إنه يدعو للريبة ولا أعرف إن كان به هو ماء نظيف أم لا.. ولا يوجد أمامي إلا التجربة لمعرفة ذلك! أمسكت بالكوب الصغير بالقرب منه وعزمت وضعه داخل الدلو والشرب، إلا أنني حين اقتربت من الماء بوجهي.. لاحظت شيئًا ما.. تمنيّت أن لا يكون صحيحًا.. لكن.. هو حقيقي!

سقط الكوب مني ليصدر دويًا عاليًا وصرخت في نفس الوقت! ولم يجفل ظافر.. فهو بالطبع يعلم بأن وجهي.. عاد دميمًا! عاد مشوّهًا كما كان!



{٤}

=الكارثة=

أردت وضع وجهي في كفي لأبكي بحريّة.. لكن ملامسة ذلك الوجه هو فعل مقزز للغاية، حتى ولو كان وجهي أنا!

شعرت بيد حارسي توضع على كتفي، فانتفضت واقفة وابتعدت عنه صائحة، بينما أخبئ وجهي في الفراش الذي ارتميت به:

- ماذا فعلت بي! أيها المشعوذ! أنت من فعلت بي هذا!.

لم أكن أتوقع منه إجابة.. لكنه أجاب بوضوح:

- لا تلقي باللوم على غيرك.. هذه هي أنتِ.. ووجهك الهادئ بالأمس كان مجرّد استثناء...

رفعت وجهي من الفراش وصحت فيه بكل ما فيّ من ذعر:

- لماذا! لماذا!.

بكيت بلوعة واهتزّ جسدي بقوّة.. وسمعت صوته يقول بهدوء:

- لا تنهاري من شيء بسيط كهذا.. فلديكِ الكثير لتقلقي من أجله.

وفي نفس اللحظة سمعت طرقًا على الباب، فالتفت لأجد الباب يُفتح، لتدلف السيدة السمينة، ويسبقها عطرها المنفر.. وصوتها المزعج:

- كفى كسلًا، استيقظي هيّا هيّا هيّا...

قالتها وهي متجهة لآخر الغرفة، في الاتجاه المعاكس لي.. وقبل أن أعتدل في جلستي بشكلٍ سليم، تفاجأت بدلو الماء ينهمر على جسدي! فشهقت بذعر وصرخت! ثم اعتدلت بإجفال لأجد السيدة تنظر لي بدهشة وقد تركت الدلو:

- لم تذهبي للماشطة بعد؟.

قالتها مشيرة لوجهي القبيح، فنكست أنا وجهي وقلت بحزن:

- ذهبت.. وتحسّنت هيئتي.. لكن.. عاد وجهي لما كان عليه!.

ضحكت مجلجلة المكان بصوتها المزعج لأنتفض أنا مذعورة.. وقالت أخيرًا بمزحة لم أفهمها أنا:

- ااااه مؤكّد كنتِ جميلة في حياتك الأولى!.

أسبلت أهدابي عدّة مرات وهمست بـ:

- لا أتذكر.. أشعر بأنني كنت دومًا قبيحة.. لكن إحساسي هذا...

وقبل أن أوصل لها ما أريد، جذبتني من ذراعي بقسوة ضاغطة بأناملها السميكة على تلك المنطقة أسفل كتفيّ بقوّة وأخرجتني من الغرفة قائلة:

- لا داعي للثرثرة.. كوني قليلة الكلام، لا وقت لدي لأسمع ثرثرة كل واحدة منكنّ!.

انطلق أنيني وتساءلت:

- لكن.. كيف لا أكف عن الثرثرة وأنا لا أفهم شيئًا!.

أصبحنا بالرواق ذي اللوحات الملكية العظيمة وسرنا تحت الثُريّا المتفرّعة، سمعتها تقول بتهكّم:

- ومن لديه الوقت ليشرح لكِ أيتها المعتوهة؟ ألا ترين أن جميعنا مشغولون؟.

نظرت حولي بغرابة وقلت:

- جميعكم؟ لكني لا أرى أحدًا!.

وبنطقي الكلمة الأخيرة تفاجأت بأننا عبرنا بداخل الحائط وكأنه حائط من الهواء فقط! وأصبحنا بداخل مكان حار للغاية، رفعت كفّيّ أمام وجهي أصارع تلك الأبخرة عديدة الروائح حتى اتضحت الرؤية. نحن في مطبخ أقل ما يقال عنه أنه كبير، ولأعود لما قلته منذ ثوانٍ؛ الآن أنا أرى أناسًا ينتشرون في كل مكان؛ لينفوا بداخلي فكرة أن هذه القلعة مهجورة!

دفعتني السيّدة لإحدى الفتيات، اللاتي يرتدين قبّعة بيضاء تحجب خصلات شعرهن عن وجوههن، يقطّعون الخضر.. وقالت بقسوة:

- أعطيها سكّينًا...

استقرّت قدماي المتخبطتان بجانب تلك الفتاة، كانت طويلة، يفوق طولها الفتيات بالمطبخ، قمحيّة البشرة، وجهها صافٍ، بعكس ما يبدو وجهي، أنفها طويل قليلًا نهايته مدبّبة يعطيها مظهرًا جذّابًا.. لم أرَ هيئة شعرها، لكن لونه الأسود الفاحم كان ظاهرًا لي من تلك الفتحة المستديرة أعلى القبعة الورقية..

- أُدعى ميلدا.. وأنا كبيرة الطهاة هنا...

قالتها بعمليّة بينما تضع سكينًا كبيرًا في يدي، ولم تنظر إليّ، وأشعرني هذا بالارتياح قليلًا.. شعرت بشيء بجانب ساقي اليسرى، فنظرت للأرض لأجد أنه شوال كبير من قماش بنيّ رثّ للغاية، وضعته فتاة للتوّ وانصرفت..

- أريدك أن تقطّعي كل الكميّة، لا تتركي أي شيء.. وحين تنتهي تعالي إليّ...

قالتها ميلدا ثم غادرت كما غادرت السيدة القرنفلية -المستديرة- المحشوّة بالقسوة، وتركوني وحيدة وسط كل هذا الكم من الفتيات.. والطعام... أدرت رأسي لأرى جزءًا من الحائط الرخامي بارزًا للخارج، كما تخرج منه ألسنة اللهب الساخن لشوي اللحم وأكثر من دجاجة مسكينة.. أيضًا العديد من الرفوف وضعت عليهم أدوات الطعام من أوانٍ وملاعق خشبية كبيرة، وبعض الأدوات الأخرى معلقة

بالجدار وبالعواميد الفاصلة بين زوايا المطبخ. عدت ببصري للفتيات، بمختلف أشكالهن وألوانهن؛ منهم القصيرة، وأيضًا الطويلة، البدينة والرفيعة، ولكنّي لم أجد من تنافسني في كوني مومياء..

- استعيدي تركيزك وابدأي فورًا!.

أجفلت من صوت ظافر وهو يهمس بالقرب من أذني، وانتفضت ليسقط السكين من يدي.. وفرت ضيقًا والتقطتها بيد، وجررت الشوال بيدي الأخرى، لأذهب بالقرب من منضدة التقطيع.. ليسير هو خلفي بمنتهى الهدوء، يعبر بين أجساد من يتحرّكن، وكأنهم كأبخرة الحساء الذي يغلي في القدر الكبير..

توقفت بجانب إحدى الفتيات التي بدت منهمكة في تقطيع الجزر إلى حلقات مستديرة، لم تكن تقطّعها بشكلٍ سليم، نظرت لما تفعله، واستفزني هدوؤها كثيرًا! ورغمًا عني وجدت نفسي أمسك جزرة بيدي التي تركت الشوال وقمت بتقطيعها بطريقة سريعة ومثالية أمامها، حتى انبهرت هي وتساءلت ببعض الغرور:

- ألم تقطعي الجزر من قبل؟.

هزّت الفتاة كتفيها وهمست:

- لا.. أخذت الكثير من الوقت حتى أعرف كيف أمسك السكين...

نظرت لها باستنكار، وفجأة سمعت صوت كبيرة الطهاة تسكتنا:

- هششششششش أسمع ثرثرة! والثرثرة تقلل إنتاجيّة العمل!.

انتفضت الفتاة وتجاهلتني تمامًا، وكأنني لست هنا.. وشرعت أنا بعملي، بينما أفكر.. لماذا استيقظت في منتصف الليل لتأتي إليّ سيدة مريعة لتأخذني للعمل.. أهي مواعيد العمل هنا؟ ولماذا أعمل بالمطبخ؟ ألم يقولوا أنني أميرة؟

- ركزي فقط على هذا الشوال الآن.. وسنرى إن كنتِ أميرة أم لا...

قالها ظافر وهو يشير للشوال المجهول بجانب ساقي، فنظرت له غير مصدقة وقلت بهمس:

- أتقرأ الأفكار؟.

أدار وجهي أمامي وقال:

- لا تفضحي أمرك.. ليس مسموح بالحديث مع الحارس الشخصي أثناء العمل...

أغلقت شفتيّ وقلت في عقلي بسخط:

- وما هذا العمل؟ تقطيع الـ...

وفتحت الشوال لأجد العديد من البصل الأبيض... فصحت في نفسي بهمس:

- راااائع! ستقع عيناي من كثرة البكاء والنواح على هذه الكمية الرهيبة من البصل!.

سمعته يقهقه بهدوء، فزمجرت بغضب وبدأت في الـ.. عمل!

سحبت نفسًا سريعًا من أنفي الذي يسيل، ومسحت عينيّ الدامعتين الملتهبتين برفعة من عظمة كتفيّ لهما، فها قد انتهيت أخيرًا من الشوال كله! والجميع ينظرون لي بغرابة! جمعت بقايا وقشور البصل من على المنضدة لأضعها في الشوال، كقمامة، ونظفت سكيني.. متجاهلة نظراتهم، بينما الفتاة بجانبي لم تكمل ربع شوال الجزر حتى! تحرّكت بزهو رغم ألم ساقيّ من كثرة الوقوف، أريد الذهاب لرئيسة الطهاة «ميلدا» شعرت بظافر يقترب من يميني، فتجاهلته وأكملت السير، ولم أر أنه قد أخذ شريحة جزر غير متساوية التقطيع من الفتاة بجانبي، وألقاها بطريقي.. لتتعثّر بها قدمي!

لا أريد أن أفزعكم.. لكن ما حدث من وقوعي، أبسط ما يقال عنه أنه كارثي! فبلحظة إدراكي أن قدمي اليمنى داست على شيء مريب، حاولت تفادي السقوط بشتّى الطرق، مددت كلتا يديّ للجانبين، أحاول التشبث بأي شيء! فالتقطت يدي

اليسرى طرف المنضدة المجاورة.. لا.. ليست المنضدة نفسها.. بل شوال عملاق من حبيبات البازلاء التي أخذن شوطًا كبيرًا في تقشيرها، أهدرتها أنا أرضًا، فسقطت كشلالٍ أخضر مريح للرؤية وغير مريح في آنٍ واحد! لا أنكر أن مظهره أعجبني، واعتقدت أنني محظوظة كفاية لأرى هذا المشهد بأولى أيام حياتي الجديدة.. لكن ما أثار فزعي؛ أنني بيدي الأخري -اليمنى- جذبت ملابس فتاة الجزر المسكينة.. وأعتقد.. أنني جردتها من نصف ملابسها السفلي!

أتذكر صوت ارتطام أعلى ظهري بالأرض، صوت تناثر البازلاء، صرخة فتاة الجزر وصرخة الأخريات، التفاتة ميلدا.. وضحكة مستهزئة من ظافر!

لم أفتح عينيّ إلا حين سمعت صوت سل سكين تزامنًا مع صوت صرخة عالية مفاجئة من على شمالي، وتفاجأت بأنها صرخة الفتاة التي قضت ساعات في تقشير البازلاء، وأنها بذلك السكين، تريد طعني للتنفيس عن غضبها!

وقف ظافر بيني وبينها بسرعة، وظلّت نظراتها معلقة بي أنا، تشحذ أنفاسها بغضب كثورٍ هائج، وتمسك سكينها بمنتهى الغلِّ، وقبل أن تقدم على فعل أي حماقات، أتت ميلدا، لتصيح بعمق صوتها:

- من السبب في هذه الفوضى؟.

لم يكن صوتها غاضبًا كما هو صوت أنفاس الفتاة على يساري، بل كان صوتها متماسكًا، يبحث عن الحقيقة..

صمت الجميع بينما أشرن إليّ.. تبًّا! لم أكن أرى تلك الجزرة الحمقاء! ما ذنبي!

قلت بصوتٍ خفيضٍ، أقرب للهمس، يتناسب مع موقفي:

- لقد دست على شيء ما...

واعتدلت لأجلس على ركبتيّ ويداي تبحثان عن ما تعثّرت به.. ووجدت قطعة الجزر عالقة في حذائي، فرفعتها في وجه ميلدا بحذر بينما أعتدل بالوقوف مبتعدة

عن بقايا الخضر على الأرض، فالتفتت ميلدا لفتاة الجزر والتي أمسكت بردائها تعيده كما كان وهي تذرف الدموع خزيًا، وقالت بصرامة:

- ليست المرّة الأولى التي توقعين فيها البقايا على الأرض، ها قد تسببتِ بكارثة!.

- لكن، آنستي!.

قالتها المسكينة برجاء أحمق لتسكتها ميلدا بإشارة من يدها.. وقالت بمنتهى الهدوء:

- تعاونّ على تنظيف كل هذا! الجميع سينظف الفوضى ومن ثم تعدن لأعمالكن.. لكن بحذر!.

وفي نفس اللحظة أتت خادمة وهمست بشيء ما في أذن «ميلدا»، فزفرت ميلدا بضيق وقالت:

- ممتاز.. ممتاز! كم أنا سعيدة بكنّ!.

وأضافت بغضبٍ مكتوم:

- استيقظ الأمير وما هي إلا دقائق ويطلب تناول الإفطار! ولكن كيف مع هذه الفوضى يا ترى!.

قالتها وهي تشير حولها محاولةً التماسك.. وقبل أن تضيف أي شيء آخر همست أنا باستنكار:

- يستيقظ ليتناول الإفطار ليلًا؟ غريبٌ أمره!.

سمعت صوت الضحكات من كل مكان حولي.. يسخرن من جهلي! فما قلته كان بصوتٍ مسموع.. وشرع الجميع بالتنظيف.. فتوجّهت أنا لميلدا بحذر وقبل أن أشير على كومة البصل التي أنجزتها أمسك ظافر بذراعي وهمس:

- مهلًا...

التفت له ببلاهة، لأجد صوت ميلدا تصيح فيّ:

- الفتاة الجديدة.. تعالي إلى هنا.

التفت لها وبحذر سرت إليها، فسألتني:

- لا تعملي بتنظيف الفوضى، فقط قطّعي البصل، أفهمت؟.

هززت رأسي بفهم وقلت بتأكيد:

- أنا بالفعل انتهيت منه!.

كانت هي قد التفتت لخادمة، تتذوّق ما تحمل من طعام، فتركت الملعقة جانبًا ونظرت لي ضاحكة قائلة بغير تصديق:

- أعطيتك شوالًا.. لا بصلتين!.

ابتسمت بفخر وقلت:

- وقطّعته أنا كلّه! حتى آخر حبّة!.

رفعت حاجبيها بغرابة ونظرت خلف كتفيّ، لتهزّ رأسها بالنفي قائلًا بصبرٍ عجيب:

- لا أرى ذلك يا صغيرة.. اذهبي وأنجزي الكمية.. هيّا!.

قالتها بسخرية وهي تدير كتفيّ، لأسرع أنا إلى كومة البصل خاصتي.. والتي ذرفت الدموع من أجلها والتهبت عيناي! لقد اختفت الكميّة!

ردّدت هامسة بذهول:

- أين؟!.



{٥}

= نظرة =

ردّدت هامسة بذهول:

- أين؟!.

انتفضت حين خاطبني ظافر بغضب:

- ألم أخبركِ بالانتظار؟ لماذا لا تسمعين الكلام؟ أحمقاء أنتِ؟!.

كانت تلك المرّة الأولى التي سمعته فيها يحدثني بغضب، فنظرت له بذهول وهمست بغير تصديق:

- لا تقل لي أنك السبب في اختفاء نتيجة مجهودي المميت؟.

- مميت؟.

كرّرها ظافر باستنكار وأشاح بيديه في الهواء في وجهي قائلًا بدهشة:

- لقد انتهيت في وقتٍ قياسي! وكل قطعة مساوية للأخرى حتى دون أن تنظري لما تفعلين! لقد قمت بها بطريقةٍ.. مثالية للغاية!.

زاد ارتفاع حاجبيّ بدهشة حتى كادا أن يفرّا من جبهتي وأنا أقول:

- وهذا جزائي؟!.

وصرخت في آخر جملة لأرى الفتيات ينظرنّ إليّ بازدراء.. وقابلتهن أنا بنظرة غاضبة، أضافت لقبحي مظهرًا لا يحتمل فأشحن ببصرهن بعيدًا.. جذبني ظافر من معصمي لمكان هادئ بالمطبخ... وقال بهدوء:

– لا تظهري قدراتك دفعة واحدة، كوني ذكيّة.. كالحاوي!.

هززت رأسي بعدم فهم، وقبل أن أقول أي شيء سمعت صوت واحدة من الفتيات تقول:

– الآنسة ميلدا تناديكِ...

هززت رأسي ونظرت لظافر شزرًا وهمست له:

– للحديث بقيّة!.

سار بجانبي نحو ميلدا.. مجددًا، والتي نظرت لي قائلة برفق:

– انسي أمر البصل.. أنتِ لا تصلحين للمطبخ، وجودك سبب ضجّة...

وأشارت لخادمة تقف بجوار الباب قائلة:

– اذهبي معها، سترشدك لمهمة أخرى.

وبينما أستدير ظهرت خادمة أخرى قالت لميلدا:

– سيدتي، الأمير يريدك لطلب الطعام.

تنهدت ميلدا وقالت:

– حسنًا.. آتية...

تركت المنشفة من يديها وغادرت، متجاهلة وجودي تمامًا.. فغادرت أنا المطبخ متجهة للخادمة، التي انحنت إليّ وهمست بأدب:

– الآن ستذهبين لإحدى الغرف التجريبية للتنظيف.

- تنطيف! الآن؟.

هكذا رددت، بغير تصديق، وهتفت:

- آهٍ يا ظهري! كيف سأبدأ في شيء آخر بعد ما قد قمت به!.

ضحكت الخادمة وقالت بتحفظ:

- طالما أنكِ آنستي لم تفلحي في مهام المطبخ، بالطبع ستنجحين بمهام التنظيف!.

أطلقت ضحكة قصيرة مستنكرة.. وتأففت من رائحة البصل النفّاذة المنبعثة من يديّ وملابسي، سمعت صوت ظافر يهمس:

- سأكون معك، لن ننجح تلك المهمّة مهما كلفنا الأمر.

كدت أن أردّ عليه إلا أنه كمّم فمي بيديه، فالتفت له وهمست بين طيّات عقلي:

- ماذا تفعل؟ اتركني!.

تركني ببطء وهو يقول:

- لا تتحدّثي مستخدمة شفتيكِ.. فعقلك يكفي...

تنهّدت وأنا أفكر:

- هل حقًّا تقرأ أفكاري؟.

رأيته يهز رأسه فتساءلت مرّة أخرى:

- ومن أيضًا يمكنه ذلك؟!.

قال متسليًّا ببرود:

- أنا الضحيّة الوحيدة...

لكنني نظرت له بغضب وقلت بعقلي:

- ولم أنت محتمل؟ فقط ابتعد عني، واجلب لي حارسًا آخر يرفق بي، ويخبرني بأي شيء يحثّني على الاستمرار!.

وهمست بازدراء:

- متعجرف!.

- سمعتك!.

قالها.. وركّزت أنا على السير في تلك الردهة التي لا تنتهي.. ردهة أخرى مشابهة للتي أعرفها، ركّزت بصري على الديكورات؛ تحف، وتماثيل عتيقة. حاولت معرفة معناها، إلا أن الخادمة توقّفت فجأة أمام أحد الشمعدانات الذهبية، اقتربت من شموعها بشفتيها، ومن بين شفتيها نفخت الهواء، لتنطفئ شمعة واحدة، وفي نفس اللحظة اختفت لوحة من على الجدار، كانت لرجلٍ قوي، شاربه يحتلّ معظم وجهه.. شهقت أنا متفاجئة من ما حدث، فهمست الخادمة:

- الشمعة الأولى تفتح الزنزانة.. تفضلي آنستي...

تبعتها للداخل، وبجانبي ظافر، غير متفاجئ من أي شيء. ابتعدنا عن بقعة الضوء حتى زاد الظلام من حولنا، أعادت الخادمة النور للمكان مستخدمة أعواد الثقاب في جيب ردائها، أضاءت الشعلات وحين انتهت قالت بتحفّظ:

- آنستي يجب أن تنتهي منهم قبل أن يحضر الـ.. الحرّاس.

ضيّقت عينيّ وسألتها ببراءة:

- أي كم ساعة سأبقى هنا؟.

نظرت الفتاة للجانبين بحذر، ثم همست:

- سيخبركِ الحارس الشخصي...

وانصرفت مسرعة الخطى، لعل لديها أعمال أخرى! وقتها نظرت لما حولي وهوى قلبي في قدميّ وأنا أدخل لذلك الممرّ الصغير، المؤدي لأربع زنازين فارغة، كالتي كنت بواحدة منهن! انقبض قلبي بصورة بشعة وأبيت الحركة حتى نظر لي الحارس وقال:

- لماذا تخاف جميع الفتيات من العنابر؟ ماذا ترون فيها سوى أنها البوّابة لعالمكم الآخر؟!.

قالها ظافر بنبرة عالية مستنكرة، ليجفلني، فهمست أنا بذعر:

- أعتقد أنني لن أنسى هذا المكان أبدًا.. إنه مريب!.

هزّ رأسه بلا اهتمام قائلًا:

- نعم نعم أعلم..

تنهّدت وحاولت أن أحافظ على هدوئي.. وتفقّدت أدوات النظافة من حولي؛ مِنفضة أنفض بها الفراش، قطعة قماش أزيل بها الغبار من على القضبان وقطعة قماش من الكتّان، قديمة ومهترئة.. بجانب دلو مليء بالماء ومحلول التنظيف بالطبع هو للأرضية... سأترك المسح آخر شيء.. لكن كيف سيخرج الغبار ولا يوجد أي منفذ للهواء أو الشمس؟!

قاطع تفكيري ظافر يقول متسائلًا بحزم:

- هل انتهيت من التفكير كربّة منزل؟.

نظرت له وزفرت بضيق قائلة:

- إذا كنت لا تريد الاستماع لما أقول فقط سد أذنيك! أنا أفكر في أسرع طريقة للانتهاء من هذا الأمر.. فهذه الغرفة ثقيلة على قلبي.. أبغضها.

وأشرت للمكان من حولي قائلة وكأنني منوّمة مغناطيسيًّا أو تحت تأثير الوسواس القهري للنظافة:

- المكان متّسخ للغاية.. يجب أن أتحرّك...

اتّجهت للمنفضة، وفتحت أول زنزانة؛ بل الزنزانة الوسطى، تلك كالتي كنت قابعة بها في أولى لحظاتي هنا بتلك الحياة.. بهذا العالم..

أمسكت المنفضة بإحكام بكلتا يديّ، وقبل أن أرفع ذراعيّ للأعلى لأهوي على هذا الفراش بكل قوّتي، وقعت المنفضة من يدي! فأخذتها من على الأرض ومجدّدًا، زدت من إحكام يدي عليها، ثم.. وقعت مرّة أخرى!

زفرت بضيق ونظرت لظافر، لأجده يلوّح بأصابعه في الهواء، قائلًا:

- لن أدعك تفعلين هذا.. تذكّري ما قلته منذ قليل...

رميت المنفضة من يدي واتّجهت له بعدائية صارخة بوجهه:

- لِمَ لا تتركني أعمل!.

قرّب ظافر أصبعيه الإبهام والسبّابة من جبهتي.. وفجأة طرق جبهتي بسبّابته لأنتفض أنا ألمًا! وتأوهت بغيظ من تلك الكهرباء التي سرت في رأسي لدقيقة وجلست أرضًا بضعف بعد أن انتشر تأثيرها في جسدي كلّه، وتأوهت بوهن:

- ما الذي فعلته؟.

جلس مربّعًا قدميه أمامي ببساطة، ورفع رأسي المنكس بأنامله قائلًا:

- أرخيت قواكِ.. يجب أن تكوني ضعيفة هذا الوقت، حتى يعود المسؤول عن مراقبتك ويعلم بأنكِ فاشلة في تلك الأعمال.

انتفضت برأسي لأشعر بدواء وقلت بتيه:

- لكني لست فاشلة... أعلم كيف أقوم بالتنظيف!.

تنهّد ظافر بصبر وقال:

– إذا قمت بالتنظيف على أكمل وجه سينهكونك في زنازين أخرى، ويعيدون اختبارك لمهارات الطبخ.. وحين تتم ترقيتك، سيكون عليكِ غسيل الصحون والأطباق الملكيّة.. أو تنظيف إحدى غرف الوزراء وربّما غرفة الأمير نفسه!.

ورفع صوته ليقول باستنكار:

– من أنتِ يا فتاة! تبدين كربّة منزل حيّة الضمير؛ تنهكين نفسك بأعمال المنزل وكأنك تنتظرين زوجك الحبيب!.

اتّسعت عيناي وقلت بضيق:

– هل أنا هنا لأكون خادمة؟.

هزّ رأسه نفيًا وقال برزانة وحكمة:

– هذا بيدك أنتِ.. إن أردت الراحة، انبذي التعب من الآن.. اتركي كل ما هو صعب ليفعله الآخرون.

– وهل هذا ممكن؟.

قلتها بغير تصديق فقال مؤكدًا:

– كل شيء ممكن.

وأضاف:

– ما عليكِ إلا أن تطيعيني.. وسأرشدك للصواب.

مالت رأسي بحركة متعبة لأحد الجانبين وقلت بضعف:

– وكيف أثق بك؟ وأنا لم أرَ وجهك قط؟!.

وأضفت:

- تبدو كالهاربين وأنت تخفي نفسك هكذا!.

مددت يدي لوجهه بحذر وبطء ناتج عن ضعفي، وقبل أن أقبض على غطاء رأسه وقناعه، قبض هو بكفه البارد على معصمي... فارتجفت من برودته وقلت:

- ماذا؟ هل أنت دميم الوجه مثلي؟.

هزّ رأسه نفيًا وهو يترك معصمي ببطء، فقلت باستنكار:

- لا تقلق وأرني وجهك.. لن أحكم عليك.. واثقة أنك لن تكون أكثر قبحًا مني!.

ضحك باستخفاف لما أقول، وأضاف بلهجة تحذيريّة:

- ربما ستحبين إرضاء فضولك بطرق أخرى!.

هززت كتفيّ بلا مبالاة.. ثم همست:

- كم باقي على وجودي هنا؟.

أخرج شيئًا ما من جيب ردائه ووضعه على الأرض، لأجد أنها ساعة رمليّة صغيرة، فشهقت وحملتها بين يدي بحذر قائلة بدهشة:

- كم هي غريبة! مثلك!.

رفع يدي بالساعة لتكن أمام عيني وذقنه الخفية، وقال بهدوء:

- حين تختفي الرمال من هنا.

وأشار للجزء العلوي للساعة ثم استطرد:

- سنخرج...

قالها ثم أعاد الساعة إلى جيبه فأخفضت أنا يدي الخاوية وتنهّدت. أشعر بالضعف في دقّات قلبي.. كم هي بطيئة.. كلساني حين أتحدّث! نظرت لما حولي وسألته:

- كيف سأتعامل مع الخادمة.. أو مع تلك المرأة السخيفة التي سكبت الماء بوجهي.. أعني.. كيف سيتصرفون مع عدم تنظيفي للزنازين؟.

استند ظافر على الحائط بجانبه وقال بهدوء:

- سيوبّخونك بمنتهى الروتينيّة.. ثم ينقلونك لغرفة أخرى، أكثر آدمية.. ويعطونك شيئًا لتأكليه...

رفعت حاجبيّ بتعجب لما يقول، فأطلقت معدتي صوتًا مألوفًا.. أنا جائعة!

ضحك ظافر وقال بصوته العميق:

- لا تقلقي سيحرصون على إبقائك بكامل صحّتك...

ضحكت فجاءت ضحكتي بطيئة.. مضناة للغاية.. وقلت باستهزاء:

- نعم أعلم.. كالفتيات في المطبخ.. يعملن ويعملن بلا توقّف!.

اختفت بسمة شفاهي واستعدت تركيزي قليلًا وقلت متسائلة:

- كيف أخفيت البصل الذي قمت بتقطيعه؟.

رفع كلتا يديه أمام عيني وقال ببرود:

- أعتقد أنكِ لاحظت أنني... مشعوذ...

وقال آخر كلمة بطريقة ذات مغزى، فضحكت وحككت رأسي قائلة بغيظ:

- نعم نعم بالطبع! تعبر من بين الفتيات وكأنك ظِل، تسبح في الهواء ببراعة، تفرقع إصبعيك لتأخذ بصري وطاقتي.. امممم.. ماذا بعد؟.

سمعت صوت ضحكته المتسلية.. وفجأة نهض من مكانه، بمنتهى الاتّزان، وساعدني على الوقوف بيديه الباردتين، فهمست بريبة:

- ما الأمر؟.

سمعت صوت جلبة بالخارج، فقال:

– قومي بسكب القليل من الماء على الأرض وعلى ملابسك، ومثّلي القيام بعملك.

أومأت برأسي وبسرعة قمت بتنفيذ ما قال، ليس ثقة به، بل لخوفي من العواقب!

وبينما أُمسك بقطعة القماش الكتّانية المتشبّعة من الماء وألوّح بها على الأرض بعشوائية أحول الغبار إلى بقع طينيّة عشوائية، وفجأة، فُتح الباب الخارجي بضجّة كبيرة، فانتفضت ونظرت خلف كتفي الأيسر لأجد السيّدة القرنفلية قد أتت بصحبة خادمة ما، وحين وقعت عيناها عليّ شهقت وصاحت بصوتها المزعج:

– ألم تنته بعد! ما هذا الاستهتار!.

اقتربت مني بغيظ فأطرقت أنا وجهي مرغمة.. وقبل أن أتساءل بداخلي عن ما يفعله جسدي الخائن، وجدت صوت ظافر يقول:

– تصنّعي الضعف أكثر.. كوني واهنة لتلك الدقائق فقط!.

– حسنًا.

قلتها بين طيّات عقلي بعد أن أدركت أنه يتحكّم بحركات جسدي.. ورفعت صوتي ليصل لتلك السيّدة:

– آسفة.. بذلت قصارى جهدي، لكن....

قاطعتني بكلمة واحدة:

– انهضي!.

بذلت المجهود لأقوم، وكان هذا وفقًا لمخطط ظافر.. وحين وقفت معتدلة، اقتربت مني وجذبت شعراتي القصيرة بيدها للأعلى، فتأوهت ورفعت رأسي.. لأجدها تنظر إليّ بغرابة وهمست بـ:

– كيف تكونين هكذا ووجهك...

تركت باقي الجملة دون أن تكملها وأسبلت أهدابي، لقد عرفت معنى ما أرادت قوله. قطعت الخادمة لحظة الصمت قبل أن تبدأ قائلة بقليل من الهمس في أذن المرأة:

- سيدة جليندا يمكنني إصلاح الأمر، لن يأخذ إلا دقائق فقط.

نظرت السيدة جليندا تلك للخادمة وأومأت بصمت، فاقتربت الخادمة وعبرت بجانبي، مخترقة جسد ظافر -غير المرئي بالنسبة لها- حتى وصلت للزنزانة التي كنت سأبدأ بها، أخذت المنفضة وبدأت بالضرب على الفراش بقوّة لا تناسب وجهها الهادئ وجسدها الضئيل، عدت أنا ببصري لجليندا القرنفلية وابتسمت بضعف.. فقالت:

- اتبعيني....

وتحركت للخارج، فتحرّكت خلفها بمنتهى الطاعة.. حتى وصلنا للرواق الذي دخلنا منه، ولاحظت أن بمجرد عودة لوحة الرجل ذي الشارب للجدار مرّة أخرى، عادت الشمعة الأولى لتشعل نفسها! واختفى الممرّ الذي عبرنا منه للتوّ!

- اذهبي للاستحمام ليعود النشاط لجسدك...

وأضافت متذكرة:

- آه قبل أن أنسى.. أخبرتني الماشطة بأن الخيّاطين انتهوا من فستانك الجديد.. الهزيل مثلك...

هززت رأسي بحماس لم أظهره.. فأنا حقًا أريد إزالة رائحة البصل هذه عني، وارتداء ما يناسبني...

- لكن أسرعي، ثمّة ضيوف آتون اليوم، لا نريد الاشتباك معهم، أفهمت؟.

- نعم سيدة جليندا.

أتغيّرت معاملتها لي قليلًا أم أنني أتوهم؟ صوتها أصبحت نبرته خفيفة، لا تلك النبرة المزعجة! ونظراتها أيضًا، فلم تنظر لي بعينيها الكحيلتين الجاحظتين بقسوة كما كانت تنظر لي في بادئ الأمر. أظنها اقتنعت بكوني هزيلة فرأفت بحالي؟!

انصرفت جليندا لتتركني أنا وظافر وحدنا في الممر، فنظرت له وقبل أن أطلب طلبي وجدته يطرق جبهتي بإصبعيه الإبهام والسبّابة؛ وعادت طاقتي إليّ! فتنهّدت براحة، وحين وجدته يرفع يده في الهواء استوقفته قائلة:

- ظافر لمَ لا نذهب سيرًا؟! أريد معرفة الطريق، ألن أعيش هنا للأبد؟.

أخفض ظافر يديه وقال بغموض:

- كما تريدين...

تقدمني بخطواته الواسعة، رأيته يعبر منتصف الرواق في خطواتٍ بسيطة! فركضت إليه وصحت بهمس:

- انتظرني! لا أريد أن أضل الطريق في هذا المكان الواسع...

اتّسعت خطواتي حتى واءمت خطواته، فابتسمت بفخر، ولم أدرك أنه هو من أبطأ خطواته من أجلي! أشرت إلى قدميّ وأنا أمشي وقلت بأنفاسٍ لاهثة من مجهود المشي السريع:

- لِم لا تلقي عليّ تعويذة لأتحرك بسرعة.. أو ليزيد طول ساقيّ بعض السنتيمترات؟! سيساعدني هذا كثيرًا.. سأصبح سريعة الحركة مثلك!.

نظر إليّ ثم أعاد بصره للأمام، لينعطف من عند المطبخ لنسير في الرواق العظيم، أول رواق عرفته.. ثم قال بعمق صوته المعهود:

- لن تحبي أن تكسر قواعد القصر باستخدام السحر المبالغ فيه... العواقب ستكون وخيمة....

ركضت إليه لأتشبث في ذراعه كالأطفال وقلت:

- اجعلني أطول أربعة سنتيمترات فقط من فضلك!.

توقّف وقال وهو ينفض ذراعه القويّة من يدي:

- طولك مناسب، كفى تذمّرًا.. واقلقي من أجل وجهك فقط!.

ضحكت مستهزئة وقلت بتهكّم:

- يبدو أننا متشابهان في هذا الأمر، فكفى سخرية على شيء ليس لنا دخل به!.

هزّ كتفيه بلا اهتمام وسار أمامي، لأرى أنا عرض كتفيه وبنيته القويّة فزفرت بضيق وتساءلت.. هل يمكنني تغيير حارسي؟ هل يمكنني أن أحصل على شخصٍ ما أرى وجهه؟ يحدثني ويطمئنني حين يخفق قلبي بإجفال.. أو يخبرني بأسرار تلك القلعة حين أريد إرضاء فضولي اللعين؟

نكست رأسي بضيق، لكن سرعان ما رفعتها حين توقّف ظافر واصطدمت بجسده، ابتعدت عنه لأجده ينظر لباب القلعة.. الذي دلفنا منه أول مرّة وأنا ضعيفة. أراهن على أن عينيه الرماديتين متّسعتان على آخرهما، فمن توقّفه المفاجئ هذا علمت بأنه مهتم بما يرى!

نظرت لباب القلعة لأجد حارسي الباب يقفان على اليمين وعلى اليسار، مفسحين الطريق لمن يعبرون، لكن... من هم؟!

هيئتهم غريبة.. رأيت ثلاثة منهم، يغطّون رؤوسهم وأجسادهم المهيبة بعباءة سوداء واسعة لونها باهت وضبابي. أخفضت بصري لأرى أطراف العباءة ترفرف وهم بلا أقدام! كالأشباح! يطوفون في الهواء! يتحرّكون للأمام بمنتهى البطء.. لاحظت أن عباءتهم تلك سوداء شفّافة قليلًا، تريني من خلالها ضوء مصابيح

أحد الحرّاس خارج القلعة.. شهقت بمفاجأة حين رأيت ما يمسكون.. كنّ فتيات.. بشعرٍ طويل، يغطيهن قماش رثّ للغاية يظهر أجسادهن العارية، يغلفهن التراب، ويتساقط منهن بقايا الأرض من حصى ورمال... وطين!

وضعت يدي على قلبي الذي تباطأت دقّاته بشكلٍ ملحوظ، وبت أشحذ الهواء بصعوبة وعيناي لا تقدران على النظر لأي شيء غير هؤلاء! اقتربوا ليعبروا بجانبي، فوجدت ظافرًا يلتفت لهم ويلقي تحيّة عسكرية شامخة.. لم ألبث أنا حتى عدت ببصري إليهم، لأرى واحدًا منهم يلتفت لي بكامل رأسه كالبومة، يرفع رأسه للأعلى قليلًا ببطء.. ومدّ يده ليرفع غطاء رأسه، حتى ظهرت عيناه، تلمعان بلونٍ أبيض أخاذ، وكأنه ضوء الشمس الذي افتقدته! سرت رعشة غريبة في جسدي بمجرد تلاقي عينيّ بعينيه، فشهقت آخر أنفاسي بصعوبة حتى شعرت بالهواء ينقطع عن رئتيّ..

أعتقد أن دوي صوت تحشرج أنفاسي قد وصل له، فأعاد غطاء رأسه ونظر للأمام بانضباط كما كان! مددت يديّ أحاول التمسّك بأي شيء وكان ذراع ظافر، لكنّه لم يمنعني من التماسك، ولم يمنع فقدي للوعي!

لم أدرِ ما الذي حدث.. وكيف حدث... لكنّني أدركت لاحقًا أن ما رأيت.. كان قابض أرواح..

استيقظت في غرفتي المضاءة بالشعلة الصفراء الضئيلة، شهقت أنفاسي بجشع، لأرى جليندا مقتربة مني بوجهها تمسح على شعري القصير، تنظر لي بدهشة، وغير تصديق فسألتها:

- ماذا حدث لي؟.

وأضفت بخوف:

- لمَ تتطلعين إليّ هكذا؟.

لم تجب، فهمست اسمها برجاء، دقّات قلبي واهنة للغاية.. لن تحتمل الإلحاح وقلّة الصبر.. فليجبني أحد!

وبينما صوت أنفاسي اللاهثة هو الصوت الوحيد القاطع للصمت، أخذت جليندا شيئًا ما على المنضدة، وقرّبته إليّ.. كانت مرآة، لها إطار ومقبض نحاسي مزخرف بطريقة فريدة من نوعها، أخذتها منها بحذر، ونظرت فيها، وقد ازدادت دقّات قلبي من حماس ما أقدم عليه..

ضاقت المسافة بين حاجبي اللذين امتدّ طولهما وكثافتهما بطريقة مثالية؛ نظرت لآثار البثور المقزّزة التي تحوّلت إلى نمش جميل على أنفي الدقيق وعلى بشرتي الجديدة الناعمة.. وشفتاي.. أصبحتا ممتلئتين كالكرز، يلمعان من رقّتهما.. أمّا عيناي.. فأصبحا بلون العسل الصافي والأسود هو لون شعري، أصبح لونه فاحمًا بطريقة مثالية ووصل طوله لبعد كتفيّ بقليل.. لقد استحال كل شيء.. لقد تبدّلت هيئتي!

ابتلعت غصّة في حلقي وأسبلت أهدابي الطويلة الكثيفة عند أطراف عينيّ، أغلقهما وأفتحهما بغير تصديق لما أرى... فما أرى هي أنا.. إليونورا.. فتاة رقيقة وجميلة! ذات جسد أنثوي جميل.. وجديد!

فقدت وعيي كدميمة، وها أنا أستيقظ كالجميلة النائمة.. لا.. بل أميرة!

تركت المرآة من يدي بصدمة فتهشّمت لقطع صغيرة.. لم تعبأ جليندا لما حدث، فقط ضمّت قبضة يدها اليمنى وأسندتها إلى صدرها، واضعة قبضتها اليسرى خلف ظهرها.. ونهضت من على فراشي.. وانحنت إليّ.. مطأطئة رأسها إلى الأرض الباردة، لتقول بمنتهى الهدوء والريبة:

- هل لي أن أتشرّف باسم مولاتي؟.

زادت دقّات قلبي، ونظرت حولي لأجد ظافرًا يقف بآخر الغرفة، ينظر لي بثبات وهدوء، فنظرت أنا لجليندا المنحنية لي بمنتهى الخنوع.. وقلت بصوتي الذي أدركت فقط أن نبرته تذيب القلوب:

- إليونورا.. هو اسمي!.



{٦}

= جمالي فرض الهدف =

- إليونورا.. هو اسمي!.

نظرت لي جليندا مبتسمة بارتباك.. وقالت:

- يا له من اسمٍ جميل! كيف لم أسألكِ عنه من قبل؟.

أشحت أنا ببصري عنها.. لظافر.. أنظر له بتساؤل، ولم تأتني منه أي ردّة فعل، فأمسكت بمعدتي التي حرقتني فجأة من الجوع، مصدرة صوتًا سمعه رفيقاي بالغرفة، لأجد جليندا تهتف بهمس:

- يا إلهي ماذا أفعل!.

نظرت لها بتساؤل فقالت:

- الطعام جاهز لكن.. لكن.. لا يليق بكِ عزيزتي!.

- عزيزتك؟.

قلتها أنا همسًا بغير تصديق.. وأنا التي كنت أشك في تغير معاملة جليندا لي! الآن هي غير معقولة! أمن تغير شكلي فقط تغير معاملتها لي؟ غريب!

- وكيف يليق الطعام بمن يأكله؟.

قلتها باستنكار، معدتي تؤلمني سآكل أي شيء! لا يهمني ماهية الطعام..

- فقط هاتيه!.

قلتها بغير تصديق لتصفق هي بكلتا يديها بتوجّس، لتدخل خادمة بعد طرقتين خفيفتين على الباب، ممسكة بصينية مستديرة بسيطة، لا أرى ما عليها بسبب ذلك الغطاء الداكن عليه.. فاعتدلت في جلستي لتقرّب جليندا المنضدة ببطء إليّ، رغم ثقلها.. استقمت بظهري الرشيق وجلست القرفصاء على طرف الفراش واستندت بمرفقي للمنضدة ونظرت للصينيّة مرة أخيرة بترقّب، وضعت الخادمة الصينية أمامي وكشفت عن محتواها لتبتسم المشرفة بإحراج؛ فالموضوع أمامي هو رغيف خبز بائت، قطعة صغيرة من الجبن الأبيض داكن اللون بفظاعة، حبّات من البازلاء تعد على أصابع يدي ونقاط من سائل لزج.. زيت.. وذرّات من الملح!

لا أتذكر نوع الطعام الذي كنت معتادة على تناوله.. لكن.. من الواضح أن هذا الطعام لم يعجبني.. قط!

امتقع لون وجه جليندا من تعبيرات وجهي الغريبة، وقالت بحرج:

- آسفة آنستي.. كل شيء سيتغيّر.. سيتم نقلك لطابق العرائس.. وسيكون لديكِ فراشٌ أكثر راحة، وبالطبع طعامٌ شهي!.

قالتها ثم أمرت الخادمة بإحضار طعام آخر لآكله.. نظرت أنا لها بغرابة وتساءلت:

- أقلتِ عرائس؟.

ابتسمت مشجعة وقالت بدهشة:

- بالطبع! أنتِ منهنّ الآن!.

أشرت لهيئتي وقلت مستنكرة:

- فقط لأنني أصبحت جميلة؟ فقط لهذا؟.

ضمّت جليندا كلتا يديها بارتباك وهزّت رأسها قائلة:

– بالإضافة لأشياء أخرى.. ليست بالقدر الكافي كالجمال بالطبع!.

ضممت شفتيّ بغيظ وقبل أن أسأل عن أي شيء آخر استأذنت جليندا، مع إخباري بأن الطعام البديل سيحضر فورًا.. وبالفعل، بمجرّد فتحها للباب استقبلت عربة خشبيّة صغيرة من طابقين، وضع عليها كافة أنواع الطعام، وهذا ما عرفته دون كشف الغطاء، فهذه المرّة مختلفة بالطبع!

ابتسمت الخادمة التي أراها لأول مرّة ودون أن ترفع وجهها لي وهي تقول أن الطابق العلوي يعد في تلك اللحظة.. وأنه بمجرّد تناول الطعام والنوم قليلًا سيكون لي مكان هناك.. وضعت الطعام أمامي على المنضدة بمنتهى الحذر؛ الطعام فاخر بحق! لا يتماشى مع كآبة الغرفة المعتمة الداكنة.. ولا يليق مع كل الهموم التي تسبح بعقلي. يليق بجمال وجهي.. فقط..

أصبحت وحيدة، إلا من ظافر.. فبغلقهم للباب انهمكت في كشف باقي الطعام أمامي، ومع تناولي لأول قضمة سكن كل شيء؛ صوت معدتي، طنين الهواجس بعقلي، دقّات قلبي.. وصوت الهواء البارد المزعج بالنسبة لي. بالقضمة الثانية شعرت بالانتشاء وابتسمت بين القضمة الخامسة والسادسة لجمالي الذي منحني اختيارًا أفضل، والذي سيمنحني الكثير والكثير في المستقبل بالطبع.. وبتناولي القضمة الأخيرة تنهّدت وأمسكت بطبق الحلوى...

لاحظت أنني وحيدة.. بالرغم من وجود شخص معي بنفس الغرفة الضيقة.. رفعت وجهي إليه، ذلك الطيف الأسود.. الذي يرتدي ملابس شبيهة بتلك التي يرتدونها قابضو الأرواح... وقلت رافعة صوتي قليلًا ليسمعني..

– أنت مريب.. تحدّث إليّ.. فسّر لي كيف حدث هذا؟!.

وأشرت إلى وجهي الجميل ولم أجد أي رد فعل منه! تعجّبت وناديته باسمه، لأقابل نفس الصمت المطبق.

زفرت بضيق، وتركت طبق الحلوى من يدي، فأنا لا أريده أصلًا لقد امتلأت معدتي! صببت بعضًا من الماء النظيف الذي وضعوه بجانب الطعام وأوصلته لمعدتي بسلام، ثم قمت بحذر لذلك المدعوّ ظافر..

خطوات قليلة وأصبحت بالقرب منه.. لكنّه لم يتحرك إنشًا واحدًا حتى. تنحنحت وأنا أطالع عتمة غطاء الرأس على وجهه.. وما هي إلا بضع ثوانٍ ولامست ذلك الغطاء، بدافع الفضول.. وبدافع آخر، أريده أن يمنعني، لأعرف بأنه هنا!

أصبحت واقفة على أطراف أصابع قدميّ لأناسب طوله الفارع، كما أصبحت كلتا يديّ على طرفيّ غطاء رأسه.. وهمست أمام وجهه بمراوغة:

- هل أكشف حقيقتك أيها الخفيّ؟!.

شعرت وكأنني أتحدث لردائه الفارغ ولأنفاسه الخفيفة التي تخرج ممتزجة بعطره الهادئ. ابتسمت بخبث وأرجعت غطاء رأسه للخلف قليلًا، فأفلتت مني ضحكة متحمّسة بينما ظهر لي لون عينيه، وبت متشوّقة أكثر لرؤية هذا الوجه المخبأ عن الأعين عمدًا! وبينما أركز أنا يديّ المرتعشتين للوصول لطرف القناع الأسود بحركة حذرة وبطيئة، تفاجأت بكلتا يديه يقبضان على معصم يديّ بحركة مباغتة منه! فتأوهت بخفوت وإجفال بينما هبطت من على أصابع قدميّ! اقترب بوجهه مني وأخذ يلهث بغضب فتقابلت عيناه الرماديّتان بشحوب بعينيّ الناضرتين مؤخّرًا، خرجت مني عبارة أسف واحدة -رغم أنني لا أعنيها- فخرجت كلماته مخترقة لخلايا جسدي بقسوة:

- لا شأن لكِ إلا بوجهك!.

تململت بين يديه فتركني بإهمال مفاجئ لأقع أنا على الأرض. دقّ قلبي بسرعة واعتدلت لأقف متغاضية عن ألم الصدمة ثم انطلقت صارخة به:

- أتعلم؟ أنت عديم الإحساس!.

جلس على المقعد المستند للحائط متجاهلًا ما قلته، فأضفت وكأنني لا أهتم :

- كنت أريد معرفة ما بك ليس أكثر...

ورغم أن ما قلته يسمى «اهتمام».. لكن لا بأس.. هو حارسي واعتدت كلماته الباردة، فلم الصمت؟

- ما يحدث لي الآن بسبب غلطة تافهة...

أزلت المنضدة بعيدًا بصعوبة، بينما سألته:

- وما هي؟.

أرجع رأسه لظهر المقعد والحائط الداكن وأطلق نبرة صوت هادئة، تلائم ارتعاش الشعلة بخفّة بسبب هبوب الرياح بالخارج:

- كوني لم أمنعك من الحصول على نظرة من قابض الأرواح، جعلهم يسلبوا قوّتي لساعات معدودة لهذا...

رفعت رأسي إليه بغرابة بينما أجلس على الفراش الذي لن يكون لي بعد اليوم وتساءلت بدهشة عظمى:

- تلك النظرة المريبة! والتي جعلتني أفقد وعيي؟!.

هزّ رأسه بصمت فقلت وأنا مشدوهة بما حدث:

- إذًا هذا بمثابة عقاب لك.. لكن.. ظافر.. هل كنت نائمًا؟ أثناء وقوفك بجانب القضبان الحديديّة؟.

- نعم.

قالها لأتساءل أنا:

- وهل ينام الحرّاس؟.

ربّع يديه وقال:

- فقط إن سلبوهم قوّتهم كـ.. عقاب!.

قال آخر كلمة بسخرية من الحال.. فزممت أنا شفتيّ المكتنزتين وقلت بشرود:

- لقد كانت تلك النظرة مخيفة فعلًا...

- لكنّها أتت بمفعولها المطلوب...

قالها ظافر بثقة، فسرت قشعريرة في جسدي ونظرت له مشيرة إلى وجهي باستفهام فهزّ رأسه! ماذا يقصد!

- أتعني.. وجهي.. وجسدي.. هذا التغيّر الشامل بسبب نظرة واحدة.. نظرة قابض الأرواح؟.

هزّ رأسه بفخر فأطلقت ضحكة غير واعية.. شاردة.. وتساءلت بشرود:

- لكن كيف.. وقابض الأرواح نذير شؤم؟.

وقف ظافر فاردًا قامته المهيبة وقال بثقة:

- نظرة قابض الأرواح تعكس طبيعة الفتاة؛ إن كانت حيّة تموت.. وإن كانت ميتة.....

تابعته يتحرّك في الغرفة بشرود بينما يكمل:

- جميلة كانت أو قبيحة.. يحيل حالتها للعكس تمامًا.. وهذا ما حدث معكِ.. ما أردت حدوثه بالضبط....

شهقت بصدمة وقلت بصدق:

- أسامحك.. لكن إن جعلته ينظر إليّ مرّة أخرى، ستكون العواقب وخيمة!.

ضحك بهدوء ثم قال بثقة مشيرًا إلى عقله:

- كل شيء حسب الخطّة، لذا لا تقلقي.

- أي خطّة؟.

قلتها حين عاد إلى المقعد، فأجابني بشرود متطلّع:

- خطّة الوصول للأمير؛ خطة الارتقاء بكِ من مجرّد عروس جميلة لأميرة، لها مكانة بقلب الأمير.. وأيضًا بالقلعة وبالعالم الآخر أجمع!.

رفعت حاجبيّ متعجبة.. وقلت بغير تصديق:

- إذًا هذا هو الهدف الذي سأحيا من أجله هنا؟.

نظر لي وقال بتهكّم:

- وهل هناك أسمى من ذلك بالنسبة لفتاة لا يميّزها شيء غير وجهها؟ والذي تغيّرت ملامحه من القبح للجمال دون ثمن؟.

- ثمن؟.

ردّدتها فتجاهل هو ما قلته وأكمل بغير تصديق:

- يجب أن تكوني ممتنّة لكون تلك الفرصة أتت إليكِ مع حارسٍ بارع مثلي.. فمعي ستكونين المرأة الأعلى شأنًا هنا!.

لم أجبه، بل غرقت في أفكاري وبدون إدراك مني اقترب ليقف أمامي، وهمس بتشجيع:

- هل تريدين هذا؟.

رفعت وجهي إليه وهمست ببقايا شرودي:

- هل سأبتعد عن التنظيف والطهي وأفعال الخادمات.. ويأتون لي بما أريد.. هل سأرتاح؟.

ولا أعلم كيف خرجت تلك الكلمات مني، ليس لأنني تذكرت أي شيء عن حياتي السابقة أو لأنني أريد السلطة.. بل لشيء أجهله!

أتى صوته بنفس الهمس المثير:

- أجل.. ستر تاحين للأبد.

أزلت الشرود عني بمسحة على وجهي، وهززت رأسي له وعيناي معلّقتان بظلمة وجهه، وقلت بوعي:

- إذًا أُريد هذا.. فهو يستحق!.

انحنى ليكون في مستوى رأسي، وسألني بهدوء:

- حتى ولو كان الثمن قلبك؟.

وضعت يدي على قلبي وقلت متفاجئة:

- هل سيأخذونه؟.

هزّ رأسه وقال بنبرة صوته العميق:

- سينبض بداخلك.. لكن لن يكون لكِ...

وأكمل بنفس النبرة:

- سيكون ملك الأمير.. وستكونين أنتِ مجرّد وصي لما يمتلك!.

ارتخت يدي على قلبي وهمست بضعف:

- أتقصد.. أن أحبه؟.

أومأ ظافر فقلت وأنا لا أعلم ما سيجلب هذا لي من عواقب:

- حسنًا! أوافق.. إن كان سيعطيني حياة مثالية...

واستطردت:

- وسأسمع لما تقول.. سأقبل مساعدتك دون عناد.

ربّت على رأسي بهدوء بينما استقام واقفًا وقال:

- اتفقنا.. والآن.. استلقي واحصلي على قليل من النوم فأمامك يوم طويل.

استلقيت وأخذت منه عباءته -التي ناولني إيّاها- لأتدثّر بها.. وهمس بغيظ:

- أغمضي جفونك وحدك.. حتى أستعيد أنا طاقتي.

هززت رأسي بطاعة وأغمضت جفوني ولكن قبل أن أستسلم للنوم سألته ببراءة:

- متى ستشرق الشمس؟.

سمعت صوته يجيبني بغير تصديق:

- الشمس؟ كيف تذكرين وجودها يا فتاة؟.

فتحت جفوني بغير وعي ونظرت له بتساؤل.. لأجده قد استدار إليّ بهدوء.. وقال بعمق:

- الشمس تعني الدفء والضوء، ولا يوجد في قاموس العالم الآخر كلمة شمس.. لا يوجد إلا ضوء القمر.. ودفء النار.. أتفهمين؟.

أسبلت أهدابي وفتحتها أكثر من مرّة بغير تصديق، لأسمعه يتنهد قائلًا:

- لا داعي لذكر تلك الكلمة مرّة أخرى.. فقط تأقلمي.

فتح ذراعيه وكأنه يشير على ما حوله قائلًا بنبرة غريبة:

- وإن كنتِ تكرهين الظلام روّضي قلبك ليحبه.. كما ستحبّين الأمير مرغمة!.

لم أفهم قصده في البداية لكني نويت أن أعتاد على الظلام، فرغم كوني لا أرتاح إلا لدفء الشمس المعتدلة تساءلت.. هل اختياري صائب؟ وتساءلت مرة أخرى.. هل هو اختيار من الأساس؟!

بعد وقتٍ أجهله قضيته نائمة، أراد جسدي الحركة في الفراش، فنويت على تنفيذ رغبته لكنني لاحظت شيئًا يعيق حركتي؛ شيء يجعلني أنام على جزء صغير فقط مما يجعل فرصة وقوعي على الأرض ممكنة. فتحت جفنيّ بانزعاج من هذا الأمر، لأجد جسدًا ساكنًا بالقرب مني ويكاد يكون ملتصقًا بيّ؛ هادئ وساكن.. وحين اتّضحت الرؤية..

- ظافر!.

صرخت بدهشة وتململت أنوي القيام! إلا أن حركتي المباغتة جعلتني أقترب من أن أهوي من فوق الفراش فأغمضت أنا عينيّ باستسلام للوقوع، لكن توقّف جسدي في نصف المسافة فقط!

ضيّقت المسافة بين حاجبي بينما أفتح عينيّ ببطء مترقّب، لأدرك أخيرًا أن ظافرًا قد مد ذراعه ليلتقطني قبل أن أقع أرضًا.. وتأكيدًا لاستنتاجي جذبني إليه لأرتطم بجذعه القوي.. ضامّة كلتا يديّ إلى صدري بذعر، بينما عيناي معلقتان بضباب عينيه!



{٧}

= مكاني الجديد =

قبل أن تنتظم دقّات قلبي اعتدلت في وضع الجلوس، وصحت به:

- كيف تجرؤ! كيف تنام على فراشي وتلتصق بي هكذا!.

وقبل أن أصل لآخر كلماتي كان هو قد رفع إبهامه إلى فمي ليطبع شيئًا وهميًا جعل شفتيّ تلتصقان بعضهما ببعض؛ غير قادرين على الكلام! لأجد ظافرًا يعتدل واقفًا يقول بزهو:

- عظيم.. عادت إليّ قوّتي!.

صرخت به فملأت صرخاتي الغرفة، ممتزجة بحروف كثيرة كلها من الـ «م» محاولة مني بالحديث لتوبيخه على فعلته، وبينما هو يضحك كنت أصيح أنا بين طيّات عقلي:

- أيها المتعجرف! كفّ عن هذا العبث فورًا!.

سمعنا صوت طرقات خفيفة على الباب، فاعتدلت في جلستي وأشرت على شفتيّ بعنف بينما أتطلع إلى ذلك الحارس -المتفاخر بقواه- بنظراتٍ ناريّة، فاقترب مني ممسكًا بذقني الناعمة مقارنةً بملمس أنامله القوية، ومسح على شفتيّ الكرزيتين بإبهامه، ليزول ما كان يمنعني من الحديث، وقلت بعد أن شهقت أنفاسي براحة:

- تفضلي بالدخول.

أبعدت نظراتي عنه وكأنني لا أراه، لأتصرف بطبيعية أمام جليندا التي عبرت الباب بمنتهى البساطة ودلفت لغرفتي المتواضعة. انحنت برأسها ثم استقامت ببطء فسمعت صوت طقطقة إحدى فقرات عمودها الفقري بينما تقول:

- مكانك جاهز آنستي.. اتبعيني من فضلك.

ابتسمت مجاملةً وهززت رأسي وخرجت معها، غير مبالية بملابسي البالية التي تكشف مفاتن جسدي الجديد. سرت خلفها بمنتهى الحماس لرؤية مكاني الجديد.. و.. لرؤية مكانتي الجديدة!

أخذتني جليندا للدرج الذي يوصلني للأسفل.. قالت أن عليّ الاستحمام وارتداء ما يليق بالطابق العلوي.. فسمعت ما قالت، وأخيرًا.. عرفت طريق تلك البركة العذبة التي قذفتني بها الماشطة.. لكن لم أقفز بها هذا المرّة، بل ذهبت لها مشيًا، وكأنني أزور البحر..

ردهة فخمة، تؤدي إلى درج مفروش ببساطٍ أحمر كما كل الأرضيات الفخمة حولي؛ هذا هو الطريق للطابق الثاني بدون أي شعوذة أو طرق مختصرة كما حدث أول مرّة. وصلنا بسلام لـ «طابق العرائس» وخطوت أولى خطواتي والعيون تترقبني متفحصة، لشكلي ولما أرتدي، عدا عينين أشاحتا بغرور بعيدًا عني؛ عينان زرقاوان كموج البحر الثائر في برودة الشتاء، وهما عينان جذبا ظافرًا كثيرًا لدرجة أنه تركني واقترب منهما ليراهما عن قرب!

- هذه هي العروس الجديدة.. إليونورا.. أرجوكنّ عاملنها كما تستحق، فيبدو أنها ستكون أميرة مثلكنّ آنساتي.

انحنت للفتيات، ثم لي وانصرفت بهدوء كما دخلت، وكأنها لم تعرف الصوت العالي ولا الصراخ قط. تنهّدت بقلق وبحثت عن ظافر بعينيّ لأجده يراقب تلك الشقراء من على بعد.. فتحدثت إليه بعقلي:

- ماذا أفعل الآن؟ أنا مرتبكة!

ابتسمت بارتباك وقلت لهنّ:

- أهلًا!.

وقبل أن أرفع يدي لألقي التحيّة، أشحن ببصرهن بعيدًا عني وانصرفت كل واحدة منهنّ إلى ما كانت تفعله قبل قدومي!

- تصرفي بطبيعية...

قالها ظافر بينما ينظر للشقراء التي جلست على واحدة من الوسائد الناعمة على الأرض، فهمست باستنكار:

- وأنت أيضًا!.

أخذت خطوة جريئة للداخل ورفعت عيني لكل شيء موجود حولي؛ فما أمامي هو طابق كامل؛ ربعه فقط مخصص لكونه مستراحًا، أما الباقي فهو مفروشٌ بأكمله ببساطٍ كبير شاسع الطول ذي لونٍ داكن، ليعكس لون البلاط الأبيض والرمادي غير المغطى بالبساط، وهي مساحات ضئيلة فقط.. المساحة واسعة بالمنتصف، بها منضدة أرضية مستديرة، أنيقة الشكل موضوعٌ حولها وسادات رمادية وحمراء ناعمة، بنقوش فضيّة، والتي تجلس الشقراء على واحدة منها ممسكة بمرآة يد مزخرفة بالنقوش فضيّة اللون، كلون أعمدة الفُرُش العديدة بعدد الفتيات هنا.

الفُرُش يبدو عليها الرقيّ، وسادتان بيضاويتان لكل فتاة كلون الشراشف، وغطاء رمادي بنفس النقوش الفضيّة.. ما بالهم مع الفضيّ؟! لكن كم هو أنيق!

رفعت رأسي لأجد السقف عاليًا، تتدلى منه ثريّا عظيمة، أجمل من تلك التي بالرواق الأول وثمّة رائحة مميّزة للمكان؛ عطر خفيف لكنّه أنثوي للغاية.. أعجبني، فهو يليق بكل الرقّة المنتشرة.. فهنا، لا مكان للقبح، فقط الجميلات.. وأصبحت أنا واحدة منهن اليوم!

تنحنحت حين أتى ظافر ليقف بجانبي، وقلت له همسًا:

- ما بالها تلك الشقراء؟ يبدو أنها مغرورة!.

وقبل أن تصلني إجابة منه، سمعت صوت فتاة رقيقة تضحك بخفوت، فاستدرت لأجد فتاة قصيرة القامة، لطيفة، تبدو كقطعة سكر ببياض وجهها ونعومة وجنتيها! أمسكت بشعرها البني فاتح اللون المجدول في ضفيرة سميكة -على كتفها- بيدها اليسرى ومدّت يدها اليمنى لي بالسلام، فالتقطتها أنا مبتسمة لابتسامتها وسمعت صوتها الطفولي الناعم يقول:

- أهلًا بكِ معنا.. أنتِ جميلة جدًا!.

اتّسعت ابتسامتي وخفق قلبي.. آه لو تعلم أنها لا تقل جمالًا عني!

- شكرًا لكِ.. وأنتِ أيضًا جميلة!.

قلتها بتلقائية، فتلك الفتاة عفوية لدرجة تجعل قلبي يستريح بمجرد النظر إليها. ربما ستصبح صديقتي بهذا العالم!

- لا تزعجي بالك بإزالين فهي هكذا دائمًا.. لا ترى غير جمالها.

قالت آخر جملة بهمس ثم ضحكت كالأطفال، فضحكت لعفويتها، لأجدها ممسكة بيدي فاستسلمت لها حتى وصلت بي أمام فراشٍ ما قائلة بطريقة أوبرالية:

- تفضّليييي!.

ضحكت أنا وصعدت الدرجتين من البلاط اللتين تجعلان الفراش أعلى من الأرض، وجلست على طرف سريري بحذر، لأجدها هي تزيل الستار الأبيض بين سريري والسرير المجاور لي جهة اليمين وتجلس هي الأخرى على الفراش.. وقالت:

- هذا مكاني.. أي أننا جارتان!.

ابتسمت ونظرت حولي، لألاحظ أن الفُرُش موضوعة في صفّين متقابلين، بينهما البساط والمنضدة الأرضية، وتوجد شرفة كبيرة؛ ستائرها الرمادية مفتوحة على مصراعيها، لتسمح للظلام الخارجي بأخذ دوره في إزعاجي..

- أتريدين إلقاء نظرة من الشرفة؟ أتريدين الوقوف بها؟.

قالتها فأزعجني تكرار جملتها بصوتها الطفولي، وخفتت ابتسامتي قليلًا لتكون مجاملة، فقلت بهدوء:

- ربما في وقتٍ لاحق...

هزّت رأسها بقوة وسعادة وأشارت لنفسها قائلة:

- أنا إيفي.

أعجبت باسمها وقبل أن أعرّف نفسي قالت هي:

- اسمك إليونورا؛ وهو معناه الضوء الجميل والدافئ!.

ابتسمت لغرابة المعنى، فنظرت لظافر لأجده قد أشاح ببصره بعيدًا عني، يتابع الفتيات.. فهمست أنا:

- كضوء الشمس.

نظرت لي الفتاة بغير فهم، فأسبلت أهدابي ولم أعد ما قلت ونظرت حولي؛ لأجد فتاتين تلعبان الشطرنج، وأخريات يلعبن الورق، واحدة تطالع مجلّة وأخريات يتهامسن أثناء جلوسهن على نفس الفراش، وجميعهنّ يرتدين فساتين أنيقة. وقفت أنا بغير وعي وذهبت للمرآة الكبيرة، التي تفصل الغرفة عن المستراح.. ودرت بفستاني الجديد حول نفسي، لم يتسنّ لي رؤيته بوضوح من جميع زواياه، ولم أشبع من رؤية جسدي الجديد والانبهار به! تذكّرت نظرة الخادمة التي أرسلتها الماشطة إليّ وصوتها المتلجلج:

- هل.. هل هذا الفستان لكِ آنستي؟ أاقصد.. ا-أقصد.. هو رفيع للغاية كيف هو لكِ!.

وتذكّرت صوت ظافر وهو يهمس لي:

- اكشفي سرّك لينتهي أمرك.. ستعودين قبيحة.

لامست طرف فستاني الوردي كلون العديد من الفساتين هنا، كان خيارًا جيّدًا بدلًا من الفستان الذي أحضروه لإيليونورا القديمة الدميمة! نظرت لخصره الضيّق والذي يزيّنه بعض النقوش حتى الصدر لأجد أنني فعلًا رشيقة.. وجسدي أنثوي للغاية. بينما أنظر بإعجاب بنفسي ظهر انعكاس ظافر بالمرآة من خلفي فنظرت لانعكاسه بغرابة وقلت:

- ظافر، بما أنك هنا.. هل هذا يعني أن باقي الحرّاس هنا أيضًا؟!.

لم يرد عليّ بالكلمات، لكنّه وقف خلفي وأدارني للفتيات، قام بوضع كلتا يديه أمام عيني على شكل دائرتين كالمنظار ليجعلني أرى من بينهما، فشهقت بتعجّب!

كم جعلني هذا المنظر مشدوهة! فيوجد العديد والعديد من الحرّاس هنا! يوجد من يقفون بجانب الشرفة للحديث، ومن يجلسون بجانب الفتيات اللاتي يلعبن الورق، وأيضًا بجانب من تلعب الشطرنج مع الأخرى! كم أصبح الطابق مزدحمًا الآن! أمسكت يديّ ظافر وتحركت بهما في الأرجاء، فبدوت أمام الفتيات كحمقاء تضع كلتا يديها بالقرب من وجهها لكن لا يهم، المهم أن أرى بوضوح! سرت معه ورأيت العديد والعديد من الحرس؛ أحدهم يخرج من المستراح ويتحدّث لآخر قائلًا بين ضحكاته غير المصدّقة:

- رؤية الفتيات في المستراح؟! كم هذا مقزّز يا رجل.. يكفي أن نرى وجوههنّ الجميلة!.

عبست بتقزّز ونظرت لهم، وأنزلت يديّ ظافر والتفت له بقسوة قائلة:

- هل يرونني؟ هل يراني؟.

أشرت لموضع وقوفه بعيني وهو عند باب المستراح فقال ظافر من بين أسنانه:

- تحدّثي بعقلك فقط يا حمقاء.. ها هو آتٍ...

زفرت بضيق وتحرّكت خطوة، لكن سرعان ما غيّرت رأيي فعدت مرّة أخرى لظافر وقلت بداخلي وأنا أنظر له بغيظ:

– حين أذهب لقضاء حاجتي لا تسمح لهذا الوغد أو أحد أصدقائه النظر إليّ!.

رأيت ظافرًا يرفع يده ويومئ لشخص أنا لا أراه ثم بعدها نظر إليّ قائلًا ببرود عابث:

– حسنًا.. سأشاهد الحدث وحدي!.

عبست في وجهه بحنق وانصرفت.. أحمق! ماذا يظّن نفسه ليمزح معي؟ أهو يسمعني؟ حسنًا! أنت وغد مثله يا ظافر جميعكم حرّاس قليلو الحياء!

أرجو أن تمرّ أيامي هنا بسلام فأنا أكره إحساس المراقبة هذا! ترى من ينظر إليّ منهم؟ سحقًا.. عليّ الاختباء حتى يمكنني التأقلم!

كنت على بعد خطوة من فراشي بمنتصف الغرفة، لكن جذب انتباهي صمت الفتيات فجأة حين قالت إحداهن:

– هل سمعتنّ؟ لقد أحضر قابضو الأرواح ثلاث فتيات بالأمس!.

أصبح صوت الهمسات أعلى من صوت شهقات البعض، وبينما أنا واقفة مرّت إحدى الفتيات من أمامي وهي تمسك بذراع إحدى الفتيات الأخريات لتمشي بجانبها متكئة عليها، فسمعت ما همست به بذعر:

– إنها ليست المرّة الأولى!.

وضعت الأخرى يدها على فمها بدهشة وقالت:

– أعلم عزيزتي.. لا تنسي أنني جئت قبلك!.

قبل أن تنصرفا همست كي لا تلتفت الأخريات لصوتي:

- ما الغريب في ما قالته؟!.

توقّفت الفتاة وجذبت صديقتها من ذراعها وقالت لي بشيء من التكبّر:

- ألم يخبركِ أحد؟.

هززت رأسي نفيًا وقلت بغرابة لغبائها:

- نعم ومن الواضح أنه لم يخبركم أحد أيضًا! فالخبر جاء للتوّ!.

ضحكت الأخرى على غباء صديقتها.. فتنهدت الصديقة قائلة:

- أتسخرين مني؟ إذًا لن نخبرك!.

ونظرت للفتاة التي تضحك وقالت مبتعدة بها:

- لا تضحكي أنتِ أيضًا! أنتِ صديقتي!.

ابتعد صوتهما فجاءت آخر كلمة مشوّهة في أذني بسبب تهامس البعض، وفي نفس الوقت أتى ظافر إليّ قائلًا:

- لا تشغلي بالك بتلك التفاهات...

نظرت له وقلت بعقلي:

- لكنني أريد أن أعرف!.

تنهّد ظافر قائلًا:

- تلك الحكايات يتركنها لقبل النوم.. ستعرفين كل شيء لكن لا تشغلي بالك بها كي تستطيعي الراحة ليلًا.

نظرت له بغير فهم وهززت رأسي ببلاهة.. ثم قلت متسائلة:

- كيف تعلم كل هذا؟ منذ متى أتيت؟.

اقترب من أذني وهمس ببروده المتناهي:

- لا شأن لكِ...

نظرت له بغيظ وكدت ألكمه على كتفه بسبب غيظي منه والذي فاق الحد هذه المرّة.. إلا أنني سمعت صوت سيدة ما -وهي الماشطة- تقول بعلو صوتها بطريقة هادئة:

- هدوء يا آنساتي من فضلكنّ.. أريد فتاة بعينها؛ طلبها الأمير للتوّ...

صمتت جميع الفتيات واصطففن أمام الفُرُش، حتى إن الشقراء إزالين قامت من مكانها ووقفت كباقي الفتيات.. لكن مبتسمة بغرور.. تقدمت الماشطة ومرّت بين الفتيات، تمشي بهدوء حافية القدمين حتى لا تدوس على البساط الراقي بحذائها البسيط، واضعة كلتا يديها خلف ظهرها بوقار، ابتسمت في وجه الفتيات.. حتى اقتربت مني.

تلاقت أعيننا للحظة، فتحوّلت ملامحها للجديّة وهدأت ابتسامتها، رفعت يدها إليّ ووضعت يدها على كتفي قائلة:

- أنتِ....



{٨}

= أول كتاب =

- أنتِ....

هوى قلبي بقدمي حين سمعت نبرتها الجادّة، سمعت عدّة شهقات والعديد من العبارات اللاذعة مثل:

- من هي ليختارها الأمير؟.

- ماذا رأى فيها؟.

وعبارة أخرى جذبتني، لأنني قلتها بداخلي أيضًا بتساؤل!

- كيف ومتى رآها الأمير أصلًا؟!.

تنهّدت بذعر وتساءلت بينما أنظر للماشطة:

- أنا؟.

مشيرة إلى نفسي مدّعية الغباء، فعبست الماشطة قائلة:

- وجهٌ جديد!.

أومأت قائلة بحذر:

- نعم انتقلت اليوم فقط.

أخذت يدي لتسحبني للأمام فتحرّكت معها خطوتين، ثم أوقفتني لتدور حولي، تتفحّصني بعينيها الخبيرتين، أعتقد أنها التصقت برأسي لتتفقد شعري، وأمسكت بأذني تعبث بهما. أدركت أنه فحص سريع للنظافة الشخصية. بعد أن انتهت قالت بروتينية:

- أحسنتِ؛ النظافة الشخصية هي أهم شيء.

ثم عادت ابتسامتها قائلة رافعة صوتها للجميع وقد انتهت مهمتها السريعة والمفاجئة معي..

- الأمير طلب فتاة رآها بحفل الزيارة.. بعينين خضراوين وشفتين رفيعتين، بطول معتدل ووزن مثالي...

تنهّدت براحة.. إذًا لم أكن أنا المطلوبة! شعرت بالاطمئنان لأن لا شيء يحدث أسرع من ما تخيّلت، ووجدت ظافرًا يسحبني من كتفيّ لأقف ضمن الصفّ، وقال هامسًا:

- تطلعي لتلك الفتاة، أمام الفراش الأخير بالقرب من الشرفة.. هي المختارة.

رفعت عينيّ لمكان تلك الفتاة، لأجد أن كل العيون عليها.. إذًا هذه هي! راقبتها تطرق رأسها خجلًا مبتسمةً بحياء، تسير بخطى بسيطة خلف الماشطة التي أمسكتها من يدها بأُلفة.. قائلة:

- هيا يا عروس الأمير الجميلة.. ليس أمامنا الكثير من الوقت! الزينة والفستان.. سأقربكِ من الكمال!.

زادت ابتسامة الفتاة حتى شملت جميع وجهها.. فلاحظت أنا عينيها؛ جميلتين حقًّا! أهدابها كثيفة ورقيقة، كرِقّة لون شعرها المائل للون البندق المعقود في كعكة كبيرة خلف رأسها. ابتسمت بتطلّع كباقي الفتيات، لكن سرعان ما خفتت ابتسامتي حين لاحظت وجود يدٍ مرتعشة، تعتصر منديلًا قماشيًّا بحركة عصبية متوتّرة. رفعت عيني لأجد أنها الشقراء المغرورة؛ إزالين.

لاحظت جحوظ عينيها بلمعة أخرى غير اللمعة بعيون جميع الفتيات، ليست تلك هي اللمعة الحالمة المتأملة؛ بل هي أكثر غموضًا، لكن ما استشففته، أنها مليئة بالغلّ.. والحسد!

- حسنًا آنساتي.. أشكركن لوقتكنّ...

قالتها جليندا بوقار ثم أضافت:

- يتم وضع اللمسات الأخيرة على طعام الغداء...

عادت كل فتاة لما كانت تفعل وسمعت همسة:

- الأمير يريدها قبل الغداء؟ غير معقول!.

وضحكة خبيثة بعدها، لأبتسم أنا قائلة بحيرة:

- يجب أن أعرف أكثر عن هذا الأمير.



حضرت الخادمات بزيّهن الأبيض والأسود ليكوّنّ جيشًا من حاملات الوجبات الشهية للعرائس. وضعت كل خادمة صينيّة من الطعام على سرير كل فتاة منّا وانصرفت بأدب بعد أن تمنت للعروس وجبة هنيئة. بدأ الجميع بتناول الطعام بحماس، مع ضحكات أفلتت من الكثيرات بينما يتحدّثن عن أشياء عشوائية. أما أنا، فبدأت بشرب الماء، وقبل أن أمسك بأدوات الطعام سمعت من تتنحنح، كانت إيفي، تتطلع إليّ بنظرة بريئة كعيون القطط الصغيرة قائلة:

- هل يمكننا تناول الطعام معًا؟.

لم أجد هناك ما يستدعي الرفض، بل رأيتها فرصة مثالية لتمضية الوقت مع أي شخص يجيد الكلام، لأنني اكتفيت من صمت ظافر أغلب الوقت! أفسحت لها

مكانًا بجانبي على الفراش وأخذت صينيّة طعامي على فخذيّ فجلست هي وفعلت المثل، وقضمت قضمة من الدجاج ثم قالت بهمسٍ خجول:

- أشعر بأنني أريد الحديث مع أي شخص.. وأنتِ جديدة هنا!.

ابتلعت ما بفمها ثم ملأته بملعقة من الأرز قائلة دون إزالة نظرها عن ما تأكل:

- أحب التحدّث للفتيات الجدد....

- ولماذا الجديدات على وجه التحديد؟.

قلتها ثم شرعت بتناول الطعام، فأجابتني بعفوية:

- لأنهن ببساطة لا يعرفنني؛ فلن يسخرن مني أو يحتقرنني...

عبست وبطأت حركة فكّيّ في مضغ الطعام، واستشعرت بمرارة ما تقول، حتى ابتلعت طعامي ببطء وتساءلت بخفوت:

- هل يسخرن منكِ هنا؟.

هزّت رأسها ونظرت إليّ متحدّثة بفمها الممتلئ:

- لأنني قصيرة.. وصغيرة.. لست مثلهنّ أبدًا...

ابتلعت ما مضغته واستطردت:

- ويقلن أنني أتيت هنا بمحض الصدفة لا أكثر!.

هززت رأسي متفهمة.. وقلت بابتسامة:

- أرى أن هذا يميّزك.. فأنتِ رقيقة كالدمى!.

استخدمت الفتاة منديلًا قماشيًا أبيض بجانب طبق الحلوى لتمسح زاوية فمها الملطّخة بالطعام، ضاحكةً، فضحكت أنا معها.. وسرعان ما سألت بفضول:

- هل تلك الفتاة التي ذهبت للأمير.. ستكون عروسًا حقيقيّة؟ أم لليلة واحدة؟.

نظرت الفتاة حولها بعد أن احمرّ وجهها بدرجة كبيرة، فقلت أنا بغرابة:

- ماذا!.

لا أصدق أنها لا تعرف هذه الأمور! يبدو أنها صغيرة السنّ. أشفقت عليها وتابعت حديثي:

- حسنًا لا عليكِ.. أنا فقط أريد أن أفهم، لا أحب أن أجلس كالبلهاء والجميع حولي يدركون طبيعة كل شيء!.

تنهّدت بضيق وتذوقت القليل من الحلوى الكريميّة مع قطع الفاكهة، لأجد الفتاة تهمس لي:

- لليلة واحدة...

نظرت لها مضيّقة عينيّ، فتابعت:

- لا يحدث أن يطلب الفتاة أكثر من مرّة.. لكن إن أعجبته عروسٌ؛ استولى عليها.. يجعلها تسكن معه بالطابق الملكي...

ابتلعت طعامي بصعوبة وبحثت بعيني عن ظافر، لم أجده، فابتسمت لها بحرج قائلة:

- وماذا أيضًا؟.

ابتلعت الفتاة المزيد من الطعام بنهم، ثم مسحت فمها بتلقائية وقالت:

- اختفت العديد من الفتيات بيننا.. أراهن أن الطابق العلوي مليء بهنّ!.

هززت رأسي بفهم، وللحظة تخيّلت الطابق العلوي؛ الأمير يجلس على فراشه ويحتضن العديد من الفتيات.. وعلى موسيقى حالمة ترقص له أخريات وتطعمه أخريات!

نفّضت تلك الصورة عن ذهني وتساءلت:

- هل رأيت الأمير من قبل؟ أقصد.. كيف يبدو؟ كم عمره وماذا يحب؟.

وبمجرّد قولي هذا انتبهت أن الفتاة قد انتهت من تناول كل شيء أمامها، من خضروات وحساء، أرز ودجاج.. فتنحنحت بحرج قائلة:

- هل شبعت؟ يمكنك تناول المزيد من طعامي إن أردت؟.

لمعت عينا الفتاة وقالت:

- وهل شبعتِ أنتِ؟.

هززت رأسي وابتسمت لها مشجّعة فوضعت أطباقي المليئة بالطعام فوق تلك الأطباق الفارغة التي استقرت محتوياتها بمعدتها الصغيرة وقالت هي بغير تصديق:

- أنتِ طيّبة جدًا! لا يسمحون لنا بملء الأطباق.. فمن تسمن تذهب لقضاء فترة في تنظيف الزنازين.. أو يلقون بها خارجًا للسير لمسافات كبيرة جدًا...

استمعت لها بحنان مبتسمة، واستطردت هي:

- أنا معدتي تحتاج للكثير من الطعام ورغم ذلك لا يزيد وزني، هذه طبيعة جسدي! لكن لم يصدقني أحد مهما شكوت...

ابتسمت لي وتابعت بفمٍ ممتلئ:

- أشكرك إليونورا...

تركت ملعقة الطعام للحظة، وتوجّهت لوسادتها، جذبت شيئًا ما ثم أعطتني إياه قائلة بحذر:

- هذا الكتاب.. مهم جدًا، به معلومات عن تاريخ القصر وتصميمه وموضع السلطة.. من وزراء ومشرفات.. حتى إنه يوجد كثير من المعلومات عن الملك الأعظم.. والأمير.. كل شيء ستجدينه هنا!.

شهقت وفتحت فمي.. تحسّست الكتاب بيدي قائلة بذهول:

- هل مسموح هنا بقراءة الكتب؟ كم هذا عظيم!.

لاحظت صمت الجميع ثم إطلاقهنّ ضحكات ساخرة؛ فأدركت أن نبرة صوتي قد ارتفعت بقول الجملة المتعجبة. أخفضت رأسي ودفنتها بين الكتاب أشتم رائحة صفحاته الصفراء العتيقة وقلت بحماس:

- سأقرأ كل ما به! كل سطر... كل كلمة.. هل به بعض الصور التوضيحيّة؟.

ضحكت الفتاة وقالت:

- مهلًا لا تتحمسي! اقرأي قدر ما تفهمين، فيوجد بعض الكلمات بلغات غير معروفة بالنسبة لي...

ابتسمت وقالت بحماس:

- يبدو أنكِ تحبين القراءة مثلي!.

خفق قلبي بسرعة وقلت مبتسمة:

- لا يمكنني تأكيد ما قلتِ، لكن القراءة ستشبع فضولي.. وهذا كل ما أريد للآن!.

ابتسمت الفتاة وتابعت طعامها، تناولت حلواها.. وحلواي.. بينما أنا أتحسس ذلك الكتاب وأفكر في الوقت المناسب لقراءته..



هدأت وسكنت أصوات الفتيات بالطابق.. أصبحن خفيضات الصوت للغاية.. قالت لي إيفي أن بعد الطعام يصرن خاملات.. قالتها قبل أن تستسلم للنوم على طرف فراشي فانتهزت أنا الفرصة لأفتح الكتاب. اتّسعت عيناي واعتدلت

في جلستي، ثنيت ركبتيّ للأعلى وجعلت الكتاب على فخذيّ، وقبل أن أفتح أولى صفحاته سمعت صوت ظافر يقول بغرابة:

- من أين جئتِ به؟.

نظرت له وهمست:

- أين كنت؟ أخبرتني إيفي ببعض المعلومات...

نظر للفتاة وأصدر صوتًا متسليًّا من بين أسنانه، وجلس على طرف سريرها المجاور لي قائلًا بفضول:

- يبدو أنكِ بدأتِ بتكوين الصداقات بالفعل!.

زفرت بغير صبرٍ وقلت:

- نعم نعم...

واستطردت بسرعة:

- هي من أعطتني هذا الكتاب.. سأقرأه وأرى إن كنت سأفهم تلك اللغة التي أخبرتني عنها.

فتحت أولى الصفحات وقد نفد صبري، وقبل أن ترى عيناي أي شيء سحب ظافر الكتاب وقال ببرود:

- الوقت ثمين هنا.. دعيني أختبر مهاراتك اللغوية أولًا...

رفعت له الكتاب لكنّه لم يأخذه مني، بل أخذ حريّته برفع ساقه على فراش تلك الصغيرة والجلوس موليًا ظهره لي. صمت للحظات وصوت حفيف أوراق الكتاب يشعل بقلبي الحماس أكثر.. وحين التفت إليّ رأيته يشير إلى إحدى الكلمات، قائلًا:

- اقرأيها.

نظرت أنا للكلمة بغير فهم لأجده يطوي الصفحة، ثم ينتقل إلى صفحة أخرى ظننتها عشوائيّة، لكنني انتبهت لكونه يعرف ما يبحث عنه بالضبط. من الواضح أنه يحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب.. أشار لكلمة أخرى وقال:

- هل هي مألوفة؟.

وضعت يدي على عقلي الذي بدأ بالطنين، وهمست بخيبة أمل:

- لا! لا أفهم أي شيء!.

أزلت يده عن باقي الصفحة وقلت بضيق:

- ما هي تلك اللغة أصلًا!.

سحب ظافر الكتاب من يدي بخفة وأغلقه، وضعه بجانبه وقال بغير تصديق:

- كانت تلك الكلمة الثانية من لغة مشهورة.. يعرفها أي طفل بمجرد حصولة على القليل من الأيام بالتعليم الأساسي!.

نظرت له وهمست بغير تصديق:

- أتقصد.. أنني لم أتلق أي تعليم بحياتي؟.

- سنرى...

قالها ودسّ يده في وسادة الفتاة.. لتغوص بأكملها دون أي أثر لقطعٍ أو شيءٍ من هذا القبيل.. وفجأة أخرجها وبيده ريشة بيضاء معتدلة الحجم، ووسط نظراتي الحائرة وجدته يخرج خنجرًا من جراب حزام الوسط خاصّته.. فوضعت يدي على فمي بصدمة أكتم شهقتي من ريبة ما يفعل! بالطبع يعرف خطوته التالية، لكن لن يكون جيّدًا إن لمحت إحدى الفتيات ما يحدث أمامي؛ ريشة.. وخنجر يطفوان في الهواء! ألا يكفي الكتاب؟

نهضت من مكاني منتفضة لأغلق الستائر البيضاء حول فراشي وفراش إيفي، لأكون غرفة بيضاء شفّافة يسكنها ثلاثتنا، ثم عدت لمكاني لأجد ظافرًا قد جرح إصبعه بسنّ خنجره الحادّ وغمس الجزء المدبب من الريشة في خط دمائه ليبتلّ باللون الأحمر الداكن. فتح صفحة بالكتاب وأعطاها لي، كما ناولني الريشة وقال:

- اكتبي أي شيء...

أسندت الكتاب إليّ وبيدٍ مرتعشة أمسكت الريشة، وقبل أخذ قرار بكتابة أي شيء وجدت ظافرًا يحيط يدي بكلتا يديه ليعدّل وضع ريشتي بينما ينظر إليّ، منتظرًا ما سأكتبه.. وأتت ببالي كلمة ما!

بدأت أخطّ الورقة بريشتي، وعندما انتهيت نظرت لعيني ظافر الظاهرتين أمام عينيّ وقلت بترقّب:

- رسمتها من مخيّلتي...

أخذ مني الكتاب وأمعن النظر به.. ثم رفع عينيه إليّ قائلًا:

- هل قصدتِ كتابة.. اسمي؟.



{٩}

=وقت النـوم وما قبله ج١=

أخذ مني الكتاب وأمعن النظر به.. ثم رفع عينيه إليّ قائلًا:

- هل قصدتِ كتابة.. اسمي؟.

أرخيت ملامح وجهي العابس لأبتسم بترقّب قائلة:

- وهل هو صحيح؟ أعني.. هل هو ما كتبته فعلًا أم أنك قرأت ما بعقلي؟.

أومأ ظافر قائلًا:

- بل هو صحيح!.

صمت ليبحث عن صفحة معينة في الكتاب.. وعندما وجدها أدار الكتاب لي وقال بهدوء:

- يمكنك قراءة هذه.

لم أدعه يكمل جملته مفهومة المعنى، بل على الفور أخذت منه الكتاب على عجلة من أمري، لأجد عقلي لا يقل صبرًا عن حركتي. أخذت عيني تستجيب لما يمليه عليها عقلي من أوامر لأجد نفسي أقرأ بصمت:

- الفصل الرابع: العمال والخدم، العاملات والخادمات.

وقبل أن أتابع القراءة استوقفني ظافر بحركة من إصبعه، ففكّرت أنا:

- هل كان صحيحًا؟.

ومرّة أخرى هزّ رأسه فلمعت عيناي بحماس وقلت:

- كَوني لا أجهل القراءة والكتابة شيء أراحني كثيرًا! لم لم يختبروا تلك النقطة قبل دخولي لطابق العرائس؟ ألهذه الدرجة يؤمنون بالمظاهر فقط؟.

وضع ظافر يده على الكتاب، أغلق الصفحة ووضعه تحت وسادتي -كما كان- ثم قال بهدوء:

- العروس كي تكون أميرة؛ يجب عليها أن تتقن كل ما يحب الأمير.. كالغناء والرقص، ويمكنها تعلم الحياكة لتمضية وقتها بعيدًا عنه إن كثرت مسؤولياته وأعماله...

ضممت شفتيّ بأسف وفكّرت:

- اعتقدت أن الكتب مفيدة لي كي أبهره بثقافتي.. يبدو أنني سأتلقى تلك المعلومات لأعوِّض قلّة معلوماتي لا أكثر!.

- يبدو هذا مناسبًا.

ابتسمت وأنا أحاول النظر لعينيه وقلت:

- وأنت ستساعدني على انتقاء اللغة المناسبة أليس كذلك؟ فالحروف متشابهة، لذا سيصعب عليّ تحديد ما سأقرأه بالضبط...

ولم ألقى منه أي رد، فنظرت لما ينظر إليه لأجد الشقراء الجميلة «إزالين» تتمايل أمام المرآة؛ ممسكة بردائها الواسع والذي بالطبع يخفي جسدًا ممشوقًا بمثالية، وعاودت النظر لظافر لأكتشف أنه شارد كل الشرود بتلك المغرورة فتنهّدت قائلة:

- ما بالكم مع الشقراوات؟ جميع الفتيات هنا جميلات لكن لِمَ تجدون الشعر الأشقر والبشرة البيضاء أروع آيات الجمال؟.

تنحنح ظافر بهدوء ونهض من فراش إيفي قائلًا بشرودٍ نابع من أعماقه:

- ارتاحي قليلًا قبل أن تأتي معلمة الحياكة...

نظرت له بحيرة لأجده يقترب ببطء للمرآة الفاصلة بين جزءي الطابق غير المتساويين، حتى توقف مستندًا على الجدار من خلفه بظهره القوي، عاقدًا ذراعيه أمام صدره باهتمام، فلاحظت أن تلك المغرورة يخرج من بين شفتيها ألحان وكلمات هادئة لا أنكر أنها جعلت بدني يرتعش تأملًا.. أصغي لكلماتها مغمضة العينين.. فتبيّنت كلماتها الغريبة بوضوح..

~~~~~

«استثنيني.. من قواعد العالم..

استثنيني من مظاهر الكون..

أنا لست مثلك، ولا مثلهم سأكون..

أنا شخصٌ غريب.. شخصٌ وحيد..

لنداء الحب.. لا أستجيب.

أنا شخصٌ فريد.. فلا تنتظر مني في يوم.. أن أستجيب.

لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلّا لنفسي..

لن يأسرني الحب يومًا.. لن أكون إلا لنفسي..

فاستثنيني من ماضٍ كنت فيه أنا ضعيف..

واستثنيني من مستقبل أنا من أحداثه بريء..

استثنيني.. استثنيني.. دومًا وأبدًا استثنيني..»

~~~~~~

وبعد آخر كلمة شعرت بكلماتها تعاد وتعاد بصوتٍ أكثر همسًا، وكنت أنا قد استسلمت لنومٍ عميق، غير عابئة بما يفكر فيه ظافر في تلك اللحظة..

فتحت عينيّ على صوت إيفي :

- استيقظي رجاءً.. لِمَ كل هذا النوم!.

نهضت وفركت عينيّ لأقابل بعدها ابتسامة بريئة وصوتًا عذبًا:

- سنأخذ حصّة الحياكة والتطريز اليوم، ولمناسبة غامضة سمعت أن أفضل عروس استيعابًا للدرس وإنتاجًا ستحصل على قماش خاص بها لتصنع ما تريد!.

همست أنا بصوتي الناعس:

- ولِمَ لا تطلب من الخدم أن يحِكن لها ما تريد؟ أليست هذه مكافأة أفضل؟.

اتّسعت ابتسامتها والتمعت عيناها بحماسة ظهرت في صوتها:

- أن ترتدي العروس ما صنعت بنفسها هو تمييز، وشيء يدعو للفخر.. خصوصًا وإن كانت أنيقة.

واستطردت همسًا:

- يقولون أن ذوقك بالعالم الآخر يكشف عن ذوقك السابق في الحياة!.

وكانت آخر كلمة بهمسٍ مبالغ فيه، أصاب فحيحه أذني بالقشعريرة. نهضت من فراشي وقلت بينما أنظر حولي:

- سأذهب للمستراح أولًا.

فردت قامتي الرشيقة لأكتشف أن الخف ما زال بقدمي، اتّجهت لخارج صفّ الفُرُش بينما أطالع الفتيات الجالسات حول المعلمة بأدب، وفي نفس الوقت أبحث عن ظافر..

وجدته يقف وحده، فاقتربت منه بحذر، لا أعلم إن كان الحرس هنا أم لا، نظرت له وقلت بعقلي:

- اجعلني أرى الحرّاس، لا أشعر بالطمأنينة بوجودهم الخفي من حولي!.

كاد ظافر أن يضع يديه حول عيني كالمنظار، لكنني استوقفته قائلة:

- لا لا.. أريد رؤيتهم بنفسي.. وحدي...

ساد الصمت لثانيتين، فقلت بعقلي همسًا، ولا أدري لماذا همست أصلًا:

- أريد دخول المستراح... وأخشى أن يتجسّس عليّ أحدهم!.

تنهّد وقرّبني منه لأكون أمامه بالضبط، أمسك برأسي بين يديه، ونظر لعينيّ بينما يغلقهما بإبهاميه.. وحين فتحتهما أسبلت أهدابي أكثر من مرّة بريبة، وهمست بعقلي:

- أعتقد أنني أسمع صوتهم أيضًا...

التفت بحذر وفكّرت بريبة:

- كم هم كُثُر!.



وبينما أنا ألبي نداء الطبيعة الذي لا تتغيّر طبيعته لأي إنسان.. خادمة أو عروس لا فارق.. الكل يفعل ذلك بلا شك.. سمعت صوت ضحكات رجوليّة، ثم صوتًا هامسًا بريبة:

- رأيت ذلك بأم عيني! مما جعلني أتأكد من فكرة أن جميعهن عذراوات...

وضعت يدي على فمي بدهشة من معنى كلامه وأنا أتخيل الموقف وراء ذلك الاكتشاف الذي جعله يبدو واثقًا.. وأنصت بتركيز.

- يسمونهن عرائس.. فكروا في الأمر!.

- أجل!.

كان هذا صوتًا آخر.. ثم تحدّث صاحب الصوت الأول:

- أعرف فتاتي جيّدًا.. وأراهن.. على أنها ستحكي عن ما حدث لزميلاتها، ستحكي كل شيء لدهشتها؛ لأنها تعلم أنها كانت عاهرة في حياتها الأولى!.

ارتفع صوت الضحك والقهقهة بعد شهقات الإعجاب المقزّزة، ليقول شخص منهم:

- أقبل رهانك، فإذا حدث ما قلت سأجعلك تحظى بفتاتي للحظة؛ لتقتنص قبلة أو شيئًا من هذا القبيل!.

- موافق!.

انتهيت من لملمة ثيابي بحذر، أخشى أن يجذب صوت حفيف ملابسي آذانهم، نظرت لضوء الشعلة المرتعش خارج خلوتي المغلقة وناديت بعقلي:

- ظافر.. أريد الخروج من هنا وهناك بعض الهمج بالخارج!.

لحظة مرّت وأنا أتجاهل صوت ضحكاتهم بالخارج لأستطيع التركيز مع صوت ظافر، وفجأة سمعت أحدهم يتنحنح وقال بخفوت:

- هيّا لنكمل حديثنا في مكانٍ آخر.. فالهواء هنا قد نفد!.

ضحك الآخرون لكن بتردد.. وفجأة وجدت الستار يُفتح بحركة واحدة! لأطلق أنا صرخة خافتة، أشبه بشهقة مذعورة، لكنني وجدت ظافرًا أمامي، مغطى الملامح كالعادة. هدّأت من روعي وهمست ببقايا أعصابي:

- كيف تعيش الفتيات هنا وسط هؤلاء الأوغاد؟ سمعتهم يتحدثون عن أشياء خادشة للحياء حقًّا!.

قال ظافر بهدوء بينما عبرت من جانبه لخارج الخلوة:

- لأنهم خارج نطاق التدريب يتحدّثون بحريّة.. لكن لا تنبهري وتنظري لأعينهم.. جديًّا أعني ما أقول.. لا تدعي هذا يحدث مهما كلّفك الأمر.. ستصبحين وقتها صيدًا ثمينًا لهم...

صببت الماء على يدي وأنا أفكّر:

- إذًا تلك الفتاة التي تحدثوا عنها.. تم اصطيادها بالفعل!.

صمت عن التفكير بخجل ليدرك ظافر الموقف، وقال بلا مبالاة:

- إذًا علينا -قريبًا جدًا- توديع عروس وحارس.. لن تمر فعلتهما تلك على خير.

زفر بضيق ثم قال بشرود:

- العرائس ملك للأمير فقط.. ومع ذلك ينسى الأحمق منهم مكانته!.

جفّفت يديّ ووجهي في المنشفة الصغيرة الناعمة ثم رميتها في سلّة الغسيل -لتستقر فيه مع باقي المناشف المستعملة- وقلت وأنا أنظر إليه نظرة ذات مغزى:

- يستثنون أنفسهم من القواعد.. مع أنهم سواسية!.

وفكّرت في مراقبته لإزالين لأدعه يقرأ أفكاري وألقيت عليه نظرة أخيرة وخرجت، مغطيّة جانبي وجهي بخصلات شعري الأسود الفاحم كي لا يلاحظني أحد المنحرفين منهم. دخلت بهدوء وسط تجمّع الفتيات وجلست القرفصاء بجانب إيفي التي كانت مدخرة لي مكانًا، وفي نفس اللحظة وجدت قطعة من القماش -أحاديّة اللون- تُلقى على فخذيّ، كذلك خيط وعلبة من الإبر! رفعت بصري للجميع فلاحظت أن المعلمة العجوز هي من وضعتها، هي سيّدة مسنة طيّبة الملامح.. نظرت لي وقالت بصوتها الهادئ البطيء:

- أريني ماذا يمكنك إنتاجه؛ إنه اختبار بسيط...

وختمت عبارتها بابتسامة ودودة، فأومأت ورددت على ابتسامتها مبتسمة بأدب، ونظرت لقطعة القماش الأبيض في يدي بحيرة.. ترى ماذا أفعل بها؟

نظرت للعرائس من حولي، لأجد أن كل واحدة منهن تقوم بشيء مختلف عن الأخرى، مما يكشف تفاوت مستوياتهنّ.. ابتسمت لي إيفي بتشجيع لتأتيني فكرة.. أستطيع تنفيذها بتلك القماشة الصغيرة، ودون تفكير، أخذت المقص المعدني الكبير من أمام المعلمة لتنظر لي بترقّب تجاهلته أنا لأستطيع التركيز في إنتاج ذلك الشيء؛ الذي سيقول الجميع عنه أنه تحفة فنيّة! فقط إن أسعفتني ذاكرتي بالخطوات السليمة!

بعد لحظات مرّت عليّ سريعًا رفعت -بأطراف أناملي- ما أنتجت في الدقائق السابقة؛ وهو فستان صغير بحجم راحة اليد، بنقشٍ صغير، فبالخيوط الزرقاء والصفراء المائلة للون البرتقالي؛ كانت شمسًا دافئة، حولها زرقة السماء الصافية وقت الغروب.. ذلك المشهد الذي يجعلني أتأكد من أنني كنت أحيا بدفء ذات يوم...

قبل أن أستيقظ تمامًا من بحر الذكريات المطموسة، أخذت إيفي الفستان من يدي قائلة بإعجاب:

- يبدو فستانًا لدمية جميلة!.

- أو لفأرة نتنة!.

قالتها إحدى الفتيات لتضحك الفتيات، وتثير حنقي. أنا لا أحب أن يسخر أحد من ما أصنع!

التقطت عيناي العسليّتان الفتيات الضاحكات يضربن كفوف بعضهن ببعض، مستمتعات بالمزحة غير المقبولة بالنسبة لي، نظرت للمعلمة كرد فعل طبيعي،

أريدها أن تعاقب تلك الفتاة! لكني وجدتها مستمتعة بحياكة ما بيدها بشرود! فأيقنت أنها كعجوز سمعها لم يسعفها لسماع ما قد قيل للتوّ. تنهّدت ورسمت ابتسامة متسليّة على شفتيّ، لأبدأ اللعب بالكلمات، والذي أعتقد أنني أجيده قليلًا!

رفعت عيني لصاحبة المزحة غير الطريفة وقلت بهدوء:

- وماذا فعلتِ أنتِ؟ هل لي بإلقاء نظرة؟.

انتقلت عدوى ابتسامتي المتسليّة للأخريات، أعجبتهن اللعبة، فتطوّعت واحدة بخطف قطعة القماش من صاحبة المزحة وألقتها لي، هززت أنا رأسي لها بهدوء ليصلها امتناني، ثم أعدت رسم تلك الابتسامة المتسليّة على زاوية شفتيّ ورفعت القماشة أمام صدري بكلتا يديّ.. أريها للجميع، وقلت ببرود:

- أترين أي ملامح؟ أي شيء؟ ما هي تلك القطعة يا ترى؟.

وزدت:

- أهو منديل؟ أم قماشة رثّة لمسح أرض الزنازين؟.

انفجرت الفتيات بالضحك وكأني للتوّ قد رميتهن بقنبلة من الغاز المهلوس، ورغم عدم اقتناعي كليًّا بما قلت، وعلمي أنها ليست بالمزحة الجيدة، ابتسمت لرؤية تلك الفتاة غارقة خجلًا بين ضحكات العرائس، وفجأة قالت فتاة من على الجانب الآخر:

- ليست أجمل من ما قامت بصنعه إيفي الصغيرة.. لقد صنعت منديلًا آخر، لكن هذا النوع الرديء يمكننا استخدامه مباشرة بعد الخروج من المستراح!.

ارتفع صوت قهقهات أخرى متسليّة، فانتبهت المعلمة أخيرًا وقالت بعبوس مندهش:

- ماذا هناك؟ لماذا تضحكن؟.

وقبل أن تزيد، وقبل أن أوقف تلك المعتوهة عند حدّها وأجعلها تعتذر لصديقتي الجديدة، تلاقت عيني بعين معلمة الحياكة، فأرخت تعبيرات وجهها وأخذت ما أمسكته بيدي؛ الفستان الصغير. رفعته لعينيها ورفعت العدسة المستديرة -أمام عينيها- وشهقت بذهول:

- موهوبة يا عزيزتي! موهوبة!.

تحسّست بأناملها تلك الشمس الصغيرة الملوّنة بدقة بألوان الخيط، لتنظر لي بعض الفتيات بغيرة وسمعت إيفي تهمس لي:

- كنت أعتقد أنكِ صديقتي! أي لن تسخرين مني!.

قالتها ونهضت بضيق، وقبل أن أنهض للحاق بها استوقفتني المعلمة بإمساكها يدي بيدها المليئة بالتجاعيد، ووضعت فيها كمّية أخرى من الخامات قائلة:

- أحسنتِ صنعًا.. اصنعي لنفسك فستانًا! وأريني إياه ريثما تنتهين!.

نظرت بطرف عيني للفتاة الجاثية على الفراش الذي بالطبع قد بدأ بالتبلل من دموعها الغزيرة الساذجة، وعلى عجلة من أمري لملمت الخامات والفستان الصغير الذي قمت بصنعه وابتسمت للمعلمة أشكرها، وغادرت الدرس مستأذنة. أسرعت بوضع كل ما أحمل على فراشي وجلست على طرف فراش إيفي وهمست:

- إيفي لم تكوني أنتِ المقصودة قط!.

سمعت صوت شهقاتها بالبكاء، فوضعت يدي على ظهرها أمسح عليه بحنان وهمست كي لا تسمعنا باقي الفتيات:

- كنت فقط أرد اعتباري.. وتحوّل الأمر إليك دون قصد!.

- أنتِ حتى لم تدافعي عني! اتركيني وشأني!.

قالتها لي وقبل أن أرد ظهر لي ظافر من العدم وقال بهدوء:

- تبدين متعددة المواهب.. كما أنني أرى فيكِ بذرة لأمٍ حنون.

وقالها مشيرًا لما تفعله يدي بلطف لشعر إيفي الناعم فأشحت وجهي عنه بغير اهتمام، لأجده قال ببراءة:

- ربما كما قلت سابقًا.. كنتِ ربّة منزل حيّة الضمير وأمًا أيضًا في حياتك السابقة!.

تذكّرت قدرتي على تقطيع البصل والتنظيف وتنهّدت.. أفكر في ما قال للتوّ، ودون وعي ابتسمت بحنين لشيء ربما يكون صحيحًا.. لكن سرعان من نفضت ذلك التفكير عني وهمست في أذن إيفي القريبة مني:

- آسفة.. أنتِ أول من استقبلني بهذا الطابق وأول صديقة لي، لن أكون لئيمة معكِ أبدًا!.

مسكينة إيفي.. أشعر بالتعاطف تجاهها..

- دعي قلب الأم جانبًا وقومي بعمل أي شيء مفيد، كاستكمال ما بدأتِه في الحياكة مثلًا؟.

تنهّدت بهدوء لتلمع الفكرة بعقلي، فكرة تجعلني أستعمل خاماتي الخاصة التي حصلت عليها للتوّ وكسب صداقة إيفي من جديد!

استغرقت دقائق فقط لأجمع أفكاري وأرتب الخامات أمامي ثم بدأت بالتنفيذ. بين الوقت والآخر كنت ألاحظ ظافرًا يرفع عينيه من بين كتاب إيفي ليراقب ما أفعل، وفي مرّة استفزّني بقوله:

- إيفي ضعيفة؛ قليلة الموهبة، مزاحية وعاطفية.. فلا تكترثي بكسب ودّها بتلك الدمية الصلعاء!.

نظرت للدمية التي أوشكت على الانتهاء منها، بتثبيت زرّين باللون البني كعينيها ورددت على ما قال بصدقٍ وشرود:

- تلك العروس هي إيفي.. لديها ضحكة صافية بريئة...

وفكرت بهدوء بينما عيناي تتجوّلان على الدمية التي ألبستها الفستان الصغير:

- أريد أن أعطيها إياها، فهي تشبهها كثيرًا.. عدا افتقارها للشعر البنّي المموّج...

هزّ ظافر كتفيه ليظهر لي اللامبالاة خاصته وتابع قراءة الكتاب بيده.. مرّ وقت إضافي رحلت فيه المعلمة.. لتصرخ فتاة بحماس:

- هيّا هيّا سأحكي لكن القصّة!.

أخفيت الدمية تحت وسادتي بجانب الكتاب الذي وضعه ظافر للتوّ، لأجده يقول وهو ينظر لساعته الرملية بينما يخفيها في عباءته:

- اقترب وقت النوم؛ لا تنغمسي معهن بالحكايات كما قلت لكِ من قبل.. وإن شعرتِ بالخوف انسحبي فورًا...

هززت رأسي بخفاء وتحرّكت لتجمع الفتيات وفكّرت بفضول:

- ما الذي قد يثير فزعي لمعرفة قصة الثلاث فتيات اللاتي أحضرهن قابضو الأرواح؟!.

تبعني ظافر فنظرت له بغرابة وسألته بصمت:

- هل ستسمع تلك الحكاية؟ ألم تحدث أمام عينيك وتعرف ما سببها؟.

أدارني من كتفيّ لأكون في مواجهة الفتيات وهمس في أذني منبّهًا:

- الفتيات لا يرينني، ومن المفترض أنكِ لا ترين حرّاسهنّ.. لذا تصرّفي على هذا النحو...

فكّرت بغرابة:

- لماذا؟ ألا يسحر الحارس عين من يحرسها لترى أي شيء؟ كما تفعل أنت لعيني؟.

تنهّد وقال بصبر:

- أنتِ عروس في حماية الحارس ظافر.. فلا تتعجبي من كونك مميّزة عنهنّ.

التفت له، وأراهن أنه يبتسم ابتسامة متسليّة، لكن هذا القناع القماشي الأسود الممتزج مع غطاء الرأس المنسدل على وجهه لا يساعدني في التأكد من ظنّي هذا.. فحرّكت شفتيّ بما أمليه عليه بعقلي:

- مغرورا.

اعتدل في وقفته بعد أن كان مائلًا إليّ، وضع كلتا يديه خلف ظهره وأشرف علينا من علوٍّ كما فعل أكثر من حارس تزامنًا مع بدء العروس بالحديث:

- تعلمن أن حارسي قد أمّن فتح قبور عدّة مرات ليسهل وظيفة قابضي الأرواح.

قالتها بزهو ولاحظت أنها تتبادل النظرات والابتسامات مع حارسها الذي وقف واثقًا، واستطردت:

- حكى لي عن وصول ثلاث فتيات من مكانٍ بالخارج.

همست بعض الفتيات بكلام به عدم فهم، فأوضحت الفتاة، وقد التفّ حول فراشها عدد أكبر حتى أصبح شبيهًا بالزحام:

- عرائس.. مُهداة للأمير غيث!.

- هدايا؟.

- وماذا عنّا؟.

- من أرسلهن؟.

- غيث؟ اسمه غيث؟ من المطر؟.

كلها تساؤلات قيلت على لسان العرائس، وكان آخر تساؤل من الفتاة الأقل خبرة ومعرفة بينهن.. أنا!

- مهداة من أمير ببقعة أخرى لا يهم اسمها.. والفتيات أعيد تأهيلهنّ ودخلن جناح الأمير فورًا!.

قالتها لأغرق أنا في ذكرى رؤية ثلاثة من قابضي الأرواح يحملن ثلاث فتيات بهيئة مزرية وكأنهن أتين من تحت التراب منذ لحظات... وقبل أن أصل لنقطة تذكري نظرة قابض الأرواح لي، اختلط ما قالته العروس منذ قليل بما قالته للتوّ: حارسها يؤمّن فتح القبور.. فهل فعلها حارس هذه المرّة أيضًا؟ أقصد..

«هل أخرجوا الفتيات من القبور، وبدون أي اختبارات دخلن غرفة الأمير؟».

نظرت لي الفتيات باهتمام لسؤالي، والذي أدركت وقتها أنني طرحته بصوتٍ مسموع.. فأجابتني الفتاة:

- نعمّ هذا لأنهنّ أميرات أصلًا!.

ضحكت أنا بغير فهم، وضيّقت المسافة بين حاجبي وتساءلت:

- أميرات؟ كيف وأنا لم أدرك أنني عروس حتى آخر لحظة؟!.

قلتها باستنكار لتضحك الفتيات وقالت إحداهنّ تؤيّد ما قلت:

- هذا صحيح.. الأميرة تكون عروس أولًا، تجلس معنا بالطابق، تشاركنا وجبات الطعام والدروس، وحين يأتي الوقت المناسب لها تقف على باب الأمير بأمرٍ منه.. ليجعلها أميرة!.

تعالت الهمسات المشككة في حديث العروس الأولى، فنظرت لحارسها الذي انحنى على أذنيها يخبرها بالمزيد من التفاصيل، وفي نفس اللحظة انحنى ظافر إليّ ليقول بصوته العميق:

- لا تلفتي النظر لقصة قدومك لهذا الطابق.. لا تكوني مثيرة للشكوك والريبة.

هززت رأسي بخفاء وأرهفت سمعي للفتاة التي بدأت بالاسترسال:

- الفتيات لسن عرائس مثلنا.. بل أميرات.. أميرات حقيقيّات!.

واستطردت بصدق من يعرف الحقائق كلها:

- كانت كل واحدة منهنّ أميرة في حياتها السابقة؛ لديهنّ كل شيء؛ الجمال، الأناقة والتهذيب، أيضًا الصوت العذب الرقيق والقامة المعتدلة ذات الخصر الرفيع.. ومؤهلات عالية أخرى! كملكات النحل في الخلية!.

قالتها وانفجرت بالضحك مع الفتيات الأخريات، ثم ختمت الموضوع بـ:

- وهذه صدقًا ليست العطايا الأولى للأمير من أميرٍ آخر.. فكما تعلمن، هو يستهلك الكثير من الأميرات!.

ضحكت بدلال فاحمرّ وجهي وفكّرت:

- ظافر.. هل لك أن تأخذ الحرّاس لاستنشاق الهواء خارج الطابق.. أو خارج القلعة؟ يبدو أن الحديث قد أخذ منحنًى آخر.. ولن أشعر بالراحة بينما أرى النظرات المنحرفة في عيون هؤلاء الذئاب!.

ضحك بسخرية وقال:

- ثرثرة الفتيات هذه لا تعنيني في شيء.. أما هم، فلن يفوّتوا رؤية تلك الحمرة على خد كل واحدة منكن.. لذا اعتادي الأمر، أو اخلدي للنوم أفضل...

تنهّدت وفكّرت بعناد:

- بل سأبقى!.

واستمعت لما تقول الفتاة:

- حارسي يعرف الكثير من قابضي الأرواح وعندما يكون لديه شيء مهم يخبرني به.

وقالت أخرى:

- وأنتِ لا تبخلين علينا بما يقول!.

ابتسمت الفتاة الأولى ولوّحت لنا بيديها قائلة:

- يكفي هذا لليوم عزيزاتي.. سأخلد للنوم...

قامت وخلفها حارسها، قامت بتخفيف الإضاءة بسكب القليل من الماء على الشعلات ونفخ الشموع.. وابتسمت لفتاة ما قائلة:

- لقد سهّلت عليكِ المهمة.. أشعريهن بالذعر عزيزتي!.

نظرت لفتاة بجانبي وتساءلت بريبة:

- ماذا الآن؟.

ابتسمت بحماس وقالت:

- وقت حكاية الرعب!.

ابتلعت غصّة في حلقي ونظرت حولي لأجد أن عددنا انحسر بشكلٍ ملحوظ، فأصبحنا نجلس في دائرة صغيرة لا يصلها إلا بعض من ضوء القمر، وشبح ضوء قريب من المستراح.. فتنهّدت وقلت بعقلي بحماس لاكتشاف المزيد عن شخصيّتي:

- الآن سأعرف إن كنت سأخاف أم لا...

عدت ببصري لتلك الدائرة المهيبة التي نجلس بها، كل فتاة تجلس القرفصاء ويقف خلف كل واحدة منهن حارسها بثبات وهدوء، إلا من بعض همسات منحرفة يصدرها فئة قليلة من الحرّاس، لم تخف كلماتهم البذيئة عني للأسف مما

أصابني بالتقزّز، لكنني صمدت لأسمع حكاية الفتاة التي بدت واثقة حين بدأت القول:

- هل تتذّكر أي منكنّ ماذا حدث لها قبل أن تأتي لسجن القصر؟.

وقبل أن ترد أي من الفتيات استطردت:

- ولا أقصد بقولي تلك الذكريات الواهنة التي تأتينا عن حياتنا السابقة، بل أقصد تلك اللحظات البسيطة بين الحياة والموت والقدوم للعالم الآخر...

عمّ الصمت، فلا أحد يعلم ما تتحدّث عنه! ابتسمت الفتاة بانتصار، وبدأت بالاسترسال:

- إذًا لم تسمعن قط بما تسمّى.. رقصة الوداع!.

ابتسمت أكثر من فتاة بجهل، لتزيد ابتسامة الفتاة بخبث وتسلّي، وكأنها تستمع لإيقاع منتظم يصدره كل قلب مترقب هنا، ومن بينهم قلبي.. الذي سيشعر بالخوف لا محالة.. أشعر بهذا.. سمعنا صوت ضحكة قصيرة متسليّة، توقّعت أن تكون منبعثة من صاحبة الحكاية، إلا أن العيون كانت كلها مصوّبة نحو إزالين؛ التي قامت بغرور ليرفرف شعرها الأشقر المموّج خلف ظهرها..

لاحظت حركة ظافر بالخلف، اختفى صوت خطواته بالابتعاد بعد أن كان واقفًا بالقرب مني، ليتبع المغرورة للشرفة المعتمة إلا من ضوء القمر الكبير.. وها هو مجدّدًا.. يستثني نفسه من القواعد التي يتذكّرها جيّدًا!

فجأة تذكرت كلمات أغنية إزالين ذات الكلمات الغريبة واللحن الهادئ المريح والمريب في آنٍ واحد.. «استثنيني..» اقشعرّ بدني من تلك الكلمة ذات الصيغة الغريبة، وكأنها لا تغني عن نفسها.. بل عن أحد آخر..



{١٠}

=وقت النوم وما قبله ج٢=

أفقت من شرودي، فلا أريد أن أفوّت تلك القصة ذات العنوان الغريب.. «رقصة الوداع».. والتي بدأت الفتاة بقصّها علينا:

- يُحكى أن فتيات القصر بجميع ألقابهن؛ أميرة كانت، عروس أو خادمة؛ كانت في يوم من الأيام نائمة في قبرها في سباتٍ عميق، مملوكة لقابض الأرواح الذي قبل روحها من الحياة؛ تكون حبيبته، عروسه وأميرته.. ويكون هو حبيبها وخادمها. يحيا بالقرب منها، ومن حبيباته الأخريات، وحين ينساها جميع من عرفوها بالحياة، يكون هذا وقت انتقالها للعالم الآخر... يأتي حارس من قصر الأمير ليطلب تحرير الفتيات، يشرف على فتح القبور ليلقي نظرة على الفتاة، ثم يتركها لحبيبها كي يودّعها؛ بالرقصة الأخيرة.. يُقال إن قابض الأرواح يبكي فراقًا لأميرته؛ يقربها من هيكله ويحتضنها دامع العينين، ليصحو جسدها النائم المبلل بدموعه وتبتسم له بحب، تمسك بيديه أو تطوّق خصره لتتمايل معه على أنغام صوته الحزين بالغناء والنواح.. وحين تجفّ دموع عينيه تنتهي الرقصة، كما تنتهي علاقته بها؛ وتصبح مجرّد أمانة عليه تسليمها لقصر الأمير. يلقي عليها النظرة الأخيرة في فراشها بإحدى زنازين سجن القصر.. تمرّ فترة ما، تُمحى فيها جميع ذكرياتها الخاصة بحياتها الأولى، فترة بقائها بالقبر، وعلاقتها بقابض الأرواح، ثم تستيقظ؛ لتشهق أول أنفاسها بالعالم الآخر، فيكون لها حارس يلازمها كظلّها أينما ذهبت حتى تقف أمام باب جناح الأمير!.

اقشعرّ بدني وشعرت ببرودة أطرافي حين انتهت الفتاة من السرد، لينتهي معه خيالي الذي صوّر لي كل شيء وكأنه يحدث لي!

رفعت عيني للفتيات المتوجّسات خوفًا من حولي، وفجأة صدرت صرخة مذعورة! وكانت لعروس ذات شعرٍ أسود طويل يغطي عينيها وناعم بطريقة غريبة. نظرنا لها بغرابة لنجد أن وجنتيها قد تحوّلتا للون الأحمر، فضحكت صاحبة القصة بانتصار لتتبعها ضحكات أخرى قليلة، لألمح أنا يد حارس الفتاة الصارخة تتجوّل على عنقها! إذًا هذا ما جعلها تبدو مذعورة فجأة! كانت حركته مباغتة، ولم يلبث ذلك الحارس بأن همس في أذنها بشيءٍ ما، فاستأذنت من الفتيات ونهضت للنوم، ومن خلفها يسير حارسها. حين ابتعدا عن الفتيات قليلًا أصبح بجانبها، جذبها من وسطها بذراعيه ليقربها منه بطريقة وقحة للغاية، بينما يهمس المزيد والمزيد في أذنها الصغيرة. كم أشعرني هذا بالغرابة! لماذا هي مستسلمة لحارسها بهذه الطريقة؟!

باختفاء طيفيهما ظهر لي جسد ظافر، يستند إلى الشرفة بظهره، عاقدًا كلتا ذراعيه أمام صدره.. لا أعلم لم يقف مركزًا حواسه هكذا بالقرب من تلك الفتاة بالذات.. هل هو منجذب لجمالها الملفت للأنظار؟ هل هو شعرها الأشقر الدافئ كلون الشمس التي لم تغب عن بالي للحظة؟ لا أعلم.. ولا أهتم.. وما شأني أنا؟ يكفي أنه لا يصادق باقي الحرس ولا ينطق بالألفاظ التي ينطقون بها هم.. تنهّدت وتذكرت أول ما سمعت عنه.. بين السجن والقصر:

- اظفر بها يا ظافر.. كما تظفر بكل شيء!.

توقّفت عند هذا القول.. كيف يظفر بكل شيء؟! وما هو يا ترى ما جعلهم يتحدّثون إليه بتلك الطريقة الحاسدة المغتاظة بينما هنا لا يتحدّث إليه أحد؟ قال أنه غير مرأي بالنسبة للفتيات.. فالأمر لا يتعلّق بهنّ.. إذًا فما هو هذا الأمر الخفي؟!

نظرت لإزالين التي تراقب القمر الكبير بشرود، تضع وجهها الناعم بين كفّيها.. تبدو هادئة.. ككلمة «استثنيني» التي غنّتها لترسخ في ذهني بغرابة. التفت ظافر إليّ، شعرت بنظرته رغم عدم رؤيتي لوجهه، فابتسمت بعد أن أفقت من شرودي وأدرت وجهي للفتيات، والتي بدت كل واحدة منهن منصتة باهتمام لمن تتحدّث:

- فعلتها مع حارسي.. هو الرجل الأول الذي سكن قلبي بهذا العالم!.

هوى قلبي وزادت دقّاته وأرهفت سمعي، لأجد فتاة تتساءل باستنكار:

- يا قليلة الحياء! متى وكيف ونحن ننام على فُرُشٍ شبه متلاصقة ببعضها البعض! ولا تفصلنا غير تلك الستائر الشفّافة!.

زفرت الفتاة المذنبة ورفعت رأسها بعناد، فلاحظت رسمة عينيها بالكحل الذي أظهر عينيها الرماديتين المخيفتين.. ذكّراني بعيني ظافر للحظة.. حين لمحتهما في مرّة انحسر فيها غطاء رأسه للخلف قليلًا..

- لا عيب في أن يمتلكني رجل قبل الأمير.. لن أنتظره أنا وجسدي الجميل للأبد!.

شهقت الفتيات من قول تلك العنيدة، وتابعت الأخرى توبيخها قائلة:

- لقد قلتِ أنكِ كنتِ غير عذراء في حياتك الأولى.. لا أدري كيف عرفتِ، لا يهمني، لكن ما يهم أنه بما أنكِ استيقظتِ من بعد موتك عذراء، فهذا لسبب!.

شهقت بعض الهواء وتابعت بتحفّز:

- لأننا عرائس الأمير! وبالطبع الأمير هو من يضع تلك القواعد لرغبته الخاصّة!.

احمرّ وجهي ونظرت لذات العيون الرمادية كما فعلت باقي الفتيات، ننتظر ردًّا قويًّا..

- العقل هو ما يكون بِكرًا لا الجسد! وبما أنني تذكّرت -بالطريقة التي لا تهمّك- كوني مملوكة لأكثر من رجل في حياتي الأولى، فهذا لا يجعلني بِكرًا على أيّة حال.. فلم الخداع إذًا!.

قالتها بثقة وغرور، فتشهق الأخرى وتقول بحزم:

- خداع؟ من المخادع هنا! إنها أنتِ! أنتِ المخادعة!.

بسخونة الحوار؛ ارتفعت نبرة كحيلة العينين قائلة بخبث جمّد أوصالي:

- إن كنتِ ترين نفسك بريئة، رغم شكّي في هذا.. فالكثيرات هنا لسن كذلك! أغلب الفتيات هنا لسن بعذراوات!.

خرست الألسنة بقولها.. حتى إن الصمت المريب هذا فتح باب عقل كل واحدة منّا.. وجعلها تتساءل.. من أيضًا تفعل هذا؟ إلا أن الفتاة استطردت قولها لتختم النقاش الجريء:

- لن تجدي بيننا عروسًا عذراء بجسدها وعقلها معًا! فالعُهر لا يُنسى!.

قالتها وقامت من مكانها، واتّجهت لفراشها ولم يتبعها حارسها، بل ابتسم ابتسامة صفراء بينما ارتفعت له عيون الحرس بدهشة وإعجاب.. وقال أحدهم بخيبة أمل:

- ربح الرهان ككل مرّة.. كم هو محظوظ!.

اتّسعت عيناي بذعر وتذكّرت ما سمعت بالمستراح قبل الدرس. تجمّد قلبي للحظة قبل أن تخرج دقّاته بطيئة، لأشعر بثقل صدري وتنفّسي.. إذًا.. هذه هي فتاة الحارس التي تحدّثوا عنها! والحارس الآن فخور بفعلته المشينة معها!

بينما أنا غارقة في أفكاري المرتابة وهواجسي بشأن تحذيرات ظافر، سمعت شهقة فتاة، فنظرت إلى مصدر الصوت ببطء لأجد الحارس ذا الفعل المشين يعتدل بعد أن قبّل فتاة ما على زاوية شفتيها.. تلك المنطقة التي وضعت الفتاة يدها عليها بذعر.. بينما حارسها يهنئ الفائز بالرهان بفتور قائلًا:

- ألم تأخذ جائزتك؟ هيّا اذهب بعيدًا.. يكفي قبلة واحدة!.

ابتسم الآخر بخبث وهمس:

- كم أردت أن أتمادى، لكن الصبر.. ليس هذا آخر رهان!.

وضعت يدي على فمي بصدمة وقرّرت الرحيل.. نعم.. عليّ الانسحاب! خشيت أن تتعلّق عيناي بعين أحد منهم، وبينما أنا أنسحب مغادرة إلى فراشي، سمعت همهمة خافتة تأتي على بعد قليل من الفُرُش من مكاني، فسرت ببطء وبدافع الفضول أقترب من مصدر الصوت.. لأجد شيئًا لم أكن لأتوقعه في تلك اللحظة بالذات.. فعلى شبح الضوء الخافت المنبعث من الشعلة اليتيمة -بالقرب من المستراح- رأيت تلك الفتاة، التي يغطي شعرها الناعم عينيها، تفعل ما حكت عنه ذات العيون الرماديّة منذ مجرّد دقيقة ملعونة واحدة، بينما تغمغم بكلمات العشق لحارسها الذي يبدو منجرفًا وراء كل ما تقول.. مجاريًا لها في مشاعرها تلك!

زاد انقباض قلبي وتبعته معدتي فوضعت يدي على معدتي المتألمة وفجأة استدار إليّ الحارس بعد أن أشارت فتاته إلى وجهي المنقبض! ليتوقّف عن ما يفعل ويغلق الستار بقلّة حياء.. بعد أن تلاقت عيني بعينه!

قبل أن أدرك مدى الخطر.. شعرت بيدٍ توضع على كتفي من الخلف، فانتفضت بذعر واستدرت لأرى من الفاعل.. لأجد أنه فقط ظافر.. يقف بهدوئه المعهود.

لا أدري إن كان قد رأى ما رأيت أنا، فهدوؤه يخونني في كل مرّة حاولت فهم ما وراء هذا القناع، لكن ما أنا متأكدة منه أنني لن أستطيع الصمود، أريد إفراغ ما في معدتي التي زادت انقباضاتها. هرولت للمستراح بما تبقّى لي من قوّة، أصم أذني عن المزيد من الكلمات البذيئة التي تخرج في مثل هذا الوقت؛ فبرغم عدم تبيّن الأوقات من بعضها بالنسبة لي بسبب هذا الظلام اللعين، فإنني استطعت تمييز هذا الوقت من بين الباقين.. فهذا الوقت أصبح ثقيلًا على قلبي.. هو وقت النوم..

جثوت على ركبتيّ المرتعشتين وأفرغت ما بمعدتي.. غسلت وجهي وأسناني بضعف وتركت قطرات الماء تنهمر مني لتبرد سخونة جسدي المرتاب من كل شيء. مررت من أمام فراشي بمنتهى الأدب، منعزلة عن ما حولي بشعري الذي أسدلته على عينيّ من الجانبين، ارتميت على فراشي وتدثّرت جيّدًا، دون النظر لفراش إيفي للاطمئنان عليها، وإكمال دميتها.. أو حتى قراءة الكتاب الذي كنت متحمّسة له وقت الغداء.. فقط غطيت وجهي بطرف غطائي وأغمضت عيني، محاولة الهدوء.. وبثّ الطمأنينة في نفسي.. إلا أن صوت ظافر ظهر بجانب أذني بينما يحكم الغطاء عليّ يدثّرني جيّدًا:

- لقد حرستك لوقت قصير لكنه كافٍ لتدركي عدم فعلي لأي شيء من هذا النوع.. بإمكانك الوثوق بي، فأنا هنا من أجلك...

واستطرد بهمس ليطمئنني:

- سأحميكِ...

سرى كلامه بجسدي ليسكن موضع الألم به، ويخفض صوت الطنين بعقلي، ففكّرت بضعف:

- ليس لي خيارٌ آخر.. أنا أثق بك ظافر.

لم أدرِ ماذا أقول.. لكن كلماته حقًّا جعلتني أهدأ كما زادت طمأنينتي حين وضع يديه على جبيني وهمس ببعض الكلمات غير المفهومة بالنسبة لي... لأغمض أنا عيني وأذهب في عالم الأحلام.. بينما صوته كان آخر ما سمعته:

- نومًا هنيئًا إليونورا.. ستكونين بخير...

وتبيّن لي صوت غناء إزالين في الخلفية.. وهي تقول:

- استثنيني...



{١١}

= رقصة ثنائية.. وسر يجب اكتشافه =

فتحت عينيّ ببطء أمامه آملة أن تصدمني أشعة الشمس عبر أي منفذ، أتذكّر أنني كنت معتادة على العيش في الضوء، أستيقظ فيه بنشاط وأعمل حتى يخفت ويذهب؛ ليأتي الضيف الثقيل على قلبي.. القمر!

أراه مغرورًا كطاووس نسي أن ليس لريشه معنى بدون ألوانه.. فالقمر ينسى أن ضوءه من الشمس؛ فأراه متغطرسًا بما يملك من جمال!

- إيفي.. أيتها الصغيرة الكسولة.. انهضي كي لا نتأخّر!.

انتبهت على صوتٍ ذكوري حنون ينادي زميلتي، فاستدرت إليه بحذر كي لا يدرك أنني أراه... لأرى إيفي تجذب الغطاء على وجهها أكثر قائلة بضجر:

- أنا لست صغيرة.. بل أنت الصغير!.

كتمت ضحكتي لأنظر لحارسها، لأراه قصيرًا لكن بهيئة معتدلة.. يشبهها بدرجة كبيرة، نفس لون العينين والشعر ونعومة البشرة؛ وكأنهما شقيقان!

- حسنًا أنا صغير لكنكِ أصغر.. كفى كسلًا!.

قالها بتبرُّم واضح.. كتبرم الأطفال، كما فعلت هي! فأفلتت مني ضحكة رغمًا عني.. لينظر لي الحارس شزرًا، فأدرت أنا وجهي للجهة الأخرى أمثّل السعال الخفيف.. لأجد ظافرًا الجالس على الجهة الأخرى من فراشي قد أغلق الكتاب للتوّ ورفع رأسه إليّ قائلًا:

– استعدي لاستقبال شيء جديد اليوم...

عبست ليزيدني العبوس جمالًا بحاجبي الكثيفين وتساءلت:

– ماذا تقصد؟.

فأشار لي إلى المستراح، لأزحف أنا إلى ركبتي لآخر السرير كي ألقي نظرة على ما يشير إليه، فوجدت صفًّا طويلًا من الفتيات.. يقفن في انتظار دورهنّ بهدوء وكسل ينمّ عن حقيقة استيقاظهنّ من دقائق فقط.. فشهقت بهمسٍ وقلت بعقلي:

– ليس هذا وقتًا للصفوف والنظام! لديّ حاجة ملحّة في الذهاب للمستراح!.

سمعت ضحكة ظافر وقوله المشاكس:

– لست وحدك.. جميعهنّ يشعرن بنفس الحاجة الملحّة!.

وأضاف وهو يزيل الغطاء عني:

– قفي في الصف قبل أن تسبقك صديقتك الصغيرة...

انتبهت لإيفي التي نهضت، فالتفت لها وناديتها.. فنظرت لي بعين يغلب عليها النعاس بينما الأخرى شبه مغلقة.. فقلت بابتسامة ودودة:

– لقد صنعت لكِ هديّة صغيرة.. وأعتقد أنكِ رأيتِ جزءًا منها بالأمس...

وأضفت معتذرة:

– لكن تنقصها خامة لم أجدها بتلك الخامات التي أُعطيَت لي...

أريد أن أرى ابتسامتها بشدّة، فشيء ما بداخلي يريد استعادة أي بهجة بعد الاستيقاظ، تعويضًا عن ضوء الشمس وصوت العصافير المبهج..

نهضت من فراشي بينما التقطت الدمية القطنية، ناولتها إياها مبتسمة بترقّب، لتأخذها مني بتيه.. فركت عينيها كالأطفال وأمعنت النظر في هديّتها،

لتتسّع ابتسامتها الخجولة.. وقطع هذا الصمت صوت حارسها والذي قال بابتسامة دافئة ولهجة طفوليّة قليلًا:

- لم تكن الفتاة مذنبة بالأمس.. سامحيها إيفي سامحيها!.

اتّسعت ابتسامة الفتاة ونظرت لي بعينيها البريئتين.. وسرعان ما قفزت فوق سريرها لتتخطّاه وتقف أمامي، واحتضنتني بعفوية! ضحكت أنا وربت على كتفيها وهمست:

- تشبهك كثيرًا حين تبتسمين!.

- أشكرك إليونورا.. هذا لطفٌ منكِ حقًّا!.

وقطع الصمت صوت نحنحة الحارسين.. وإشارتهما على الصفّ في نفس الوقت.. لترتبك كل واحدة منّا.. فقلت:

- هيّا للصف...

هزّت رأسها بصمتٍ وتحرّكنا...



بعد انتهاء المهمّة المستحيلة بدأت أستوعب أن هناك مكانًا يجب الذهاب إليه بسبب رؤية الطابق شبه هادئ، التفت لإيفي قائلة:

- أين ذهبت باقي العرائس؟.

تركت فرشاة شعرها وقالت بينما تربّت على ضفيرتها على كتفها:

- ذهبن لدرس الرقص.. نذهب إليه كل يوم بعد أن نستيقظ في نفس الميعاد...

خرجت معها فأمسكت يدي لتريني الطريق، حارسي على يميني وحارسها على شمالها، نهبط الدرج الواسع للطابق الآخر.. فكّرت في شيء وسألتها بينما نحن في طريقنا للدرس:

- من يوقظ العرائس؟.

نظرت لي وردّت سؤالًا بسؤالٍ لكن بحذر:

- من أيقظكِ أنتِ؟.

لم أفهم ما ترمي إليه فأجبت بصدق:

- استيقظت وحدي.. حين اكتفيت من النوم فتحت عيني.

ضمّت شفتيها ونظرت للخلف وللجانبين، تتأكد من أن لا أحد يسمعنا.. ثم قالت بهمس:

- إن لم تستيقظي في الوقت المناسب يوقظك الحارس الشخصي.. كي لا تفوتين الدرس وينخفض مستواكِ.

- أي مستوى؟.

تساءلت بغير فهم، فتغاضت عن الهمس في صوتها وقالت بلهجة عاديّة:

- لكل عروس مستوى، إن كان عاليًا يتم ترشيحها للأمير...

أخبرتني بما يحدث عادة؛ فتدريب الرقص وركوب الخيل، بالإضافة للحياكة والتطريز والغناء لبعض الفتيات يجعل منها عروسًا عالية المستوى، فتتشاور المشرفة مع مساعد الأمير في أمر عرضها عليه، إن لم يكن رآها من قبل في حفل من الحفلات التي غالبًا ما تقام سواء بداخل القصر أو خارجه..

صمتت بعد أن أخبرتني بهذه المعلومات.. وصمت أنا أفكر في ما قالت، ثم عددت على أصابعي الأنشطة اليوميّة للعروس وقلت في نفسي بضيق:

- العروس لديها وقتٌ ضئيل رغم عدم أهمية ما تفعله لنفسها.. فأين سأجد وقتًا لقراءة ذلك الكتاب، وغيره من الكتب؟.

دلفنا من بابٍ كبير واتّسعت عيناي دهشة من ما رأيت، فالغرفة كبيرة الحجم، جدرانها مرايا فقط، كتلك الغرفة التي خلعت فيها ملابسي لأعرضها على الماشطة وأحاطني إحساس بالذنب لفعلي هذا بالماضي القريب.. وما هي إلا ثوانٍ وشردت في انعكاس العديد من العرائس الواقفات حول المرايا، أو الجالسات أرضًا ينتظرن إشارة للوقوف... على أقصى اليمين وجدت العديد من الآلات الموسيقية.. مختلفة الأصل، تعرّفت على معظمها بفضل ما تبقّى من ذاكرتي.. سمعت صوتًا رقيقًا لكن رجوليّ يقول:

- واحد.. اثنان.. واحد اثنان ثلاثة أربعة.

رفعت رأسي لصاحب الصوت، لأجد أنه مدرّب الرقص، يقف برشاقة مريبة رافعًا كلتا يديه في الهواء بطريقة غريبة، كما يرفع إحدى ساقيه قليلًا عن الأرض، وبكلماته التي يعيدها، يلمس الأرض بقدمه المرفوعة ثم يعود ليرفعها من جديد، ليشكل إحدى الحركات الاستعراضية متزامنة مع حركة يديه.. وما هي إلا ثانيتان وسمعت صوت همسات.. وكانت للفتيات يشرن إلينا بالاقتراب.. فتحركت بجانب إيفي وجلسنا أرضًا بجانب إحدى الفتيات.. التي قالت بهمس:

- مزاجه معكّر اليوم فكونا حذرتين.

هزّت إيفي رأسها بتوجّس وأشحت أنا وجهي بغير اهتمام، أطالع هيئتي بالمرآة، وأشاهد ذلك المدرّب الذي يقف وسط دائرة من الفتيات اللاتي يقلدن حركاته، بمزيج من المهارة والترقُّب.. وما هي إلا لحظات حتى اقترب ظافر وجلس بجانبي، فهمست بعقلي بدهشة عُظمى وأنا ما زلت أطالع المرآة:

- ظافر انظر! أنت بلا انعكاس بالمرآة!.

لم يعلّق ظافر على ما قلته، واكتفى بأن أدار وجهي بكفّيه حتى أنظر للمدرب، ففكرت بضجر:

- كنت أنظر للدرس عبر المرآة!.

تجاهل ظافر ما قلته وقال منبّهًا:

- لن يكون من الجيد أن يرى عدم ملاحظتك له.

زفرت بضيق.. وأنا ألتفت.. وفجأة صدح صوت المدرّب الغاضب حول كل الأركان:

- من تلك التي زفرت؟ من التي ترى أنها ممتازة ولا تحتاج لتدريب؟!.

أشارت أصابع كثيرة إليّ، فتوعدّتهن أنا بنظراتي حتى التفت لي المدرّب.. لاحظت ما يرتدي، كانت قطعة من الملابس واحدة -باللون الفضيّ هادئ اللمعان- تجسّم جذعه وساقيه بشكلٍ ملحوظ، فبدا غريبًا بمظهره غير الرجولي بالمرّة.. رفعت عيني لعينيه الغاضبتين وقلت كاذبة:

- كنت أنفخ خصلة من شعري عن عيني لا أكثر!.

نظر على شعري المعقود خلف رأسي بطريقة لا تدع أيًا من خصلاته تفرّ وابتسم بطريقة مستفزّة قائلًا:

- لا أظن أنكِ تقولين الحقيقة عزيزتي...

وقبل أن أبرّر الكذبة بأخرى، أشار لي بالوقوف، فوقفت ولا أدري ماذا سيحلّ بي.. سألني:

- من أين أنتِ؟.

أدرت عيني حول الغرفة وحاولت التذكّر، فقال ظافر منبّهًا:

- ليس من المفترض أن تتذكري أي شيء.. هو يعبث بعقلك لا أكثر...

فهمت مقصد ظافر وقلت ببراءة بصوتٍ مسموع:

- لا أعرف!.

هزّ رأسه وقال وكأنه يصحح كلماته السابقة:

- أرى أنكِ مستجدة.

هززت رأسي بهدوء وقلت بعقلي:

- وكم أكره أن أكون هكذا! كوني لا أعرف ما سيحدث يُنتِج طنينًا بعقلي!.

- فقط تمالكي أعصابك.. لن يجرؤ على أن يؤذيكِ.

قالها ظافر فابتسمت أنا بوداعة.. لأمتص غضب ذلك الشخص غريب الهيئة.. وفجأة قال من العدم:

- ارقصي.. أريني ما لديك...

لاحظت أنه يتفقّد جسدي بطريقة مكشوفة للغاية.. فرغمًا عني رفعت ذراعيّ لأخبئ بهما مفاتن جسدي العلوي الظاهرة تضاريسها في ردائي غير الفضفاض.. وبإشارة منه بدأت عازفتان بأخذ آلتين والعزف عليهما، لحنًا متناغمًا بموسيقى سريعة.. لم تتحرك شعرة من جسدي، فصاح بصوتٍ مرتفع في سكتة اللحن:

- بدأت الموسيقى! فماذا تنتظرين!.

لم تسعفني ذاكرتي لتذكّر أي نوع من أنواع الرقص على تلك الموسيقى، فبرغم معرفتي للآلات إلا أن الأصوات المنبعثة منها لا تشجعني على إبداء أي حركة.. وللحظة تذكّرت حركات المدرّب بينما يعدّ حركاته:

- واحد.. اثنان.. واحد اثنان...

قلّدت حركاته وأنا أعد حركاتي بعقلي، وتجاهلته لأنظر في المرآة لأراقب انعاكسي، لعلي أصحح ما أفعل.. لكن ما نتج عن حركتي: أقل ما يقال عنه أنه بلاهة.. أو شلل!

ضحكت الفتيات على مظهري وأنا أحاول جاهدة رفع قدمي والطرق بها على الأرض الناعمة مع تحريك يدي ورأسي مع اللحن.. كنت كارثية.. لهم كل الحق بالسخرية!

- كفى كفى!.

قالها المدرّب بحدّة وغضب ممتزجين بعد أن سئم سريعًا من النظر إلى جسدي غير المتناغم مع الموسيقى، ليسكت بها العازفتين اللتين أشاحتا ببصرهما بعيدًا كي لا تنتقل عدوى الضحك إليهما..

- كارثة؛ قطعة من الكوارث المتكتلة في عروس واحدة بشكل لا يُعقل!.

قالها تعليقًا على أدائي.. ورأيت بما قال بعض المجاملة، ورغم ضحك الفتيات من حولي لم أبتسم حتى، بل زادت انقباضات قلبي وتصلّب عضلاتي.. حتى قال:

- اتركي الموسيقى واتّبعي حركة خصري...

وبانتهائه من آخر كلمة أشار إلى خصره الذي بدأ في الاهتزاز، ليذهب ويأتي لليمين واليسار بحركات صغيرة، سريعة ومرتعشة ففغرت أنا فاهي بغير استيعاب ولم أحاول حتى تجربة ما قال.. ليزيد صوت القهقهة على مظهري! سمعت صوت ظافر يتنهّد ويقول بخفوت:

- هل يظنّ أنه رجل؟ هذا المتحول الـ...

صممت أذني عن تلك السبّة التي أطلقها ظافر على المدرب لتصدح ضحكات الحرس الرجولية مع بعض التنحنح -لفصاحة ظافر- بعد أن كانوا صامتين إلا من الهمز واللمز.. كان ينقصني صوتهم في أذني أيضًا!

- حسنًا.. قفي في تلك الزاوية على أطراف أصابعك وارفعي ذراعيك للأعلى.. هذا التمرين سيساعدك على تذكّر نوع الرقص الذي تجيدين...

وختم عبارته بـ:

- لا توجد فتاة لا تجيد الرقص!.

- ولا يوجد رجل يجيد الرقص!.

قالها أحد الحرس مقلّدًا أسلوب ظافر الساخر ليضحك الباقين بجنون، وأنا أقف حائرة.. هل يريد تذنيبي؟ حقًّا؟

كتمت تنهيدتي كي لا يسمعها هذا الأحمق، واتجهت للركن الذي أشار إليه، لتبتعد الفتيات مفسحات لي الطريق وكأنني ملكة متوّجة، لكنني فقط فتاة على وشك الفتك بعظامها الرقيقة من أجل تذنيب.. هه.. مدرب أحمق!

- كم سيطول التمرين؟.

هكذا تساءلت بعقلي بينما رفعت نفسي على أصابع قدميّ برشاقة ملوّحة بذراعيّ أعلى رأسي حتى استقرّتا وسكنتا بجوار بعضهما البعض، فأخرج ظافر ساعته الرملية، نظر بها ولم يرني ما بها، وقال بصوته العميق بهدوء:

- لن تريدين معرفة الصدق، لن يعجبك في هذا الموقف...

زفرت بخفوتٍ وحذر، لن أستطيع كبت رغبتي بالتنفيس عن غضبي.. فتململت في وقفتي بطريقة خفية وقلت بسأم:

- وهل سأظل واقفة بهذه الوضعية كل وقت التدريب؟.

هزّ ظافر كتفيه بلا مبالاة، فنظرت له شزرًا قائلة بداخلي بغضبٍ مكتوم:

- افعل شيئًا!.

هزّ ظافر رأسه نفيًا، لأقول أنا بغير تصديق:

- ماذا! لا تعرف كيف تسحر قدمي؟ أو تسكين تلك الآلام التي ستنتج عن وقفتي هذه؟.

ضحك ظافر وجلس متربعًا ليغيظني، رفع رأسه إليّ وقال بمكر:

- بلى.. لكنني أريد نفس النتيجة التي يسعى إليها المدرب...

عاد بنظره للأمام يراقب الفتيات حول المدرب، وأضاف بخفوت:

- تفاجئينني كلّ مرة بمهارة جديدة.. وهذه المرة سأتفاجأ أيضًا.. لدي إحساس قوي بهذا...

- وأنا لدي إحساس قوي ورغبة في صفع هذا الكائن -لزج الجسد- على وجهه الملطخ بملامح الرجولة! كم يبدو أحمق في هذا الزِي!.

ضحك ظافر ولم يعلّق.. فصمت أنا أحاول التركيز.. وساعدني ظافر قبل أن يصمت تمامًا:

- ركّزي على الموسيقى.. وحدها سترشدك.

هززت رأسي وأغمضت عيني لأستسلم لحاسّة السمع.. دقائق مرّت بلا جدوى.. أستمع لمختلف أنواع الموسيقى لترقص عليها فتيات مختلفات -لتثبت حقيقة أن العرائس آتيات من بقاع مختلفة من بلدان الحياة- لكن لم أجد ضالتي بعد.. فتحت عيني بسأم، وقبل أن أحاول الهبوط على قدميّ لأريحهما قليلًا انتبهت لصمت الجميع مع مناداة المدرب على فتاة ما:

- إزالين.. أمتعينا بقليلٍ من الإبداع...

أدرت عيني بسأم من رؤية تلك النظرات الحاقدة على أعين الفتيات.. لمَ ينظرن إليها هكذا؟ ولمَ هي هكذا من الأساس! أشعر بأنها قريبة من الكمال.. بطريقة لا توصف!

قبل أن أنغمس في أفكاري، لاحظت أنها تقترب من الزاوية التي تمكث بها العازفتان، همست لواحدة منهما بشيء ما وعادت لمنتصف الدائرة التي زاد اتّساعها، لتراجع الجميع لمشاهدتها بصورة أوضح.. أمسكت العازفتان بآلتين شكلهما مألوف بالنسبة لي.. واحدة ذات أوتارٍ هادئة الصوت والأخرى يتم النفخ في عودها الرفيع مع سدّ بعض الفتحات المستديرة بها.. أسبلت أهدابي أكثر من مرّة بتحفّز ودقّات قلب سريعة، أحاول تخمين اللحن الذي سينطلق بعد ثوانٍ فقط، بل أحاول التأكد منه.. أشعر بأنني أعرف ما سيحدث الآن.. لكن كيف أشعر بهذا؟!

وفجأة انطلقت موسيقى هادئة، حالمة! جعلتني أرفع عينيّ بدهشة لإزالين التي بدأت بحركات الرقص الخفيفة.. تستند على أصابع قدمها اليمنى بينما ترتاح قدمها اليسرى على الأرض، لم تكن ترتدي حذاء.. هذا ما ظهر حين رفعت فستانها بيديها، كما ظهرت قطعة من الزينة على قدميها.. خلخال.. لونه ذهبي، يتدلى منه قطع أخرى بطريقة عشوائية، فتهتزّ مع حركة قدميها وردفيها، لتصدر رنينًا خافتًا يليق بصوت الموسيقى.. ويليق بها.. حرّكت رأسها بتناغم لتستقر عيناها على يدها اليمنى، يداها تتحركان بتمايل كتمايل الأفعى، وصرت أنا مندهشة من حركاتها؛ قلبي يهوي بإيقاع منتظم وهادئ الآن.. وكأنه سكن ليراقب تلك الحسناء كما أراقبها أنا!

الجميع مندهش من تمايلها مع الموسيقى بطريقة مثالية؛ فلم تقتصر حركاتها على تحريك يديها وقدميها ورأسها فقط.. بل كل جزء في جسدها آخذ دورًا ممتازًا على أنغام الآلتين.. وقبل أن تنتهي الموسيقى أنزلت ذراعيّ من موضعهما وبت أقلد حركاتها.. مغمضة العينين.. وحين فتحتهما فجأة وجدت ظافرًا يقف أمامي.. رأيت عينيه مندهشتين من ما أقوم به.. أعتقد أنها كانت تلك النظرة التي كان يطالع بها إزالين بالأمس أمام المرآة، والتي بالطبع كان يراقبها بها منذ ثوانٍ فقط...

مد يده إليّ فوضعت يدي اليمنى في يده واليسرى ما زالت تقوم بحركات مائعة.. وقبل أن أدرك ما يجري سرت خلفه، لأراه يعبر من بين جسد الفتيات والحارس كالدخّان، ليتركني وسط الدائرة بالقرب من إزالين.. انتبه الموجودون لي.. فأغمضت عيني وركّزت على استكمال حركاتي، بينما أتصور شكلي في تلك الرقصة الثنائية ذات الحركات المتناغمة المتشابهة.. ثوانٍ مرّت على هذا الحال.. لا أرى أي شيء غير ما أصوّره لنفسي.. حتى انتهت الموسيقى.. لأجد تصفيقًا حارًا من مصادر كثيرة.. فتحت عيني لتتلاقى عيني بعينيّ إزالين المندهشة من فعلتي.. تطالعني بعينيها الزرقاوين بنظرة أخطأت في فهمها.. ظننتها تكبّر.. لكنها تحتوي

على معنى آخر لم أعرفه وقتها.. أدرت عيني بين الجموع لأرى تصفيقًا من بعض العرائس من بينهن إيفي المبتسمة بدهشة، أيضًا الحرّاس، المدرب.. وظافر!

- لا أصدّق! لا أستطيع إيقاف تلك القشعريرة التي انتابتني!.

قالها المدرب بلهجة متأثرة، لألاحظ لمعة عينيه بدمعة يتيمة فرّت على وجنتيه بخيانة، فرسمت ابتسامة شاحبة على طرف شفتيّ بغير فهم، لأجد أنه اقترب من كلينا، أخذ يدي في يده ووضعها في يد إزالين ثم ابتعد ناظرًا إلينا، كنت أقف أنا بهدوء ألتقط أنفاسي، بينما أسمع صوت أنفاس إزالين الرقيقة التي ألصقت نصف ظهرها بظهري بعد أن قرّبنا المدرب..

- لوحة فنيّة! إزالين و...

أشار إليّ وتساءل بإعجاب متحمس:

- ما اسمك؟.

فقلت بهدوءٍ واثق:

- إليونورا.

رفع كفّيه مضمومين أمام وجهه بامتنان، قائلًا بنفس التأثّر السابق:

- إزالين وإليونورا.. لوحة من الجمال.. آية عظيمة وهبة من القدر!.

رفع كفّيه أكثر ونظر لسقف الغرفة قائلًا بخشوعٍ صادق:

- شكرًا للقدر.. أشكرك على ما منحته لنا!.

أنزل يديه ووضعهما في وسطه، بدا الارتياح عليه حين قال:

- أستطيع النوم براحة الآن.. فما أراه أمامي أكثر من كافٍ لحفل عيد مولد الأمير!.

- عيد مولد الأمير؟.

قلتها أنا وإزالين في نفس الوقت مع شهقات الفتيات غير المصدقة.. ليقول المدرب بثقة اكتسبها منّا:

- نعم! وسترقصين أنتِ وهي في هذا الحفل بلا شك!.

زفر بارتياح ومسح على شعره الناعم ثم قال بغبطة:

- الجميع انصراف.. عدا هاتين الجميلتين!.

قامت إيفي من مكانها وأشارت إليّ بأنها ستذهب، فهززت رأسي.. والتفت لإزالين لأجدها قد حصلت على أنفاس منتظمة هادئة، ابتعدت عني حين تلاقت عيوننا.. وأشاحت بوجهها للجهة الأخرى حين اقترب ظافر مني..

نظرت لظافر بتساؤل أحمق، لأجده يرفع يده في تساؤل هو الآخر، وقال:

- هل رأيت نفسك؟ كنتِ تحلّقين!.

ابتسمت بغرابة وتساءلت بشك:

- حقًّا؟.

هزّ رأسه وقال بصدق وبنبرة دافئة طمأنتني:

- كنتِ أكثر من رائعة!.

كادت وجنتاي أن تتلوّنا باللون الأحمر، تفاجأت بأن نظراته معلّقة على إزالين التي انصرفت تقف أمام المرآة، تعدل من وضع شعرها.. فأدركت أنه كان يتحدّث عنها هي.. لا أنا!

وقف المدرب بفخر أمامي أنا وإزالين، وحارسانا يقفان بالقرب من ذلك التجمّع الصغير الذي صنعناه.. حارسها هادئ الملامح، أدركت خبثه من تلك النظرة التي ينظر بها إليها لتقابله هي بلا مبالاة، وكان هو حارس من الذين أسمعهم يتحدثون ببذاءة مع بعضهم البعض أثناء تمضية الوقت بعيدًا عنها؛ هي التي من المفترض أن تكون في حمايته..

- اقترب الحفل وكنت أخشى من ندرة المواهب في مجموعتكنّ.. لكن.. ها هي موهبة فريدة! تبدوان كالتوأمين.. نسختين متطابقتي الحركات دون أي تدريب حتى! أعجزتما لساني عن التعبير حقًّا!.

ابتسمت.. ولم تتغيّر ملامح إزالين.. ولم يزِل ظافر عينيه عنها قط..

تحدّث المدرب عن ضرورة التقرب من بعضنا البعض ومشاركة الوقت كي تزيد الثقة بيننا.. وقال أننا موهوبتان بالفطرة ولكن نحتاج لبعض تمرينات للحفاظ على اللياقة وزيادتها.. وصرفنا.. على موعد للغد لبدء تلك التمرينات.. فانصرفت بجانب ظافر الذي بالكاد رفع عينيه عنها.. احترت لأمره ولم يعلّق هو على أفكاري.. حتى سمعت إزالين تقول بريبة:

- أين أنتِ ذاهبة؟.

فتوقّفت، قلت أنا بغرابة:

- لطابق العرائس.. أ-أليس هذا هو الاتجاه؟.

هزّت رأسها بالنفي وقالت بتأفف:

- هذا أول يوم كامل لكِ.. نحن نذهب للاستحمام بعد تمرين الرقص وقبل الإفطار...

وأشارت لي على الجهة التي سنسير منها، فأومأت وقلت ببلاهة:

- آه.. حسنًا...

سرنا بالقرب من بعضنا البعض بهدوء.. لا تنطق أي منّا بأي شيء في الظاهر، لكن أنا كنت في هذه اللحظة أتحدّث لظافر بعقلي، ألفت نظره لشروده المتكرّر في حضور تلك الشقراء:

- لم لم تنبهني بعدم الذهاب للدرج المؤدي لطابق العرائس؟ في ماذا كنت تَفكر؟ أكنت شارد الذهن؟.

هزّ رأسه نفيًا ولم يجِبني.. بالطبع.. فهذه هي فرصته الذهبية للبقاء بالقرب منها! بدأ الأمر يستفزّني حقًّا.. لا أحب فكرة الغموض المتبادل في شخصيّته وشخصيّتها –دون أي مبرّر– وهما لا يعرفان بعضهما بعضًا.. أم يعرفان بعضهما بعضًا قبلًا؟!

توقّفت إزالين حين تبدّلت الجدران بالصخور على الجانبين، وهمست بشيء لم أسمعه، لأجد أنها تتحرّك بعيدًا وحارسها قفز في الماء برشاقة.. لأكتشف أنها نفس بركة الماء العميقة التي سقطت بها حين كنت خادمة دميمة.. دقّ قلبي بتوجّس.. ورفعت عيني بينما تحركت للأمام قليلًا لتتبيّن أمامي صورة شككت في وجودها.. العرائس جميعهن عاريات.. يتحسّسن جسدهن لتنظيفه بتمعّن، منهن من تتجاهل أصوات الحرس من حولها ومنهن من تفاعلت مع تعليقاتهم القذرة.. هززت رأسي للجانبين لأنفض ما رأيت، وفكّرت بضيق:

– لن أقف بين هؤلاء! لن يحدث!.

تحركت بتوجّس، لا أريد لأحدهم أن يلحق بي ليراني أخلع ملابسي.. فأين أذهب؟

البركة واسعة، فأخذت طريقًا بعيدًا لأصل لآخرها؛ حيث يوجد كهف صغير مظلم، فكّرت في خلع ملابسي هناك ثم النزول للماء النائي بمنتهى الهدوء لأنظف جسدي بأسرع ما لدي من سرعة، وحين اقتربت من الكهف اصطدمت بإزالين التي بمجرّد أن رأتني رفعت ذراعيها تخفي جسدها عنّ عينيّ.. وعينيّ ظافر.. فانتفضت أنا مبتعدة عنها متأسفة.. بينما احتلّ تفكيري شيء واحد فقط.. هل ظهر لي للتوّ أنها رأت ظافرًا الواقف بجانبي؟

– هل لك أن تمنع أي أحد من القدوم لهنا؟.

هزّ رأسه وأدار ظهره لي، ليسدّ هذا الكهف الذي دخلت إليه.. أو ليراقب الشقراء التي لا تضع على جسدها إلا ذلك الخلخال الذهبي.. أطلقت ضحكة ساخرة من بين شفتيّ بينما أخلع ملابسي عني... وقلت بتسلّي:

- تعجبه الفتاة ذات الخلخال.. هاه! الطيور على أشكالها تقع...

وأضفت بعقلٍ تائه:

- رغم أني لا أعلم أي شكل هو.. ولا أتأكد يقينًا أي شكل هي!.

انتهيت من خلع ملابسي ولففت الفستان إلى جسدي حتى أعبر للماء، عبرت بجانب ظافر وتركت الفستان أرضًا وببطء وحذر مددت قدمي اليسرى للماء لأتفقّد حرارته.. فبالمرة الأولى كان دافئًا.. أردت التأكد فقط من أنه كذلك الآن.. لكنني الآن صدمت ببرودته! فارتعش جسدي، ولسوء حظّي تعثّرت في فستاني وسقطت بالماء البارد، والذي شعرت بأنني أتجمد من برودته المفاجئة! والأدهى من ذلك، أنني قد أصدرت صوتًا مسموعًا التفت له الجميع، ليروني أنا وإزالين.. عاريتين في زاوية نائية.. وقد كانت هذه فرصة ذهبية للعديد من الحراس الذين فضحتهم نظرات عيونهم الخبيثة!

مسحت إزالين على وجهها بخيبة أمل.. بالطبع كانت تأمل أن تبقى وحدها دون أن يكشف مخبأها المرئي أي أحد... كما كنت أتمنى أنا..

وقبل أن يقترب أي من الحرس شعرت بظافر خلفي -بالماء- يجذبني من ذراعي، ورأيته يجذب ذراع إزالين أيضًا وخبأنا خلف ظهره.. ثم ترك يدينا لتصبح يداه حرّتين، رسم شيئًا على الماء، ثم أخذه بين يديه وقذفه بالهواء أمامه، ليتكوّن جسدان عاريان بالضبط كجسدي أنا وإزالين.. لا.. بل هما مجسّدان لجسدينا نحن! تحرك الجسدان للجهة الأخرى من الماء، صعدت نسخة إزالين من الماء ومدّت يدها لنسخة جسدي، فالتقطتها وخرجتا من الماء، لتتبعهما كل العيون.. وكأنهما نحن! وفي نفس اللحظة رفع ظافر ذراعيه للأعلى وهبط بهما بصورة تدريجية، لنرى ستارًا شفّافًا من الماء يُغلِق الجزء الذي نحن فيه، لتصبح خلوة بسيطة نستطيع فيها الاحتماء من أعين الجميع..

- شكرًا لك...

قالتها إزالين بهدوء هامس وسبحت للجهة البعيدة تحضر أدوات الاستحمام.. فهزّ ظافر رأسه وكأنه يرد عليها.. وأنا؟ فاغرة فاهي بمنتهى البلاهة.. أسترجع بعقلي ما فعله ظافر للتوّ.. لقد خدع الحرس والعرائس.. أكاد أرى حارسين يتبعان -بعينهما- نسختينا المتحركتين للدرج! لا أصدق! كم هو بارع في تلك الخدع الغريبة!

قذفني ظافر ببعض الماء برفق أستفيق، وقال مشيرًا لأدوات الاستحمام:

- أسرعي.. لن ينخدعوا بصورتيكما طويلاً.

هززت رأسي بسرعة وانصرفت عن عينيه.. فبالرغم من أنه لا ينظر لجسدي فإنني محرجة من وجوده.. راقبته بطرف عيني يسترخي في إحدى الزوايا، يلعب بالماء بإصبعه، يرسم أشياء غير مرئية بالنسبة لي.. حتى لاحظت سخونة الماء قليلاً ليصبح دافئًا، بالطبع هو من فعل هذا بتعويذة أخرى غريبة.. وسمعت صوت تنهيدة مرتاحة.. كانت لإزالين..

سبحت ببطء وحذر إلى إزالين وهمست لها متسائلة بغيظ:

- كيف ترين حارسي؟.

نظرت هي إليّ بغرور، ثم أشاحت ببصرها بعيدًا، مولية ظهرها لي، بينما تنظّف شعرها الذي أصبح لونه داكنًا من أثر الماء عليه..

- أجيبي عن سؤالي!.

قلتها بنبرة غير مصدقة لما فعلته الآن.. المغرورة تتجاهلني! فالتفتت بعد أن سمعت نبرة صوتي لتنظر لي وقالت ببطء:

- لا شأن لكِ...

ضربت الماء بيدي بغضب فالتفتت لي هي مذعورة وهمست بحذر:

- لا تصدري الأصوات! لا نريد أن يكشف مكاننا مرّة أخرى بفضلك!.

مسحت على وجهي الجميل بغضب وقلت بتماسك:

- أنتما.. تثيران غضبي!.

سمعت ضحكة ظافر الهادئة.. فالتفت له وتساءلت بنفاد صبر:

- ما الأمر ظافر؟ أخبرني!.

تحرّكت إزالين بالقرب مني، وضعت في يدي أدوات الاستحمام وقالت ببرود:

- من الأفضل أن تبدأي قبل أن تأتي المشرفة.. ستناديننا لتناول الإفطار.

لم آخذ منها الأدوات فسقطت من يدها لتطفو على الماء، والذي لاحظت أنه يجري ببطء ويتحرّك نحو أحد الأركان.. ليسقط ويصرف بعيدًا.. ربما خارج القصر.. فمددت يدي لألتقط الأدوات بملل قبل أن تذهب بعيدًا، وأفرغت قليلًا من سائل الاستحمام على يدي وبدأت في الاندماج، مركزة تفكيري على نظافتي الشخصية مؤقتًا، متجاهلة فكرة نظر ظافر وإزالين على جسدي، أو نظرهما لبعضهما البعض.. لا أعلم حقًّا.. ومؤقتًا شغلت بالي بالماشطة حين فحصت نظافتي، وقرّرت أن لا أتنازل عن كوني فتاة نظيفة، فبالطبع هذا يكون ضمن المستوى الذي تحدّثت عنه إيفي..

مرّ وقت؛ فتحت عينيّ بعد أن صعدت من تحت الماء الذي أعجبتني حرارته، وصعدت بحذر لألف جسدي بمنشفة.. وتفاجأت من ما رأيت.. فكان ظافر يجلس مسترخيًا في الماء، وإزالين جالسة وساقاها يتحركان بالقرب من رأسه في الماء، جسدها ملفوف بمنشفة ورديّة، تنظر له بوِد.. كما يبادلها هو نظراتها.. بأخرى.. غير مرئيّة لعيني بسبب غطاء رأسه اللعين!

- هل لي بتفسير؟.

قلتها وأنا ألف منشفة أخرى على رأسي، بينما أقترب منهما بغيظ، فنظرا إليّ باستفهام، لأقول أنا بنفاد صبر:

- أنتما عاشقان أليس كذلك؟ نظراتكما فاضحة لأبعد حد!.

وأضفت بلهجة تهديد:

- إن لم تخبراني بما أرى سأفضحكما أمام المشرفة!.

زفرت إزالين بقلق ونظرت لظافر وقالت بضعف:

- إلى متى سيظلّ الأمر سرًا؟.

وأضافت بلهجة أشبه بالاستجداء:

- لقد سئمت بُعدَك ظافر!.

{١٢}

= يوم من الجلبة والفزع =

زفرت إزالين بقلق ونظرت لظافر وقالت بضعف:

- إلى متى سيظلّ الأمر سرًا؟.

وأضافت بلهجة أشبه بالاستجداء:

- لقد سئمت بُعدَك ظافر!.

شهقت أنا لقلّة حيائها وقلت بغير وعي:

- حتى أنتِ! حتى أنتِ يا مغرورة! يبدو أن العرائس متماثلات في نقطة الحياء هذه!.

أطلق ظافر ضحكته المتسليّة، فنظرت إليه قائلة بسخط:

- وأنت أيضًا! لمَ تستثني نفسك من القواعد؟ لمَ تحب عروسًا من الممكن أن تكون أميرة؟ هي ملكٌ الأمير فما شأنك أنت؟!.

- وما شأنك أنتِ؟.

قالها ببرود فتجمدت من نبرته، وسمعت صوت ضحكة إزالين المتسليّة الممتزجة ببعض الخجل والقلق.. آه ما العمل الآن! كلاهما يسخر مني رغم غضبي من أمرهما!

- وماذا سيفيدك إن عرفتِ الحقيقة؟.

قالتها إزالين بمرارة بعد أن عادت ملامحها للأسى مرّة أخرى.. فعمّ الصمت للحظة.. وفكرت في ما قالت. لمَ تستفزني رؤيتي للخطأ؟ لمَ ينشغل عقلي بكل تلك التفاهات التي لا تعنيني في شيء؟ تنهّدت وقد سئمت مؤامرات عقلي ضدّي، فتارة يثور ليعرف، وتارة أخرى يطأطئ متراجعًا..

- فقط ابتعدا عن وجهي.. يكفي ما رأيته بالأمس...

قلتها بخيبة أمل.. ربما في ظافر نفسه.. أعتقد أنه ليس كباقي الحرس؛ لكن عندما دقّقت في الأمر وجدت أنني أظن أنه لا يراقب الفتيات، لكنّه راقب إزالين.. وكنت أظنّه لا يشتم ببذاءة، لكن ذلك اللفظ الذي خرج من بين شفتيه في لحظة غيظ من المدرب أثبت أنني كنت مخطئة.. فبالرغم من أنه وصف المدرب بلزوجته في كلمة واحدة مشينة لا يعني أنه على حق.. لا أدري ما بي. للحظة تمنّيت أن أعرف من أنا.. هل كنت خلوقة؟ أم فاجرة؟

رنّ صوت العروس ذات العينين الرماديتين الكحيلتين: «العُهر لا يُنسى!»

أفقت من شرودي على صوت ظافر وهو يقول مقتحمًا جميع خلايا عقلي بصوته العميق:

- إزالين لن تكون للأمير ما حييت...

تنهّدت وقبل أن يستطرد لاحظت ابتسامة إزالين الحنونة والمفاجئة لي..

- لأنها أختي.

قالها لأرفع حاجبيّ ليلامسا خصلة شعري المتسللة من المنشفة.. ضرب قلبي صدري بعنف وشهقت بدهشة عظمى:

- ماذا قلت؟.

هزّ كتفيه وقال بشرود:

- متأكد من أنكِ سمعتِ.. فلا داعي للتكرار.

تنهّد بحرارة وأضاف:

- ولا نريد لأي أحد أن يعرف...

أشارت إزالين لي وقالت بتوعّد:

- إن أفشيتِ السرّ فسأقتلك!.

لمست وترًا حسّاسًا بكلمتها فقلت أنا بصعوبة:

- مجددًا؟!.

ضحك ظافر بتسلّي قائلًا:

- حسنًا لا بأس.. نحن أموات على أية حال.. وأنا واثق من أن إليونورا لن تخبر أحدًا...

رفع غطاء رأسه قليلًا لأتبين عينيه المهددتين وصوبهما إليّ قائلًا بغموض:

- أليس كذلك؟.

ابتلعت غصّة في حلقي أثر نظرته الرماديّة العاصفة تلك.. وقلت بتوجُّس:

- أجل.. كأنّي لم أسمع شيئًا أصلًا!.

أعاد غطاء الرأس كما كان، وخرج من الماء، ورفع كفّيه أعلى رأسه بقليل وأمسك باللاشيء، ومرّره على ما يرتدي، لتجفّ ملابسه كما كانت.. وبكشفه لقدرته في التحكّم في عنصر آخر من عناصر الطبيعة أفقت من شرودي على صوت إزالين الذي بدا حنونًا مرّة أخرى:

- يمكنني فعل هذا الآن.. اشتقت له جدًا.

اقتربت من ظافر واحتضنته بعفويّة لتتسع عيناي رغمًا عني لتتكون أمامي صورة عاطفية للغاية.. خفق قلبي وتساءلت بطيبة:

- هل هو شقيقك حقًّا؟.

وتدخّل عقلي المعتاد على تلك الكذبة فاستطرد:

- أم هو مجرد سبب لتفعلا ما تريدان؟.

ربّت ظافر على ظهرها فلم أتمالك نفسي من الابتسام بغرابة.. لم أتوقع منه أن يلعب دور الأخ بينما هو ببساطة.. ظافر! الغامض قليل الكلام، الذي لا يضحك إلا ليسخر من المواقف من حوله.. ولا يبتسم إلا لنفسه.. هل يبتسم الآن يا ترى؟ سئمت من غطاء الرأس هذا.. أريد رؤيته الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.. لدي فضول كبير لهذا!

- ماذا عن غطاء الرأس.. هل لأنكما توأمان؟.

ابتسمت إزالين وأشارت إلى عقلها قائلة:

- عزيزتي لا تتعبي نفسك بالتفكير!.

- عزيزتك؟.

قلتها باستنكار وراقبتها تبتعد عن صدره مبتسمة.. وسرعان ما خفتت ابتسامتها حين سمعت صوت جليندا المميّز:

- وقت الطعاااام!.

ابتعدت عن ظافر وعادت متحفّظة كما كانت، وأشارت لي على مكان النطاق الشفّاف الذي أحاطنا ظافر به، لأجده قد بدأ بالتلاشي.. ففهمت قصدها.. يجب علينا الإسراع لنكون أول الموجودات بالطابق.



أخرجت إزالين صندوقًا خشبيًا كبيرًا من تحت فراشها، أراها من على بعد.. فنظرت أنا الأخرى تحت فراشي لأجد صندوقًا مماثلًا، وآخر تحت سرير إيفي؛ يبدو أن لكل عروس صندوقًا خاصًا بها. أخرجت الصندوق وفتحته لأجد العديد من الملابس الجديدة وأدوات التجميل، مرآة أنيقة كذلك.. ابتسمت وقمت بتبديل ملابسي بسرعة مغلقة ستار الفراش من حولي، كي يبقى جسدي سرًّا لن يكتشفه إلا شخصٌ واحدٌ فقط.. وأتمنى من كل قلبي أن يكون الأمير..

وضعت الخادمات طعام الإفطار بأدب على المائدة المستديرة بوسط الغرفة، لتأخذ كل واحدة فطورها للسرير، أو تأخذ وسادة تفترش بها الأرض جالسة.. كل الأماكن متاحة، فالطابق مِلكٌ للجميع..

ابتسمت لإيفي التي أتت لتجلس بجانبي، فلاحظت أنها تشير لي بعينها على من تجلس بجانبي.. فقلت بلهجة عاديّة:

- أحتاج لتمضية الكثير من الوقت مع إزالين.. لحفل الأمير كما تعلمين!.

خرجت منها ضحكة محرجة وهمست في أذني:

- إنها مغرورة!.

لم تكن اللهجة هامسة كما ينبغي، فوصل صوتها لمسامع إزالين التي ابتسمت بغرور فجحظت عينا إيفي وكأنها تقول لي: «أرأيتِ؟»

جذبتها من ذراعها لتجلس بجانبي، ففعلت مرغمة، نظرت لإزالين بينما وضعت قطعة من الخبز في فمي لأجدها مطرقة الرأس بفزع، وظافر ناظرٌ إليها.. فهمست له بعقلي:

- هل تتحدّث معها الآن؟ لِم هي مفزوعة هكذا؟.

رفع ظافر عينه عنها ونهض قائلًا:

- هناك حالة طارئة.. ومن المتوقّع أن تحدث جلبة.. لذا تماسكي.

واستطرد:

- هذا ما كنت أقول...

وفي نفس اللحظة حضرت المشرفة جليندا رغم انصرافها منذ قليل مع الخادمات، تنحنحت وقالت بصوتٍ عالٍ كاد أن يصم أذني:

- هناك ما يستدعي انتباهكنّ يا جميلات.

وقفت العرائس بتأفف واضح، لكنّه سرعان ما تحول رد فعلهنّ للغرابة والتساؤل حين ظهر جسدان متناقضان من نفس الجنس؛ رجلان. الأول بهيئة عظيمة من الوقار والهيبة، يغزو اللون الأبيض شعره ولحيته الطويلة كما هو لون جلبابه الذي استتر تحت وشاح باللون الأزرق المطعّم بالذهبي، الأزرق والأحمر، أما الثاني فهو رجل في سنّ الأربعين، يحتفظ بقوّة بنيته فبدا رياضيًّا ذا طولٍ فارع وعرضٍ مخيف، بملامح جامدة ووجهٍ شبه مربّع زيّنه شعره الكثيف الأشقر الممتزج ببعض الشعرات الفضيّة. رأيته يتنحنح فاقتربت منه جليندا بأدب وتقدير، ليهمس هو في أذنها بشيء ما.. فهزّت رأسها بترحيب، ثم قالت:

- نريدكنّ في صفّين.

تركت كل عروس منّا ما بيدها ومسحت يدها، وبسرعة كنّا في صفّين متقابلين، كل عروس منّا تنظر للعروس المقابلة لها بتوجّس وقلق، عبرت جليندا بين الصفّين وهي تنظر في وجوهنا بغموض، لم أتبيّن أي شيء من ما ترنو إليه، فتنفّست بهدوء وتمالكت أعصابي التي اتّضح أنها ليست كقوّة ملاحظتي، رأيت الرجل العجوز يتحرّك بخطواتٍ متّزنة خلف جليندا، وتبعه الرجل الآخر، حتى توقفت جليندا أمام فتاة ما.. وبمجرّد أن وقفت أمامها ونظرت في عينيها أدركت أنا ما يحدث من حولي.

أشاحت العروس بعينها بعيدًا، وبالرغم من أن عينيها يغطيهما شعرها الأسود بخصلاته -الفاحمة الطويلة- بدت مرتبكة للغاية، وهذا ما حاولت إخفاءه حين نطقت جليندا باسمها بغموض، فردّت عليها ببراءة مصطنعة:

- هل هناك خطبٌ ما سيدة جليندا؟.

أحسست بظافر قد أتى ليقف خلفي، كما فعل كل الحراس مع باقي العرائس حين رفع العجوز عصاه الخشبية العتيقة -التي يستند عليها- للأعلى.. لم ألتفت لظافر، بل أمعنت النظر في الحرس أمامي، خاشعين، مطأطئي بصرهم للأسفل في هدوء، يبدو الارتباك على معظمهم، لأستشفّ أنا أن ذلك الرجل ذو شأن عظيم بالنسبة لهم.

انتبهت وأفقت من شرودي حين شهقت عدّة فتيات بتوّجس، وقالت إحداهنّ بريبة:

- لماذا كل هذا العدد من الرجال فجأة؟.

وأشارت حولها بخوف، وأعتقد أنني رأيت الفتاة التي تقف أمامي تكتم صرختها حين رأت ظافرًا.. بالطبع أخافها بهيئته العظيمة والتفافه بالسواد عكس باقي الحرس، وقبل أن تعم الجلبة من أي عروس أخرى، طرق العجوز ذو الهيبة بعصاه أرضًا لتصمت كل الأصوات، حتى إنني حاولت الحديث فوجدت أن صوتي قد اختفى تمامًا.. رفعت حاجبي بدهشة حين التفت الرجل لي وهزّ رأسه، وقبل أن أفعل أي شيء وجدت ظافرًا ينحني قليلًا وهذا ما عرفته من ملامسة غطاء رأسه لرأسي وأتى صوته العميق خافتًا يقول بأدب:

- سيّدي...

ابتسم الرجل لكن سرعان ما اختفت ابتسامته ليقترب من جليندا التي تقف أمام تلك العروس التي كادت أن تؤرّق ليلتي بالأمس هي وحارسها لولا تصرّف ظافر.. همس الساحر بشيء ما في أذن الرجل الأربعيني، فهزّ رأسه بعد أن أخذ الأوامر، وعبر بين العرائس بحذر ليمسك بحارس الفتاة بقوّة جعلت الحارس يصرخ معترضًا، فالتفت أنا لظافر بذعر لأجده يهز رأسه نفيًا وكأنه يرفض أن يخبرني بأي شيء، فعدت لأتابع الموقف، جذبت جليندا العروس لتقف بجانب حارسها أمام العجوز وقالت بقسوة:

- لقد وشت بكما إحدى العرائس، رأتكما في موقفٍ مُشين.

حاولت العروس التحدّث فخرجت منها كلماتها بعيدة بعضها عن بعض، وظهر الاختناق عليها حين حاولت الصراخ.. فاقترب منها حارسها مبعدًا عنه قبضتي الرجل الأربعيني القوي وقال مدافعًا عنها:

- ليس صحيحًا! ليس هذا الكلام إلا مجرد حسد وبغض من زميلاتها!.

دمعت عين العروس وهزّت رأسها بقوّة لينتفض شعرها عن عينيها، لينكشف ابتلالهما للعيان..

- الواشية لا مصلحة لها في الكذب، فاختيارات الأمير تخص الأمير فقط، لا تتلاعب بها مجرّد فتاة!.

قالتها جليندا ردًّا على الحارس الثائر، ثم أدركت ما قالته، وبه استخفاف بالأمير.. فاعتذرت بخفوت وأطرقت برأسها ضامةً كفّيها تخفي ارتعاشهما، ليقول الرجل الأربعيني:

- كلمات كبير الحرس أوامر تنفذ.

قالها بلهجة رسميّة قويّة بينما ينحني برأسه أمام كبير الحرس العجوز.. والذي بدأ بالكلام لأول مرّة بكلماتٍ بسيطة بطيئة:

- إقصاء من خدمة ومنصب.. وتأديب.

لم أتفهم أنا والعرائس معنى كلماته المتفرّقة بالضبط، وكتمت جليندا شهقتها بيديها المكتنزتين المرتعشتين، وهزّ الرجل القوي رأسه قائلًا برسمية:

- عُلِم...

وحلّ قبضة يده من معصمي الحارس، وقبل أن يتحرّك أدار جسمه إليه، وفي حركة مباغتة أمسك بمؤخرة عنقه وضغط عليها للأسفل، متمتمًا ببعض الكلمات

الغريبة كالتي يقولها ظافر، ليصرخ الحارس بقوّة وغيظ، لكن سرعان ما خفتت صرخته المغتاظة لتسكن تدريجيًّا بوهن، حتى إنه سقط على ركبتيه غير القادرتين على حمله أكثر من هذا.. وقبل أن أدرك ما حدث صدح صوت الرجل القوي ليهزّ الطابق كله بقوله:

- تم إقصاء هذا الحارس من خدمة العروس المذنبة.. وسيحال للتأديب.

تنحنحت جليندا واقتربت منهم بحذر، وقالت هي بدورها، وبدت مرتبكة قليلًا:

- وتم إقصاء العروس المذنبة من منصبها.. لتعمل وفقًا لأوامر الأمير بعد تلقّيها نصيبًا من التأديب.

سقطت الفتاة مغشيًا عليها، فحملها الرجل القوي على ظهره بحركة واحدة، بينما دفع الحارس، أو ما كان كذلك، بذلّ ليتقدمه، ففعل الضعيف مرغمًا.. تقدّمتهم جليندا لتفسح الطريق، وتبقّى العجوز.. لوّح بعصاه لتعود أصواتنا مرّة أخرى.. فهذا الرجل هو ساحر.. ساحر كهل وكبير كفاية ليعرف متى يستخدم سحره!

- بالحكمة والذكاء تأتي السلطة.. لا بالفسق!.

قالها العجوز متمالكًا أعصابه، وأولى ظهره لنا لتظهر عصاه التي يمسكها بكلتا يديه خلف ظهره، وقال قبل أن يصل للدرج:

- راقبوا أنفسكم.. أفكاركم فقط هي التي ستظلّ محجوبة؛ فهي لكم...

شهقت عدّة فتيات وجلسن أرضًا بوهن.. وجلست أنا بذهول من ما رأيت.. لقد سلبوا قوّة الحارس.. وأخذوا عروسًا من بيننا بتلك السهولة!

أفقت على صوت أنين، لأجد فتاة كفها قريب جدًّا من وجهي، وما يصدّه شيء من صفعي إلا قبضة يد ظافر القويّة على معصمها، وصوته يقول بهدوء ما قبل العاصفة:

- تراجعي فورًا!.

مدّ يده لي لأضع يدي بها، فخبأني خلف ظهره وقال بشراسة لتلك الثائرة غضبًا:

- ما تفكرين به الآن ليس صحيحًا يا صاحبة الهواجس!.

رفعت عيني لأرى من يحدثها ظافر بتلك الشراسة، لأجد أنها الفتاة ذات العينين الرماديّتين برسمة الكحل الغريبة. أصدرت زمجرة غاضبة قائلةً:

- ابتعد عني! هي الواشية! هي من وشت بها!.

تقدّم حارس الفتاة ليجذبها من ذراعيها للخلف، وظلّت تضرب الأرض بقدميها قائلة وهي تنظر لحارسها بغضب:

- لا تمنعني! أنت من لفت انتباهي إلى ما فعلت بالأمس! لقد رأتهما بالفعل!.

وصرخت بجنون وكادت أن تصم كلماتها أذني:

- أيتها الحقيرة!.

استقمت واقفةً بعد أن كنت منبطحة أرضًا خلف ظافر، لأجد أن إيفي قد اقتربت مني هي وإزالين، تنظران لي بتساؤل.. فقلت أنا دفاعًا عن نفسي:

- لقد رأيتهما بالفعل.. لكن لم أشِ بهما! أنا لست واشية!.

جذب كاليب إيفي بعيدًا كي لا تتأذى، فتركتني مرغمة وعيناها متعلقتان بي.. وفي لحظة ملعونة أخرجت العروس المخيفة سبّة لي، شهقت لها العديد من الفتيات، وأضافت بغضب:

- لقد فعلتِ السيئ.. فانتظري الأسوأ يا فتاة!.

رفع ظافر رأسه لحارسها قائلًا:

- أرى مستقبلًا أسود يحيط بفتاتك بكل وضوح إن استمرت في هذا الهُراء.. أصلح سوء الفهم هذا قبل أن أجعلك تلحق بهم وهي معك.. الآن!.

وقال آخر كلمة بشراسة.. لتغطي العديد من العرائس آذانهنّ من صوته المرعب، ليقول الآخر ببرود:

- اطلب ذلك من تلك العروس المختبئة خلف عباءتك! هي الفاعلة ولا شأن لي أنا!.

وترك يد فتاته وقال:

- نفثي عن غضبك عزيزتي!.

صرخت الفتاة بجنون واقتربت مني مجدّدًا لأخرج أنا وجهي من عباءة ظافر قائلة بحزم:

- إن اقتربتِ مني فسوف أقتلك!.

لم أدرك تفاهة ما قلت إلا حين ضحكت الفتيات.. ما بال هذا التهديد؟ ألا يوجد ما هو أفظع من الموت لنهدد به بعضنا بعضًا؟

لم ألحظ بالطبع تلك الابتسامة الخبيثة على وجه إحداهنّ.. وقبل أن تتخذ الفتاة أي فعل تندم عليه دلفت جليندا للغرفة مهرولة بجسدها الممتلئ بصعوبة قائلةً بحزم:

- ماذا حدث لكل هذه الضوضاء؟ الخادمات يشكين من أن صوتكم عالٍ للغاية!.

صرخت الفتاة بغضب:

- تبًا لهنّ ولها! فتلك الواشية تستحق الإقصاء!.

نظرت جليندا لوجهي المرتعب الذي أشارت عليه صاحبة مقولة «العُهر لا يُنسى» فقالت بغير تصديق:

- أتتهمين إليونورا؟ تلك المستجدّة الرقيقة؟ لا بالطبع ليست هي!.

شعرت بيد ظافر تربّت على ظهري فاستقمت وقلت متحدّثة لجليندا:

- تلك العروس المجنونة ستحاول إيذائي! أخبريها من الواشية إن كنتِ تعلمين!.

- لن يؤذيكِ أحد!.

قالها ظافر بحزم لتضحك جليندا بتوتّر بعد أن خافت من نبرة ظافر قائلة:

- لا بأس أيها الشاب لن يؤذيها أحد فعلًا.. فالواشية ليست فتاة مستجدّة.. بل هي من أوائل العرائس بالطابق.

اختفت ابتسامة فتاة ما.. وكانت الابتسامة الخبيثة، لتقول جليندا بعد صمت الجميع:

- لن أشي بها.. لكن بالطبع ليست إليونورا!.

قالتها مشيرة إليّ فتنهّدت وابتسمت لها بامتنان، وما زاد هذا الكلام الفتاة الغاضبة إلّا جنونًا، لتقفز أمام جليندا تمسكها من تلابيبها قائلة:

- قولي لي من هي!.

عمّ الصمت لحظة، وترددت جليندا من تعبيرات وجه الفتاة الغاضبة وقالت بتردد:

- لقد طلبت حمايتي لذا ليس بيدي شيء!.

وقبل أن تثور العروس مجددًا أتى صوتٌ ما مألوف بالنسبة لي، قائلة بلهجة ثائرة:

- الرخيصات مصيرهنّ الإقصاء، التأديب والتعذيب وأيضًا الدفن أحياء حتى يتوقّف قلبهنّ رعبًا!.

التفتت جميع العيون إلى الفتاة المتحدّثة، لأجد أنها نفس الفتاة التي كانت تتناقش بحدة بالأمس.. كيف لم تشك بها!

- أنتِ مجدّدًا؟ واضح أن كلامي معكِ بالبارحة لم يأت بنتيجة!.

تقدّمت الفتاة الثائرة أمام جليندا وأشارت على الفتاة ذات العيون الرمادية وقالت:

- تلك الفتاة تستحق الإقصاء.. وكي لا أكون متشددة أو منحازة لعروس دون الأخرى؛ أطالب بكشف عذرية لكل الفتيات، كما يحدث مع تلك الفتاة بالأسفل الآن، وستكون أنا أول من ستخضع لهذا الكشف!.

نظرت الفتيات بعضهن لبعضٍ بخوف، فصاحت فيها الأخرى بصوتٍ مرتعش:

- كيف تجرؤين! أنتِ تهينين عرائس الأمير! و.. وتستحقين العقاب!.

تنهّدت جليندا وقالت بنفاد صبر:

- بل أنا التي تستحق كل هذا.. أنا من أصّررت على أن أكون مشرفة عليكنّ.. كم هذا متعب!.

التفت لها بترقُّب فصمتت تفكر.. بالطبع ما حدث منذ قليل ليس سهلًا.. لقد أمسكوا بفتاة واحدة وأقصوها مع حارسها، فلمَ لا نكشف باقي المصائب دفعة واحدة؟ تنهّدت وقالت بهدوء:

- قفن بنظام أرجوكن.. سآتي بالحكيمة ونبدأ بالفحص...

ونظرت للفتاتين في عينهما وقالت بأسف:

- قفي أنت وهي في أول الصف.. وتحملا المسؤولية.

خرجت جليندا لتشهق عدّة فتيات في ذعر، بكين وانتحبن بحسرة؛ سينتهي أمرهنّ قريبًا! والفتاة ذات العيون الرمادية اسودّ وجهها وسقطت في مكانها، دار الحرس المذنبون في كل مكان، فاقتربت من ظافر، أمسكت بذراعه وقلت بقلق:

- لمَ هن خائفات هكذا؟.

وصرخت بذعر:

- هل هذا طبيعي؟.

نظر هو حوله بغرابة وقال بشرود:

- الأمر أسوأ من ما توقّعت.. هذه المجموعة أسوأ من باقي المجموعات السابقة.. جيل العرائس هذا يضم العديد من الفتيات الحمقاوات!.

جلست أرضًا بقلق، ليس لأنني مذنبة، بل لهذا الخوف الفطري الذي انتقل لي من الباقيات، فاقتربت مني إيفي تبكي بينما تخبئ وجهها في ذراعي، وإزالين تجلس ملتصقة بي، كي تستمد الطمأنينة مني ومن ظافر، بدلًا من حارسها عديم النفع.. فهمست أنا لإيفي:

- لا تخافي.. أنتِ لست منهنّ أنا واثقة...

رفعت عينيها البريئتين لي وقالت بخوف:

- أشعر بأن هذا لن يمرّ على خير.. هذا اليوم سيّئ!.

التفت ظافر للمسكينة الباكية بشرود.. وردّد ببطء:

- يراودني نفس الشعور.

انقبض قلبي وقلب إزالين من ما قال.. وصمتنا وبقينا جالسات في مكاننا، نحاول قدر الإمكان عدم إفساد ذلك النظام غير الموجود، وعدم إضافة أي شيء لتلك الجلبة السائدة من حولنا..

أتت الحكيمة بأدواتها الطبيّة، أُغلق باب الدرج المؤدي للطابق وأيضًا النوافذ، ليصبح الجوّ حارًا متوترًا رغم الصقيع بالخارج؛ استخدمت الحكيمة أقرب سرير للمستراح للكشف، وطلبت منّا الوقوف في صف واحد، فطال الصفّ وطالت وقفتنا ورعبنا وهواجسنا.. الجميع يقف بصمت، وأقف أنا مستندة على قدميّ بصعوبة، ويقف ظافر بجانبي بثبات، مديرًا وجهه للجهة الأخرى تنفيذًا لما طلبت جليندا من الحرس، وأصبح الحرس في منتهى الأدب.. فالكل يخاف من الإقصاء والتعذيب.. لم يذكر لي ظافر أيًا من أساليب التعذيب التأديبية تلك فتلقّى عقلي الأمر بمهارة، وبدأ يصوّر لي كل الأساليب من الحياة، ليضاعف رعبي أضعافًا.

وقعت العديد من العرائس، منهن من تدّعي ومنهن من خارت قواها بصدق.. أسرعت الحكيمة بالكشف وصنّفت الفتيات.. العفيفة على يمينها والفاسقة على يسارها.. وقبل أن يأتي دوري في الكشف، سمعنا صوت فتاة تشهق الهواء بمنتهى الضعف، من اللاتي يقفن على اليسار، فتوجّهت خليلاتها يساعدنها على الوقوف وتمرير الهواء إليها، حتى حارسها أسود الوجه حاول مساعدتها.. لكن.. دون جدوى.. وسمعت من الحكيمة أثناء كشفها عليها أنها «انتهت».. ليفسّر لي ظافر بمنتهى الهدوء كي لا يفزعني:

- توقّف قلبها.. هي الآن مجرّد جسد فارغ، ستذوب أعضاؤه الداخلية قريبًا بعد أن تتبخّر دماؤه...

شهقت بفزع وتابع هو ما يقول كي لا يتحدث في هذا الموضوع مرّة أخرى:

- من يتوقّف قلبها تصبح من عرائس البرج العالي.. الموجود بالقلعة...

لاحظت المرارة في نبرته وهو يستطرد:

- يوجد العديد من الفتيات والسيّدات هناك.. وتختلف حالة كل واحدة منهنّ.. وهنّ الأقل حظًّا.. فلقد تم نفيهن من الحياة ولفظهم الموت.. ليبقوا هكذا.. كالتماثيل الصمّاء.

تخيّلت ما يقول عليه.. فتذكّرت غرفة الحياكة ذات التماثيل متقنة الصنع -التي لا رؤوس لها- حين قابلت الماشطة أول مرة.. ولا إراديًا استبدلهم عقلي بتماثيل ذات رؤوس فتيات.. عرائس أعرفهم، كتلك العروس التي توقّف قلبها للتوّ.. ودقّ قلبي بقوّة حين استرجعت نبرة ظافر حين قال:

- عرائس البرج العالي.

فتحرّكت خارج الصفّ بسرعة وتوجّهت للشرفة، فتحتها على مصراعيها ونظرت للأعلى، لأقصى اليمين وأقصى اليسار حتى تبيّن لي شيء ما من بعيد.. برج عظيم، كالسهم المشير للسماء الداكنة ذات القمر المتغطرس.. ففرّت دمعة من عيني شفقة على من به.. وضربت قلبي بيدي اليمنى كي يكف عن الدقّ بعنف، وهمست له:

- اصمد معي أرجوك؛ لكن دون أن تخيفني بدقّاتك!.

وحين التفت وجدت ظافرًا يهمس لي بشفقة:

- حان دورك...

هززت رأسي بتردد وتحركت ببطء نحو الحكيمة التي استقبلتني بنظرة متفحّصة لملامحي، حاولت أنا أن أكون هادئة قدر المستطاع، لكن الجوّ العام كان مريبًا.. تصببت عرقًا بفعل التوتّر الذي غزا جسدي بمنتهى الوحشية، وحين اقتربت مني مساعدات الحكيمة ليخففن ملابسي ويمسكن بي سرت قشعريرة في جسدي.. فأغمضت عيني.. وأنا أحاول صرف ذهني عن أي شيء سيئ يمكن أن يحدث.. تنهّدت وشهقت أنفاسًا مرتعدة غير منتظمة.. وقلت في عقلي:

- كوني شجاعة.. من أجل إيفي الصغيرة.. ومن أجل باقي العفيفات.. أنتِ منهم فلا داعي للقلق...

وفي لحظة سمعت صوت ظافر يغزو تفكيري، ليقول بصوته العميق:

- أتعرفين معنى اسمك؟.

صمت مشدوهة من ما قال.. هل حقًّا يسألني في تلك اللحظة بالذات؟ ألم ير وقتًا أنسب من هذا؟ لكن سؤاله ذكّرني بما قالته إيفي بصوتها الناعم:

- إليونورا... معناه الضوء الجميل والدافئ.

ليضيف هو بصوته الذي تخلل كل خلايا جسدي بعذوبته:

- معناه ضوء الشمس...

هدأت أنفاسي وقد اقتحمت عقلي صورة الشمس وقت الشروق، وهي تفرد أشعتها على صفحة البحر الزرقاء لتصبغها بلونها الخجول في بداية النهار، فارتسمت ابتسامة مسترخية على شفتيّ وسقطت من عيني دمعة حنين.. كم أشتاق لهذا المنظر.. كيف تذكّرته يا ترى؟

رأيت نفسي في هذا المشهد، أغرس قدميّ الحافيتين في الرمال الناعمة لتغوص بمنتهى الحنان والدفء.. وسمعت صوت بعض العصافير تزقزق.. كما سمعت صوت موسيقى.. وقتها تداخل صوت ظافر مع الذكرى ليقول:

- هذا ما أتى ببالي حين رأيت جمالك لأول مرّة.. فهذا الاسم يليق بكِ حقًّا.

فتحت عيني بغير فهم، لأقابل نظرة ظافر المطمئنة، وقد أزال غطاء رأسه قليلًا ليكشف عينيه التي بدا لونهما دافئًا للغاية بطريقة غريبة.. فهمست بداخلي بغير فهم:

- حين رأيت جمالي؟!.

لمحته يومئ بهدوء وقال وصوته يدور في رأسي ليسبب لي خدرًا مميّزًا:

- كنت أنتظرك.. أنتظر تلك الفتاة الاستثنائيّة التي تختلف عن الباقيات.. فوُهبت لكِ حارسًا من قبل أن أراكِ.

تنهّدت براحة وقد سرت بجسدي أثر كلماته المهدئة للأعصاب.. حتى سمعت صوت الحكيمة تقول:

- أنتِ بريئة يا ابنتي، يمكنك النهوض الآن.

قالتها لتجذبني فتاتان من ذراعيّ وتساعداني على ارتداء ملابسي، وقتها تعلّق بصري بظافر وهمست له بغير فهم:

- أنت من ذكّرني بالبحر.. ومشهد شروق الشمس؟.

خُيّل لي أنني رأيت إيماءته.. فابتسمت وهمست بامتنان حقيقي:

- أشكرك!.

انتهى الكشف على إزالين وإيفي بسلام، كما انتهى الكشف على باقي الفتيات، لينتهي الأمر بوجودي مع رفيقتيّ وحرّاسنا، الفتاة ذات قصّة «الرقصة الأخيرة»، والأخرى الثائرة للعفّة التي تعذبنا بسبب اندفاعها الأهوج، بالإضافة لعدد قليل من الفتيات الأخريات.. فقط!



لم نأخذ درس الفروسية كما لم نكمل إفطارنا، بل ارتدينا ملابس ثقيلة لنشاهد ما يحدث بالأسفل كما أخبرتنا جليندا.

ارتديت العديد من الملابس بعضها فوق بعض وختمت مظهري بعباءة سوداء كبيرة وثقيلة، تشبه ما يرتدي ظافر.. تممت على مظهري كما فعلت العرائس المتبقيات بهدوء.. ووقفت خارج القلعة؛ الهواء يضرب وجهي بعنف فرفعت غطاء الرأس الأسود إليّ ونظرت لظافر قائلة بضيق:

- كيف تسيطر على ما ترتدي وسط هذه الرياح الهوجاء؟ ألا تسأم من ضبط هيئة ما ترتدي كل ثانية أو اثنتين؟.

ضحك بهدوء وأحكم إغلاق عباءتي عليّ لتكف عن الرفرفة بشكلٍ ملحوظ، لأدرك أنه قد سحرها بفعلٍ من أفعاله الغامضة، فتنهّدت وأمسكت بيد إيفي الباردة للغاية.. فاحتضنتها لأمدّها بالدفء ولأستمد منها القليل من أفكارها البريئة، لتبدل هواجسي ولتهدئ الطنين بعقلي، وفجأة سمعت صوت بوق عاليًا، فانتبهت لأجد رجلًا ينفخ في البوق ثم يبسط رسالة في يده، يقرأ منها قرار الأمير الذي اتخذ سريعًا.. ابتلعت غصّة في حلقي حين جاء التأكيد على تعذيب كل العرائس المذنبات وحرّاسهنّ.. فنظرت حولي أتفقد كل جزء من المكان الذي نقف به.. فنحن نقف بحديقة القلعة، لكن هي أشبه بغابة.. مخيفة بظلمتها التي لا ينيرها إلا طاووس مستدير مستنيرٌ في السماء ومصابيح يدويّة بالأرض، القلعة سوداء من عتمة الليل.. والقلوب واجلة؛ الوجوه المذنبة سوداء، والأخرى بيضاء شاحبة بشحوب الموت، تخشى ما سوف يحدث بعد دقائق.. معظم العاملين بالقصر أتوا ليشهدوا هذا القرار، الماشطة، المشرفة جليندا، كبيرة الطهاة ميلدا والحكيمة كذلك، وعلى رأسهم كبير الحرس العجوز ومساعده القويّ، أيضًا تقف الخادمات في صفٍ واحد بزيّهن ذي اللونين، ويقف الخدم ذو الملابس الباهتة في صفٍ آخر، يشهدون الحدث ليعتبروا رغم أن الخدم لا يلقون الخادمات إلا نادرًا، لكن إن وصل أحدهم لمكانة أعلى ذات يوم يجب أن تكون تلك الذكرى راسخة بعقله.. ذكرى رؤية العرائس والحرّاس السابقين، معلّقين من أيديهم وأجسادهم تذهب وتأتي كورقة في مهبّ الريح، سيبقون هكذا لليوم التالي، بوجوههم المغطّاة، فإما أن تأكلهم الوحوش المفترسة ليلًا، وإما أن يفتك بهم البرد، أو يتوقّف قلبهم أثناء تخيّل أي شيء من ما سوف يحدث في ما بعد..

سمعت أن من ينجو منهم من الحرس السابقين سوف يعمل بمدبغة الجلود.. وأن من ستنجو من العرائس السابقات ستعمل في تنظيف الحظائر القذرة، مع كنيتهم الجديدة.. كونهم عبيدًا... لا يحق لهم تناول الطعام إلا في أوقات قليلة حين يتبقّى أي فضلات من الخدم، لا راحة لهم، يفعلون أي شيء يُطلب منهم..

حتى ولو كان بلا نفع ومقرّرًا فقط لإنهاكهم عقليًا وجسديًّا.. سمعت صوت فتاة تصيح باستجداء، لكن كبير الحرس أخرس صوتها.. واتّسعت عيناي حين اقترب رجلٌ قوي الهيئة منهم، حاملًا سوطًا أسود شديد الهيئة، جلد كلٌّ منهم على جسده عدّة جلدات، فاهتزّت أجسادهم ألمًا بدون أي صوت من أفواههم.. فدقّ قلبي بعنف، وشهقت الهواء بصعوبة ومعدتي تؤلمني من مظهرهم البائس في ملابسهم المهترئة الذي يزيده الظلام بؤسًا.. وقلت لظافر باستجداء:

- اسلب مني حاسّتي السمع والبصر حتى ينتهي الأمر.. لن أستطيع الاحتمال أكثر!.

ربّت على كتفي وهمس بالقرب من أذني:

- تماسكي.. دقائق وينتهي كل شيء.

ضغطت على يده الموضوعة على كتفي وهبطت على ركبتيّ بضعف بعد أن خذلتني ساقاي وقلت باستجداء:

- ظافر أرجوك!.

انحنى ليجلس على ركبتيه بالقرب مني لتشاهدنا إزالين بغرابة من تحت عباءتها الزرقاء كلون عينيها، وسمعته يقول لي مشجّعًا:

- إن شاهدتِ هذا العذاب سيهون كل ما هو آتٍ.. أريدك قويّة إليونورا.. كوني قويّة.. واصمدي وتطلّعي للأعلى.. دومًا.

نظرت له بتيه، فأشار برقبته للأعلى جهة اليسار، فنظرت لما يشير إليه، لأجد شخصًا يقف بأعلى طابق -وهو أسفل برج العرائس بقليل فقط- ينتشر الضوء على ملابسه الفخمة وعلى تاجه المرصّع، لكن وجهه خفي عن العيان بسبب سقوط ظل التاج عليه، يقف بعظمته ليشاهد الحدث، يرى من خانوه قبل أن يلتقي بهم.. يشهد الحدث ولا يغفر لهم أبدًا..

- الخيانة داء لا دواء له إلا البتر، والإقصاء بتر...

قالها ظافر فتلاءم قوله مع أفكاري، فقلت مشدوهة بهمس:

- هل هذا هو؟ هل هذا هو سمو الأمير؟.

رفع ظافر رأسه إليه وقال ليصب أفكاره بعقلي بلهجته العميقة التي شابها بعض من الغموض:

- الخيانة داء.. والانتقام هو البتر...

اتّسعت عيناي بذعر لأثر كلماته بينما يساعدني هو على النهوض، ورددت بغير فهم:

- انتقام؟.



{١٣}

=ما بين اليقظة والنوم=

بعد مرور الوقت الذي بدا من أكثر الأوقات صعوبة علينا جميعًا، جلسنا صامتين حول المنضدة الأرضية، نظرت حولي أحاول تذكّر أي وجه مألوف لي بعد أن رحلت أغلب المذنبات، لأجد أنني مع إيفي، وإزالين، والفتاة صاحبة الحكاية المرعبة عن قابضي الأرواح وبعض الوجوه الأخرى المألوفة.. تنهّدت ضيقًا وذهبت لفراشي.. لا أريد الجلوس معهم.. أكاد أجن! أشعر بأن شخصًا ما سيصرخ مِن ما به من فزع.. فما حدث هذا هو مسّ كبير لكرامتنا، ولن أنساه أبدًا... مهما حدث!

أوقفني ظافر وأشار على زاوية بعيدة نسبيًّا من الطابق -وهي بالقرب من النافذة- قائلًا:

- لمَ لا تأخذين فراشًا آخر بجانب إزالين؟ فالعديد من الفتيات بالقرب منها قد رحلن...

فهمت من اقتراحه أنه يريد توفير الوقت في حراستنا معًا، فوافقت، ليس لأنني فقط أريد التقرّب منها من أجل رقصة عيد مولد الأمير، بل لأن مكاني بات يبعث لي ذكريات الفحص والفتيات اللاتي توقّف قلبهن.. لن أستطيع النوم في هذا الفراش مرّة أخرى.

أخذت أغراضي واتّجهت للفراش لأضعها هناك، ولاحظت أن ظافرًا قد جعله وكأنه جديد، كنت ممتنّة له، فلن أكون لأنام على فراش استخدمته فتاة غريبة من قبلي..

سمعت صوت خادمتين تقولان بأدب:

- السيدة جليندا أخبرتنا بإحضار الغداء بدلًا من الطعام الذي لم تكملنه آنساتي...

لم يقل أحد شيئًا، فأنا بالكاد فكّرت في الطعام بعد ما حدث. أحضرتا الطعام وتناولناه بدون شهيّة حقيقيّة، فأنا عن نفسي تناولت ما يجعلني قادرة على المتابعة، وتركت أكثر من نصف طعامي لإيفي، والتي -على غير العادة- رأيتها لا تأكل بشهيّة مفتوحة أبدًا.. وبينما أنا خارجة من المستراح وبجانبي ظافر، رأيت عروسًا تقف عند الدرج، وليست أي عروس.. بل هي العروس الآتية من غرفة الأمير!

اندهشت أنا كثيرًا لعودتها وقبل أن أسألها أي شيء وجدتها هي تسألني عن تغيّر حال الطابق:

- لمَ هناك القليل من الفتيات؟ أين ذهبت الباقيات؟ ولمَ هؤلاء الرجال هنا؟!.

كدت أن أجيبها بأسف إلا أنها صرخت بفزع، فعدت خطوة للخلف من صوتها وتساءلت بغرابة:

- ما بكِ؟.

فأشارت لمن يقف بجانبي.. ظافر.. فابتسمت لأهدئها وقلت بودّ:

- هذا حارسي.. تم إظهار جميع الحرس...

عقد ظافر ذراعيه أمام صدره وكأنه يسألها: «أهناك اعتراض؟» لأجدها أومأت عدّة مرّات وعيناها ما زالتا مشبثتان به بتوجُّس.. وتساءلت بغرابة ودهشة بينما جسدها يرتعش رعشة خفيفة لم تغب عن عينيّ العسليّتين:

- لكن لماذا؟.

لم أستطع مقاومة الاقتراب منها والتربيت على يديها لأهدئ اهتزازهما الملحوظ وقلت بهدوء:

- دعي الفتيات يحكين لكِ.. أنا سئمت الوضع...

وسرت معها حتى منتصف الطابق، لتستقبلها العرائس بالدهشة والفضول، حتى إن إحداهنّ تجرأت وسألت:

- هل سئم منكِ الأمير؟.

ضحكت الفتاة بتوتّر وتركت يدي لتجلس على إحدى الوسائد الأرضيّة، فالتفت حولها العرائس، ولم يردعن فضولهنّ، بل سألنها عن كل شيء! وأجابتهن هي بخفوت وخجل، وحين حاصرنها بأسئلتهن المحرجة، ردّت بتحفّظ:

- ما يحدث بطابق الأمير يبقى سرّا بداخله، لن أحكي أكثر من هذا...

قالتها واتّجهت لزاوية بعيدة من الغرفة لتجلس على فراشها وحدها، وهو -بالصدفة- الفراش المجاور لي، بالقرب من فراش إزالين!

سرت خلفها بنفس فضولهنّ، وأنا أريد أن أسألها عن شيء لم تسألها عنه أي فتاة قط..

- كيف يبدو الأمير؟.

قلتها بهمس مترقّب بينما أتابعها تتدثّر جيّدًا بالغطاء لبرودة الجوّ، فابتسمت لي بطيبة.. بها شيء من المرارة، وقالت لي:

- اقتربي...

فعلت كما طلبت مني، فربّتت على يدي كما فعلت أنا ليديها منذ قليل وقالت بهدوء واهن:

- سأرد عليكِ فقط لأنكِ لستِ لئيمة مثلهنّ.

- لئيمة؟.

ردّدتها بداخلي بتساؤل، لأجدها تقول بابتسامة شاردة.. بها شيء من الحنين:

- هذا الأمير وسيم للغاية، بشكلٍ أخّاذ.. يجعلكِ تقعين في غرامه.. نبرة صوته دافئة.. لكن...

أكاد أقسم أنني رأيت دمعة تكوّنت عند زاوية عينيها تحاول التعبير عن وجودها، لولا أن قاطعتها إيفي بصوتها البريء:

- هل لي أن أنام هنا؟.

قالتها لعروس الأمير، فابتسمت الأخرى بطيبة حين رأت إيفي تتحدث والنعاس يبدو جليًّا على وجهها، ممسكة بدميتي الجميلة الصلعاء، فنهضت من فراشها قائلة:

- لتنامي بجوار صديقتك؟ حسنًا.. لكِ هذا...

فقامت من فراشها وقالت بوهن وهي ترمي بحمل جسدها على الفراش المجاور:

- لن يكون لي مكان هنا أصلًا.

وضحكت ضحكة هادئة، وكما فعلت في الفراش الأول، تدثّرت جيّدًا من برودة الجوّ، وهذا المرّة تجاهلت كوننا نقف في نفس البقعة، أغمضت عينيها واستسلمت لنومٍ عميق.. يبدو أنها لم تنم قط بطابق الأمير!

ابتسمت إيفي وهي تجذب الغطاء على جسدها وقالت بنعومة:

- اممم كم هو دافئ.. تصبحين على خيرٍ إليونورا...

هززت رأسي ورددت عليها، وتحرّكت للشرفة.. كم أريد أن أنظر من خلالها رغم المشاهد المرعبة التي قد تظهر أمامي.. أزلت الستائر بأناملي بهدوء واقتربت برأسي من الهواء البارد مستنشقة أكثر ما أستطيع منه بنهم، ثم أفرغت رئتيّ من ما بي من قلق، وطمأنت نفسي.. مجرد نظرة فقط.. لن يحدث شيء!

أخفضت بصري للأسفل وفتّشت بعيني عن أي بقعة ضوء ترشدني، فوجدت شعلات مضاءة يمسكها بعض الخدم الذكور، يقفون بالقرب من ما أبحث عنهن بعيني.. العبيد الجدد.. تنهّدت وزادت دقّات قلبي، هيّئ لي أنني سمعت صوتهن يبكين بصمت، إلا من واحدة منهن تبكي بمرارٍ وتئن وتصرخ بين الحين والآخر.. أكاد أرى اللون الأحمر الدامي حول حدقتيّ عينيها الرماديّتين كالأموات ومن حولهما الكحل الأسود يسجنهما بقسوة.. اعتصرت قلبي بيدي وقرّرت الرحيل.. وحين استدرت لأعود للخلف اصطدمت بجسد ضعيف أصدر تأوهًا خافتًا..

- إزالين!.

قلتها بغرابة، لماذا تقف بصمتٍ هكذا! لم أشعر بها تقترب مني لهذا الحد!

- تقفين مكاني.

قالتها مفسّرة ما أفكر به، فانسحبت أنا بصمت لأجعلها تقف وتراقب ضوء القمر النرجسي الذي ما زال يشبهها قليلًا.. وعدت أنا لتجمّع الفتيات، أحاول تمضية الوقت في أي شيء، متغاضية النظر عن وجود كتاب يجب عليّ قراءته تحت وسادتي، فلا مزاج لي للقراءة في هذا اللحظة.. لا أريد فعل أي شيء؛ فقط أريد السير في هذا الطابق الممل، أفكر في الأمير.. وما سيضمنه لي وجودي بجانبه.. تخيّلت نفسي أميرة، ذات تاج مرصّع رفيع، يختلف عن تاج أميري العظيم.. أنظر للجميع بعلوّ، أبتسم بغرور بينما ألقي الأوامر يمينًا ويسارًا من أجل راحتي، بينما يمسك الأمير بيدي، تتخلّل أصابعه أصابعي بمنتهى العشق.. كدت أن أرسم له صورة في مخيّلتي إلا أنني سمعت صوتًا عاليًا يجادل:

- نحن الرجال نعمل لنحمي هذا العالم، وأنتنّ مجرّد جاريات! لتسليّة وجودنا ووجود الأمير فقط!.

كان هذا أحد الحرّاس العنيدين، وأيدته بعض الأصوات الذكورية الأخرى، لتقول فتاة ما معترضة، مدافعة عنها وعن الباقيات:

- لا لا لن أسمح لك! فنحن أجمل وأرق منكم! ولهذا يحتار الأمير بيننا، أنتم هنا لحمايتنا فقط، أي تعملون لدينا! وهذا لا يعني أي شيء غير كوننا أهم منكم!.

ضحك أكثر من حارس بسخرية واشتدّت المناقشة، حتى إن العديد من الفتيات انصرفن على رأسهن الفتاة صاحبة الحكاية، يبدو أنها ستحكي لهنّ شيئًا جديدًا هذه الليلة.. ليتني أستطيع سماع ما ستقول، لكن الصداع في رأسي يكاد يقتلني.. لمحت ظافرًا ينهي حديثه مع حارس إزالين الذي بدا وحيدًا دون أصدقاء السوء خاصّته، واتّجه لي قائلًا:

- من الأفضل أن تبقي بعيدًا عن هذا الشجار.. من الممكن أن يتم إقصاء المزيد الآن...

وضعت يدي على رأسي وقلت بضعف:

- طبعًا هذا سهل.. سيأتون بعرائس أخريات بمنتهى السهولة!.

اقترب مني ظافر وأنزل يدي من على رأسي ببطء متسائلًا:

- أتشعرين بالصداع؟.

نظرت له بضعف وهززت رأسي، فقال بهدوء:

- إذًا فلترتاحي قليلًا...

أشار على الفراش الجديد لي فذهبت بهدوء كي لا أوقظ إيفي أو عروس الأمير، واستلقيت وتدثّرت جيّدًا، فوجدت ظافرًا اقترب مني وانحنى قليلًا، وضع يده على جبيني ورأسي وقبل أن يمررها على عيني استوقفته:

- ظافر.. لحظة...

قلتها بعقلي قبل أن يرسل خلاياه للنوم، فأزال يده متسائلًا، فتساءلت أنا بينما أتذكر ما حدث:

- هل حقًّا تذكّرت مشهد الغروب حين نظرت لوجهي؟.

هزّ ظافر رأسه بصمت، فأضفت أنا:

- وهل بدا وجهي جميلًا؟ أعني.. هل سيعجب الأمير؟.

اعتدل في وقفته قائلًا يصب كلماته في عقلي كي لا يسمعها أحد:

- لا أعتقد أنكِ لاحظت هذا.. لكنني رأيت وجهك بكلتا حالتيه في أول لقاء.. أمام زنازين القلعة...

صمت لبرهة ثم استطرد:

- حين حملتك على جوادي لأوصلك للقلعة، وجاءت ببالك إحدى الحكايات الأسطورية وأنكرت وجود أي شبه بينك وبين أميراتها كنت أنا أبتسم لسذاجتك.. كيف لم تدركي كونك جميلة وقتها؟.

نظرت له بغير فهم وفكّرت:

- وجهي كان أقبح ما يكون!.

هزّ رأسه نفيًا وأرسل كلماته لعقلي همسًا حتى اقشعرّ بدني:

- لم تكوني يومًا دميمة.. كان هذا فقط ستار، مجرّد ستار يخفي الحقيقة لمصلحتك.

لم أفهم شيئًا، ففسّر لي:

- إن كنتِ جميلة، لكان الحرس يتقاتلون على حراستك، لإغوائك وتحويلك لعروس مذنبة، أو لمجرّد خادمة يائسة تحب حارسها.. أما بوضعي لذلك الستار أصبحتِ منبوذة من الجميع، مكروهة من عيونهم، حتى أختارك أنا.. لأوصلك للهدف المطلوب...

وختم ما قال بـ:

- لأعلى مكانة هنا...

وبكلماته هذه تذكّرت قول أحد الحرّاس:

- هيّا يا ظافر.. اظفر بها كما تظفر بكل شيء!.

فنظرت له بغير تصديقٍ.. هل فعل كل هذا من أجل تفادي تلك اللحظة؟ لحظة الإقصاء؟ هل أبقاني خادمة دميمة حتى اقتنع الجميع بذلك حماية لي؟ نعم! لولاه لأصبحت الآن مجرّد عبدة جديدة! معلقة من أطرافها في غابة القلعة، يائسة ولا تأمل أي شيء سوى أن يرأف بها أحدهم، أو أن يتوقّف قلبها تفاديًا لعذابٍ أكيد.. لقد ظفر ظافر بما أراد فعلًا! همست له بعقلي:

- كيف فعلت هذا؟.

انحنى ليقترب مني، وضع يده على غطاء رأسه يرفعه قليلًا ليظهر ما بينه وبين غطاء وجهه.. عينيه.. بدون تفكير نظرت لهما، وكأن شيئًا بداخلي يحثّني على أن أفعل هذا.. لأجد أن لونهما الرمادي فاتح للغاية.. وهذا ما يبدو جليًّا في عينه اليسرى.. مهلًا.. هي تلمع بطريقة ملفتة، حتى إن لونها بدأ في الذبول.. حتى أصبحت خاوية.. فقط باللون الأبيض، والعين الأخرى كما هي!

تخلّل صوته خلايا عقلي حين قال:

- ما ترينه الآن هو جانبي الآخر، إليونورا.. أنتِ الوحيدة التي سترين هذا الجانب الخاص بي.. فقط لأنني أثق بكِ...

واستطرد بين دهشتي:

- لست مجرّد روح، بل أنا قابض لها أيضًا.. فأنا نصف بشريّ، ونصفي الآخر هو قابض أرواح...

زادت دقّات قلبي بسرعة، وازدادت جنونًا على جنون حين أخذت عين ظافر اليسرى تلمع بلونٍ أبيض أخاذ، وكأنه ضوء الشمس الذي افتقدته! سرت رعشة

غريبة في جسدي وتذكّرت أن تلك النظرة هي فعلًا.. نظرة قابض للأرواح! شهقت أنفاسي بذعر فأعاد ظافر عينيه لطبيعتهما كما أعاد غطاء الرأس ليخفي عينيه، فقلت أنا بينما ألتقط أنفاسي بضعف:

- وماذا عن وجهك؟.

ربّت على كتفي وهو يضعني للنوم قائلًا:

- دعي كل شيء يحدث في وقته المناسب...

وأضاف بينما يمرّر يديه على رأسي:

- تصبحين على خير...

أغمضت أنا عيني لأسمع العديد من الأصوات الغريبة.. همس.. بكاء.. أنين.. واستيقظت بعد قليل... لأجد أنني قد قاومت النوم لأستيقظ.. على نفس الصوت الأخير الذي جاءني بحلمي.. صوت الأنين..

التفت حولي ولم أجد ظافرًا بجانبي، ولاحظت صمت جميع الأصوات عدا ما أسمعه الآن.. الجميع نيام، إزالين، إيفي والجميع، الحرس ليسوا موجودين.. أين رحلوا يا ترى؟ التفت لليسار تلقائيًا لمصدر الصوت.. تحوّل الأنين إلى نحيب.. وشهقات متقطّعة! ماذا يحدث!

نهضت ببطء على أطراف قدمي، أريد تتبع الصوت.. فضول غريب تملّكني.. لم أضع الخف الناعم بقدمي، بل سرت على البلاط البارد ببطء وحذر، أقترب أكثر، ليزيد الصوت بأذنيّ.. وفجأة توقّفت حين لمحت من تجلس مولية ظهرها إليّ بجانب المنضدة الأرضية.. كانت عروس الأمير! تأكل بنهم من الفاكهة المتروكة على المنضدة.. يختلط صوت بكائها الذي تحاول كتمه مع صوت قضمها لثمرة التفّاح في يدها اليسرى، تظهر صوت شهقاتها وهي تدخل حبّات العنب بفمها بنهم.. هل هي جائعة لتلك الدرجة؟ هل تؤلمها معدتها؟ ارتعدت أنفاسي لتصدر

صوتًا عاليًا قليلًا، فتراجعت قبل أن تكتشف أنني أتلصّص عليها، عدت لفراشي وتدثّرت بهدوء، لأجد أنني قد استسلمت للنوم مرّة أخرى!

صوت أنين.. مختلط مع صوت نهنهة، شهيق وبكاء مكتوم.. كل هذا يصدر من نفس الفتاة إلا أنه يكرّر واحدًا تلو الآخر فيختلط على أذنيّ.. إحساس بالبرودة يحتلّ عقلي.. أشعر بهواء غريب يلامسني، يداعب جبيني، ، أهدابي وأنفي.. ينبعث من أمامي.. حاولت فتح عيني فوجدت الضباب يعميني، لوّحت بيدي في الهواء بينما أسير للأمام ببطء، لتقترب أصوات العويل مني بطريقة غريبة... لأدرك أنه صوت عروس الأمير.. وبدا هذا واضحًا حين سمعتها تقول بضعف:

- اتركني.. اتركني!.

وفجأة وضحت الصورة أمامي! الفتاة معلّقة في الهواء وكأنها تنام على ظهرها، منامتها البيضاء النظيفة تظهر بوضوح ما يقف بالقرب منها متحكّمًا فيها.. قابض أرواح.. يحمل الضباب بين يديه يحرّكه حولها.. بينما هي تئن وتهزّ رأسها بضيق، لكن تتشوّش الصورة أمامي لأراها مبتسمة بصفاء مغمضة العينين مغلقة الشفاه والصوت ما زال ينبعث حول أذني! وفجأة! صمت كل شيء! إلا من ذلك الصوت:

- إليونورا هيّا استيقظي!.

نهضت بقوّة دهشتي لأكون جالسة وساقاي ممددتان أمامي في فراشي، أشهق أنفاسي بصعوبة بينما إيفي تنظر لي بدهشة وتقول بصوتها الرقيق:

- هل أفزعتك؟.

قالتها ظنًّا منها أن بصوتها العذب هذا قد أيقظتني من نومي، وهي لا تدري شيئًا عن غرابة ما شاهدت! مسحت على وجهي أمحو ما شاهدت من مخيّلتي بينما أنادي ظافرًا بعقلي، نظرت حولي بتيه لأجد على أقصى اليسار صفًّا قصيرًا من العرائس أمام المستراح.. فهمست بغرابة:

- أين هي؟.

بحث عنها بعيني في وجوه العرائس الناعسات، وفي جميع الفرش.. فسألت إيفي بغرابة:

- من هي؟ أتقصدين إزالين؟ هي في أول الصف! أمامكما تدريب طويل!.

أشحت برأسي وهززتها نفيًا بضعف:

- لا لا.. أقصد.. عروس الأمير.. أين هي؟.

هزّت كتفيها بجهل قائلة ببراءة:

- لا أدري.. لم تجدها أي واحدة منّا.. وافترضت واحدة أنها تم استدعاؤها أثناء نومنا، لتذهب للأمير.

استرجعت صوت أنينها في أذني، صوتها كان معذبًا.. وأعدت آخر ما قالت إيفي بغرابة:

- ذهبت للأمير؟.



{١٤}

=المؤامرة الأولى=

- ذهبت للأمير؟.

نفضت الغطاء عني ونهضت بسرعة وفتّشت عنها بنفسي، بين وجوه الفتيات.. اعتقدت أنني سوف أجدها، كما فتّشت في فراشها بذهول، غير مصدّقة ما قالته إيفي لي للتوّ! كيف تذهب للأمير! كانت حالتها مزرية ليلة أمس! كانت منكبّة على الطعام بأسى وكأنها لم ترَ مثله في حياتها.. كما ذرفت الدموع وكأن عينيها قد وُلدتا حديثًا!

- إليونورا! توقّفي عن البحث فهي ليست هنا!.

أمسكت إيفي يدي وثبّتتني بجانبها، ربّتت على كتفي برفقٍ وقالت بصوتها العذب:

- ما بكِ اليوم؟ هل أنتِ متوترة بسبب درس الرقص؟.

رفعت عيني لأبحث عن شخصٍ آخر لم أعتد اختفاءه مؤخرًا أو بعده عن ظلّي.. ظافر..

- أين الحرس؟.

سألت إيفي بعد أن استعدت تركيزي، وبت أفكر في شيء ما خارج ذلك الكابوس الغريب والذي شتّتني بين النوم واليقظة، مما جعل إيفي تتنهّد قائلة بإشفاقٍ عليّ:

- استدعاهم كبيرهم ليلة أمس...

أخرجت ورقة صغيرة مطويّة من جيب ردائها الواسع، فضّتها وأعطتها لي، فقرأتها أنا بعيني أمر بين الحروف سريعًا لأفهم الموجز:

- إيفي سأرحل وأتركك لتعتني بنفسك الليلة، فلدي استدعاء من كبير الحرس، ذلك الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء، كما تم استدعاء زملائي أيضًا.. كوني بخير..

حارسك المخلص؛ كاليب..

ابتسمت لسذاجة حروفه وبراءتها، ممّا أثارني لرؤية تلك النظرة الحالمة في عين إيفي.. هل يسعدها ما يقول حقًّا؟ حارسها المخلص! هه..

- قفن في الصف، لا نريد التأخر عن الدرس، وخصوصًا أنتِ إليونورا...

التفت لصاحبة الصوت الناعم، لأجد أنها إزالين، فابتسمت بوهن ردًّا على كلماتها البسيطة ولهجتها التي لم تخفي غرورًا.. أو اعتزازًا بالنفس زائدًا عن حدّه، لا أدري، ولاحظت أنها تمسك بورقة صغيرة.. كالتي لا تخصني لكنّي أمسكها بيدي، فتركت تلك في يد إيفي وعبرت بجانبها لأصل لإزالين التي قد وقفت في الصف، وهمست بفضول:

- ما المكتوب بالورقة في يدك؟.

استدارت لي لتجدني خلفها ألتصق بها، فابتعدت قليلًا ورفعت الورقة لأتابعها أنا بعيني وكأنها شيء مدهش للغاية، فابتسمت بتسلٍ قائلة؛ تهمس بالقرب من أذني:

- أتدرين؟ وقد انحسر عددنا ستبدأ المؤامرات.. للوصول للأمير.. وستكون الأسرار وقتها مباحة، كما سيكون كل شيء!.

وأضافت:

- ستكون كاللعبة بلا قواعد!.

ضيّقت المسافة بين حاجبيّ بينما أتابع عينيها السماويّتين، أحاول تخمين ما إن كانت ستمطر أو ترسل الرياح للغيوم.. لكنّني وجدت عينيها كما هي دومًا.. صافية.. بمناخ هادئ لا ينذر بشيءٍ أبدًا! فابتلعت غصّة في حلقي وقلت بنبرة شكّ:

- ظافر قال أنكِ لن تكوني للأمير.. أم أنكِ ستعصين ما يقول؟.

ابتسمت ثم تعالت ضحكتها المتعالية المتسليّة، فالتفتت إلينا العديد من العرائس الناعسات، لتختتم هي ضحكتها بتربيتة سريعة على رأسي هامسة:

- أنتِ طيّبة القلب.. تصدقين كل شيء لكن أريدك أن تعرفي شيئًا.. أنا لن أكون عدوّة لكِ أبدًا.. وطالما أنكِ تحت حماية ظافر فأنتِ في حمايتي أيضًا...

فغرت فاهي غير مصدّقة لما تقول، واسترجعت سبب وقوفي في بادئ الأمر.. ما الموجود بتلك الورقة؟ أهي مؤامرة أم مجرّد رسالة من حارسها؟ يجب أن أراها الآن!

خطفت الورقة من بين أناملها، والتي لم تكن محكمة عليها كما ينبغي، لأدرك أنها تركتها لي عمدًا.. فنظرت للورقة بترقّب وفضضتها، لأكشف عن هذا المحتوي الذي أثار فضولي للدقائق القليلة الماضية.. وجدت بعض الحروف المتشابكة، بخطٍ أشبه بالرسم.. تلك الورقة رغم بساطتها؛ هي تحفة فنيّة! والمكتوب كان صعبًا عليّ قليلًا، أعرف هذه اللغة، هي لغة راقية للغاية ومن يبرع بها هو بالتأكيد راقٍ ومرموق الشأن.. أو مثقّف للغاية.. وهذا ما رجّحته حين قالت إزالين بلهجة عادية:

- تركها ظافر تحت وسادتي.. ليست بالشيء المهم فلا تقلقي...

نظرت لها باستنكار وكأن لسان حالي يقول: «لست قلقة.. إنه فضولي الملعون فحسب!». وحاولت قراءة الكلمات ببطء.. وضممت شفتيّ محاولة إيجاد النطق السليم:

- اشش.. ششرر.. بي.. ك.. كثي.. ر م.. ن الم.. اء.. الماء.. أليس كذلك؟.

قلتها بقليل من الجهل الأبله، ثم رفعت رأسي لها لأجدها مبتسمة بهدوء، فكرّرت الجملة عليها:

- اشربي الكثير من الماء؟.

وأضفت متساءلة:

- لكن لماذا؟.

رفعت كتفيها وأرختهما بعدم معرفة جواب لما سألت للتوّ، فزفرت قائلة بريبة:

- أنتِ وشقيقك غامضين للغاية.. أود لو أدخل عقليكما لثوانٍ فقط لمعرفة ما يدور بالداخل!.

اتّسعت عينا إزالين أثرًا لما قلته ووضعت سبّابتها على شفتيّ برقّة قائلة بهمسٍ مذعور:

- اتفقنا على أن لا تفشي السرّ!.

فانتبهت أنا لمن حولي، وقلت معتذرة:

- آه.. آسفة...

واعتدلت لأقف خلفها بالصفّ.. ولم أدرِ أن من كانت تتابعنا من على بعد هي إيفي، تضم شفتيها بحزن طفولي بريء وكأنها تقول:

- لا تسرقي صديقتي الوحيدة!.



- أرجوكنّ.. قلن لي أن هذه مزحة.. هذه مزحة ها؟ أين باقي العرائس!.

كان هذا ما قاله المدرّب اللزج رخو الهيئة حين أخبرته إحدى العرائس أننا، وبفقدان العديد منّا، في عددنا الكامل.. والصحيح..

- كيف حدث هذا؟ لماذا ومتى؟!.

سقط أرضًا على مؤخرته بهدوء ووجهٍ مصدوم، فاقتربن الفتيات منه يساعدنه، فأبعد يدهم عنه وأخفى بها وجهه الباكي وقال بيأس:

- كنت أضع كل أملي فيكنّ! كانت هذه المجموعة من أرقى ما حظيت به يومًا! فأنتنّ جميلات، موهوبات وذوات آذانٍ موسيقيّة رائعة...

انتحب بهدوء ورقّة لا تليق به، أو بجنس الرجال أبدًا، والفتيات يربّتن على كتفه ليهوّن عليه، يعاملنه كما يعاملن بعضهم بعضًا! أما هو فقد أضاف خاتمًا ما قد قال عن الآذان الموسيقية:

- وصدّقيني، جلاديس، لا أعنيكِ أنتِ!.

ضحكت الفتيات على مزحته حين أشار على واحدة منهنّ، ترفع شعرها الكثيف غير الناعم تمامًا للأعلى، والتي ضيّقت المسافة بين حاجبيها لتقول ببلاهة تبرز طيبتها:

- هه؟ هل قلت شيئًا للتوّ؟.

فانفجرت الفتيات ضاحكات مرّة أخرى سخرية وتصديقًا على مزحته، ليتبيّن لي أن «جلاديس» ليست مستمعة جيّدة للموسيقى، أو لأي شيء في الحقيقة.. سمعها ضعيف وطفيف للغاية، لدرجة أنها تخطئ سمع اسمها في الكثير من الأحيان فلا تجيب..

تنهّدت وفكّرت في أن اختيار العرائس هو طبقًا لمعايير لا أساس لها من العقل أو المنطق.. يختارون الفتيات التي لا تجيد أعمال المطبخ والتنظيف، كما يحرصن

على أن تكون نظافتهنّ الشخصيّة ممتازة بالفطرة، بالإضافة للوجه ذي الملامح اللطيفة.. فقط! لأدرك الحقيقة التي كانت مستترة عني طوال هذه الفترة.. نحن كعرائس مختارات للأمير لسنا فائقات الجمال، بل نحن أفضل ما يمكن اختياره وفقًا للمعايير السخيفة الأخرى.. وفي لحظة تذكّرت في المطبخ خادمات جميلات، ويمكن القول أنهنّ أفضل شكلًا من عرائس أمكث أنا معهم بالطابق... لكن.. ما الذي يمكنني أن أقول.. هي فقط القواعد العقيمة هنا!

- حسنًا.. سأتقبّل الأمر...

قالها المدرّب لينتشلني من تفكيري، لأنظر أنا إلى هيئته التي زال عنها الوهن قليلًا، فهو قد نهض راميًا مخاوفه أرضًا، ليبثّ فينا القليل من الشجاعة قائلًا:

- دعونا ننسى الأخريات، سيتم تدريبكنّ من جديد.. فمن كانت تجلس طوال التدريب ستنهض وتهز جسدها بالكامل ليكون ليّنًا رغمًا عن أنفها، ومن كانت جيّدة فلتعطِ خبرتها للباقيات.. فما سمعته اليوم سيجعلكنّ مؤمنات بما أقوله جديًّا...

صمتت جميع الفتيات ووقفن في دائرة واسعة من حوله، ليسمعن ما عنده، فقال بلهجة عاديّة متذكّرًا المشهد أمامه بشرود:

- ذكرت لي جليندا أن الفتيات الجديدات لم يستيقظن بعد.. ومنذ فترة وعدد الوافدات الجدد يتناقص، إما ذلك أو يبقين خادمات...

تنهّد وقال بنبرة أعلى قليلًا ليبثّ فينا الحماس:

- ما أقصده من هذا هو أنكنّ مميّزات الآن.. كالعملة النادرة.. وبهذا الفريق لن يكون الأمير محتاجًا لأي أميرة أخرى، كنّ كافيات عزيزاتي! ولتكن هذه البداية إذًا!.

انتهى ما قال بفرك يديه بطريقة حماسيّة، فالتفتت العرائس بعضهنّ إلى بعضٍ بغير تصديق، حتى هتفت واحدة فجأة:

- نحن الوحيدات! سيختار الأمير من بيننا وسنكون أميرات حقيقيّات!.

ابتهجت الفتيات وفرحن، دخلت السعادة قلوبهنّ جميعًا عداي أنا، فما دخل قلبي هو المزيد من الوجل والحيرة.. وتساءلت: ترى ماذا سيحدث لنا؟

وبينما نحن نجلس القرفصاء في نفس الدائرة حول المدرب ونشاهد ثلاث فتيات يتدرّبن على نفس نوع الرقص، سمعنا طرقًا على الباب، ثم فُتح بهدوء ليدخل الحرس واحدًا تلو الآخر في صف منظم، ويجلسوا بالقرب من حائط المرايا بعيدًا، ليراقبوا التمرين وليكونوا على تأهّبٍ لأي شيء..

- عيناك هنا.. هنا عزيزتي على تمايل جسدي الناعم، لا على هؤلاء! أريد تركيزًا!.

قالها الحارس بقسوة ناعمة حين سُرقت الأضواء منه عنوة، فضحكت الفتيات بهمسٍ وتابعن النظر إليه، والثلاث اللاتي يتوسّطن القاعة ذات الجدران العاكسة ركّزن على النظر إليه وتقليد حركاته..

رفعت رأسي بحذر لأنظر خلفي، فلمحت ظافرًا يجلس بعيدًا عن الحرس، مما يلفت الأنظار له بشكلٍ كبير، ويشتّت تركيزي أيضًا.. سيلاحظ المدرّب أنني أنظر للخلف، وسيوبّخني أمام الفتيات! وأنا لا أريد إلا المعاملة الجيّدة حتى أصل للأمير! نظرت لفتاة ما تجلس أمامي، يحول جسد المدرّب الذي يعطي ظهره لي ولمن بجانبي بيننا، أشرت لها أن تبدل الأماكن، فوافقت دون تردّد، فابتسمت لها وسرت خلف الدائرة كما فعلت هي وجلست بمكانها السابق، مما جعلني في مكان استراتيجي ومناسب لمتابعة الدرس، وفي نفس الوقت النظر لظافر، فأنا حقًّا أريد معرفة أمر هذا الاستدعاء!

- ظافر.. لماذا رحلتم فجأة؟.

قلتها له أناديه بعقلي، فأسمعني صوت ضحكته المتسلية فعبست قائلة:

- لا وقت للمزاح أنا في منتصف الدرس!.

رأيته يهزّ كتفيه ثم يبسطهما قائلًا بمرح:

- كوني تلميذة نجيبة وركّزي على الدرس فقط.. وكفّي عن الثرثرة!.

نفخت الهواء في ضيق فالتفتت إليّ عروس ما، فأشحت ببصري بعيدًا أتظاهر باللامبالاة بينما أحدث ظافرًا:

- كلّا أخبرني، إذا لم تخبرني فلن أكون في كامل تركيزي وقت رقصتي الثنائية مع أختك.

- لا تقولي أختك فقط ناديها باسمها...

قالها محذّرًا بهدوء فقلت بلا مبالاة حقيقيّة:

- حسنًا أيًا كان...

- نحن لا نريد لتدريب اليوم سوى أن يكون استثنائيًا كالمرّة السابقة، فأنا أنتظر هذا جدًا...

وأضاف:

- لذا سأخبرك بالأمر...

ابتسمت وأشحت ببصري عن درس الرقص لبرهة وابتسمت له ليبدأ، فقال بصوته الهادئ العميق:

- كانوا يريدون إخبارنا بخطورة الخبر الذي بالطبع لم يخفِه هذا اللزج عنكن...

كتمت ضحكتي حين نعت المدرب باللزج، فأنا أيضًا ألقّبه بهذا! كم يشعرني هذا بالرضا لعدم ظلمي له!

- يمكن للعرائس أن تتآمر على واحدة منكنّ ليتم إقصاؤها أو التخلّص منها بأي طريقة كانت...

اتّسعت عيناي لما قال، وربطت بين ما قال للتوّ وبين ما قالته لي إزالين بطابق العرائس: «ستكون كاللعبة بلا قواعد!» وكلمة المدرّب: «كالعُملة النادرة!».. فابتلعت غصّة في حلقي واستمعت لما يقول:

- والملخص من كل ما حدث، نريد الحرص.. فقط...

- فقط؟.

ردّدتها فأكد على ما قال بهزّة رأس.. فابتسمت بتوتّر لأسمعه يقول:

- كنتِ تعرفين السبب ها؟.

أومأت بصورة خفيفة وعقلي يبثّ الرعب في نفسي، لا أريد أن أستيقظ يومًا وأجد العديد من الحرس حولي يحاولون التحرّش بي فقط من أجل تحقيق مؤامرة يجعلوني فيها مذنبة، ويتم إقصائي! أو.. أن تضربني إحداهن لأفتعل شجارًا.. أو...

- لا داعي لتلك الهواجس!.

قاطع ظافر صوت الطنين بعقلي ودقّات قلبي المرتعشة، ليحدّثني بصوته الذي طمأنني بدفئه:

- لن يحدث لكِ شيء طالما أنكِ تحت حمايتي...

تنهّدت لأطرُد ما أستطيع طرده من الهواجس، وقلت في نفسي:

- أنا أثق بك ظافر.. لذا سأطمئن.

- وأنا واثق من كونك ستفعلين...

ابتسمت وتذكرت شيئًا ما، فسألته:

- هل صحيحٌ أنك تنتظر تأديتي للرقصة الثنائية مع إزالين؟.

- بفارغ الصبر...

قالها بتسلٍ فاحمرّ وجهي قائلة:

- لو أنك لم تخبرني بأنها شقيقتك...

وقبل أن أكمل باقي جملتي وجدته يقاطعني قائلًا:

- ليست شقيقتي.. بل أختي...

ابتسمت بلا معنى، لست أفهم! فأوضح لي:

- هي أختي من أمي فقط...

ارتفع حاجباي بدهشة وقبل أن أسأل أي شيء سمعت صوت المدرب يقول:

- إزالين وإليونورا، عزيزتاي الجميلتان! أشكر القدر على كونكما معنا الآن!.

أرجعت حاجبيّ لوضعهما بسرعة وثبّت عيني عليه بتركيز، لأجد إزالين قد وقفت بجانبه، تشير لي بعينيها، وشفتاها تهمسان بـ:

- هيّا!.

وقفت بسرعة أمامهما، ليتابع المدرب قوله ممسكًا بكلتا يدينا:

- أضع أملًا كبيرًا على وجودكما في حفلة الأمير.. ليس لأنكما الأجمل فقط، بل لأنكما تشكلان ثنائيًا رائعًا!.

ابتسمت لمجاملته وشكرته همسًا، وشكرته إزالين بابتسامة واهنة وهزّة رأس.. بالطبع هي تعلم بكونها الأجمل والأفضل، فلمَ تهتم لمجاملته هذه؟!

ترك المدرب كلتا يدينا بحذر وكأنه يخشى عليهما من الكسر، وجلس أرضًا متربعًا بجانب الفتيات وكأنه واحدة منهنّ، مستندًا على جدار المرايا كما فعل

العديد من الحرس بآخر الغرفة، وأشار بذراعه بنعومة لعازفي الموسيقى، ليشرعوا في عزف موسيقاي المفضلة.. والتي تذكّرني دومًا وفي كل لحن لها بأغنية إزالين؛ «استثنيني»..

لمحت ظافرًا يعقد ذراعيه أمام صدره ليتابع بتركيز، فابتسمت وأغمضت عيني لأركز على الموسيقى، كما المرّة السابقة.. وحين بدأت.. نسيت كل شيء يرهقني ويؤرّقني.. وتفاعلت مع الموسيقى.. بيدي، وذراعيّ وساقيّ، انحنى جذعي قليلًا كما تمايلت كل خليّة في جسدي لتلك الموسيقى الهادئة الجذّابة.. بت أفتح عيني بين الحين والآخر لأركز ببصري على إزالين، فوجدتها منسجمة تمامًا، أكثر من أول مرّة رأيتها تتمايل.. وكأنها تؤدي رقصتها الأخيرة! اقشعرّ بدني لتلك الخاطرة وفضّلت أن أركز فقط على الموسيقى والتجاوب معها بشكلٍ سليم، فرؤيتي لنظرات الإعجاب في عين العرائس، الحرس، المدرب، وظافر تجعلني أتأكد من أني سأراها يومًا في عين الأمير نفسه!

تذكّرت نظرتي للأمير العالي الذي انعكس ظلّ تاجه على وجهه فأخفى ملامحه بسبب ذلك القمر المتغطرس، كم يدينني هذا القمر.. ابتسمت وتخيّلت أن الأمير يبتسم لي.. ويشير إليّ.. ترى.. هل هو وسيم للغاية.. هل ستسحرني شخصيّته؟ هل يجيد تحدّث اللغات؟ كيف يمتطي جواده؟ هل سيسحرني كأي أمير في الحكايات؟ أجل، نعم، بالتأكيد.. وبالطبع! فسيكون فائقًا لكل توقّعاتي.. أشعر بأنه.. استثنائي! ما لبثت أن أغوص في بحر الأحلام حتى سمعت ظافرًا ينبّهني:

- افتحي عينيكِ...

فتحتهما دون حتى أن أدرك أن عقلي أعطى الأمر بذلك، لأجده يقول بنبرة جادّة:

- عودي للخلف خطوتين فقط...

- لماذا؟.

قلتها وأنا أعود للخلف، بينما لا أنتظر ردًّا حقيقيًّا، فعلت ما قال تلقائيًا كي أستعيد تركيزي مع العازفين، وفجأة وبدون أي مقدّمات، وبينما أرفع ساقي اليمنى كما تفعل إزالين لتأدية حركات الرقصة بنعومة، سمعت صوت ارتطام ضخم، صرخة إزالين، مع انطفاء ضوء الغرفة الأوسط.. في نفس اللحظة!

صرخت العديد من الفتيات اللاتي انتفضن واقفات بفزع، وأنا أفقت من شرودي اللحظة لأجد أنني ماكثة على الأرض أحمي رأسي من شيء أجهله، كما فعلت العديد من العرائس مع تغطية آذانهنّ من صوت الارتطام القوي وكما فعل المدرب نفسه، وما هي إلا لحظات حتى بدأت إزالين بالبكاء بشدّة، فانطلق الحرس يهرولون، كلٌّ يبعد العروس التي في حمايته، يمنعونها من مساعدة إزالين، بإزالة الثريا ذات الشموع التي انطفأت ووقعت.. على منتصف جسدها الأيمن!

شهقت بلوعة وهرولت نحوها ما إن فهمت ما قد حدث، الفتيات يبكين بفزع، منهم من تبكي من الصدمة، ومنهم من تخشى الظلام، أما أنا فلم أكن أنظر لأي شيء سوى إزالين، المسكينة تبكي بمرارة! فقدمها اليمنى عالقة تحت الثريا!

- تماسكي سنزيلها عنكِ!.

قلتها وأنا أكرس كل جهدي في تخليصها من ذاك الشيء الثقيل، لكن بلا جدوى! وما هي إلا ثوانٍ إلا ورأيتها تتقيأ دمًا! سائل لا ينتهي؛ أحمر اللون بشكلٍ فظيع! رأيته ببقايا الضوء الآتي من آخر الغرفة، قبل أن يحجب الضوء أحد يقترب منّا! صرخت بفزع واضعة يدي على قلبي، أشعر به يدق بجنون! هل يمكنه التوقّف الآن! هل يمكنه ذلك؟!

- فليأتِ أحد للمساعدة أرجوكم! هناك كارثة!.

قالها الحارس الذي هرول للخارج تاركًا الجميع في هلع، دون حتى أن يتكبّد العناء في محاولة إزالة ذلك الشيء عنها، كأي رجل شهم! على ذكر الشهامة! التفت للحرس لأجد كلًا منهم يمسك بيد الفتاة التي يحرسها بمنتهى الحرص، لا يريدون إفلاتها، منهم من يهدئ من روعها.. كما يفعل كاليب لإيفي التي تبدو

مصدومة للغاية، ونظرت بجانبي لأجد ظافرًا يزيل ذلك الحمل من فوقها، بعد أن لطخته دماؤها المتدفّقة من جوفها المسكين.. وبين نظراتي المذعورة سألته بعقلي:

- كيف حدث هذا! لماذا!.

قلتها وأمسكت بذراع إزالين الممدودة بجانبها بإعياء ومسحت على جبينها الذي تعرّق للغاية وبينما أنا غارقة في دموعي سمعت صوت ظافر يجيبني بغموض:

- المؤامرة الأولى...

وأضاف:

- بل مؤامرتي الأولى!.

سرت قشعريرة قويّة بجسدي بفعل ما قال للتوّ.. وهمست بإعياء:

- ماذا تقصد؟.

نظر ظافر لي لأجد أن إحدى عينيه تلمع من تحت غطاء رأسه حين قال بلهجة غامضة:

- أنا الفاعل، ولا يشعرني هذا بالسوء أبدًا!.

جاءت كل الأفكار المزعجة في عقلي دفعة واحدة، بصوت الطنين الذي يزعجني، كما تجمّدت صورة إزالين جاحظة العينين تتقيأ دمًا، يغطي الثريا، وملابسها، كما غطّى شعرها المنسدل على وجهها بتموُّج خفيف.. فشهقت الهواء من رئتيّ بصعوبة، وسكن كل شيء..

فقدت وعيي، لأسقط بجانب صديقتي الجديدة والتي فقدتها للتوّ.. ليفترش شعري الأسود دماءها كفرشاة ناعمة قد لطّخت بالطلاء.. وآخر ما سمعته صوت إيفي تصرخ باسمي بلوعة.. ونظرة ظافر، بشعاع النور من عينه اليسرى!



{١٥}

=هل ابتسمت عيناه للتوّ؟=

فتحت عيني بضعف لأجد أنني في مكان خافت الأضواء، فخشيت أن أكون في نفس غرفة الرقص، وسريعًا مرّ كل شيء أمامي لأدرك أنني فقدت الوعي من فظاعة المنظر.. نهضت لوضع الجلوس ليسقط ما كان يغطّيني أرضًا؛ وكانت عباءة ظافر السوداء التي ترفرف خلف ظهره دومًا! تذكّرت نبرة صوته حينما قال بغموض:

- أنا الفاعل...

فاقشعرّ بدني مرّة أخرى وانتفض جسدي يرتعش بردًا، ومن العدم ظهر لي ظافر بجانبي يقول بصوتٍ دافئ:

- كيف حالك الآن؟.

استدرت له بصعوبة، خفت أن أواجه عينيه، لكن لحسن حظّي لم يكونا مكشوفتين، فتنهّدت بارتعاش ودفعته بيدي بضعف ليبتعد بينما بدأت في البكاء المرير، وما فعلت لم يبعده عني سنتيمترًا واحدًا، بل أمسك بيدي الموضوعة على صدره وأخفضها وقال بهدوء:

- لم يكن بوسعي إخبارك ما كنت أنوي فعله اليوم...

ارتعشت كلماتي وخرجت بصوتٍ غير صوتي حين قلت ساخرة منه:

- وهل تعتقد أنه كان سيغيّر شيئًا؟ تخبرني أم لا؟ أهذا كل ما تفكر به!.

تنهّد ظافر وربّت على ظهري فابتعدت أنا عنه قائلة بشراسة تشوبها ارتعاشة صوتي من البكاء:

- ابتعد عني يا عديم القلب!.

حرّكت يدي المرتعشة إلى قلبي الذي يدقّ دقّات بطيئة للغاية، أظنها تخفت شيئًا فشيئًا قائلة:

- ألا رحمة لديك؟ إذا كان هذا ما سيوصلني للأمير فلا أريد! إذا كانت تلك المؤامرة الأولى، فتآمر عليّ أنا ثانيًا واقضِ عليّ! لا أحب الدماء ولا أريد القتل!.

تذكّرت افتراشي لدماء إزالين فاقشعرّ بدني وأمسكت بخصلات شعري بأناملي المرتعشة، أتفقد أثر الدماء بها ومعدتي منقبضة بذعر، ولغرابة الموقف، لم أرَ أي أثر لها! ولاحظت أيضًا أنني أرتدي ملابس أخرى غير التي كنت بها في التدريب، وقبل أن أسأل أي شيء أجابني ظافر:

- لقد قمت بتبديل ثيابك بعد أن أزلت عنكِ أثر الدماء...

نظرت له بقلق قائلة بذعر:

- هل قمت بذلك بنفسك؟ أيها الحقير المنحرف!.

رفعت كلتا يديّ، أريد أن أهوي بهما على جسده لأبرحه ضربًا! كيف يتجرأ ويفعل هذا! لقد خدعت فيه كليًّا.. كنت أثق به! وبينما يداي في طريقهما إليه ابتعد هو قليلًا، لأسقط أنا من على الفراش ليلتقطني هو كما تلتقط قطّة مذعورة سقطت من أعلى شجرة عالية... وبدأ بالتربيت على شعري بهدوء، بينما يحدّثني بصوتٍ بثّ في نفسي الهدوء:

- اهدئي من فضلك.. لم أفعل شيئًا يؤذيك.. سيكون كل شيء على ما يرام لا تقلقي...

أغمضت عيني لتهبط دموعي بصمت، وقلت بضعف:

- لقد وثقت بك!.

أعاد ترتيب شعري بيديه ويده الأخرى ملتفّة حولي وتربت على كتفي، أعاد خصلات شعري خلف أذني بهدوء وخفّة.. وحين انتهى أدارني لأكون في مقابلته، فاقشعرّ جسدي من ريبة وضعنا الآن.. لم أعتد على أكون قريبة منه لهذا الدرجة! سمعت صوته العميق يقول:

- أريد منكِ فقط أن تتمالكي أعصابك لدقائق إضافيّة، وبعدها سأبيّن لكِ ما حدث من منظورٍ آخر...

هززت رأسي موافقة، لا أدري لماذا! هل لأن نبرة صوته العميقة الهادئة هذه تثير الرهبة بداخلي؟ أم لأنها تجعل كل خلايا جسدي خاضعة له؟ أم أنها ما تبقّى من ثقتي به؟

تركني ظافر بهدوء وأعاد تثبيت عباءته فوق جسده وقال يهمس في أذني:

- الحكيمة هنا.. جاءت لتطمئن على حالتك.

هززت رأسي وما هي إلا ثوانٍ ووجدت الحكيمة تفتح الستار الأبيض حول فراشي، تبتسم لي على رغم عادتها وسألت:

- هل تشعرين بأي ألم عزيزتي؟ أم أن الدواء أتى بمفعوله؟.

أشرت لرأسي وقلت بصعوبة:

- فقط.. بعض الصداع.. .

رأيتها تقترب مني لتقيس حرارتي، فقلت أنا ومقياس الحرارة داخل فمي:

- لحظة! أي دواء؟ لقد كنت فاقدة للوعي فقط .

هزّت الحكيمة رأسها بأسى قائلة:

- كنتِ في صدمة بسبب ما حدث.. وأعطيتك دواءً مهدئًا.. لكن اطمأنّي صديقتك في حالة مستقرّة الآن.

نظرت للحكيمة الأربعينية بغير تصديق، وبينما تأخذ مقياس الحرارة من فمي تنظر إلى إشاراته تساءلت:

- لم تمت؟ لكن.. ل-لكن!.

تنهّدت بارتياح وقلبي يخفق بحماسٍ وقلق في نفس الوقت، وتساءلت على عجلة:

- هل هي بخير حقًّا؟ هل يمكنني رؤيتها الآن؟.

ربّتت على يدي بإشفاق قائلة:

- لحسن الحظّ لم تمت.. هدأ النزيف الداخلي تمامًا، وتبقّت بعض الكسور.. ويمكنك رؤيتها، هي بغرفة الكشف بالأسفل.

نهضت من فراشي ونظرت لظافر، فقالت بطيبة توجّه حديثها لظافر:

- أشكرك لتعاونك، فلولاك لما عرفنا التصرّف في الوقت المناسب!.

هزّ ظافر رأسه باحترام ردًّا على شكرها ونظرت أنا لظافر شزرًا وقلت ببالي:

- ويعتقدون أنك البطل أيضًا؟ عظيم.. عظيم!.

وتساءلت ببراءة ظاهريّة:

- هل ساعدكم حارسي في شيء؟.

هزّت رأسها بينما تأخذ يدي لتجعلني مستندة على جسدها لتسير بي لخارج الطابق، يتبعنا ظافر، وحكت لي ما حدث:

- نعم حمل الثريا ووضعها بعيدًا، وبينما قمت بالكشف على المسكينة واكتشفت أن هناك كسورًا بجسدها، كان هو قد حملك لغرفة الكشف.. ثم عاد إلينا وفعل المثل لإزالين.. هو الوحيد الذي قدّم المساعدة بين كل الحرّاس.. أنتِ محظوظة لأن لديكِ حارسًا مثله.. فحارس إزالين لم يقدم على فعل أي شيء ولو بسيط لها!.

هززت رأسي بغرابة وأنا أتخيّل ظافرًا يحملني.. ومن ثم يزيل ملابسي لينظّف الدماء عنها و.. تبًّا! يجب عليّ التوقّف عن التفكير الأحمق فهو يستطيع معرفة ما أفكّر به! لكن قبل أن أستطيع التوقّف جاءني صوته محتلًا خلايا عقلي قائلًا بسخرية هادئة:

- لم أتكبّد العناء بفعل هذا بنفسي، فلدي تعويذة تقوم بفعل هذا في ثوانٍ قليلة!.

احمرّ وجهي وأردت تغيير الموضوع، فقلت ببلاهة:

- وقمت بإلقاء سحرك هذا ولم يلحظ أحد؟.

ضحك ضحكته المتسليّة ورد بإيجاز:

- لدي طريقتي!.

تنهّدت وطردت هواجسي بعيدًا.. وركّزت فقط على أنني سأرى إزالين، وصلنا لغرفة الكشف البسيطة، عبرناها ولم تتجاهل عيني النظر للعديد من المرضى والمريضات من الخدم والخادمات على فُرُش بسيطة، وحين وصلنا لغرفة أخرى تفصلنا عن الغرفة العادية بستار، وجدت أنها أرقى حالًا، أكثر هدوءًا وخصوصية، لم أجد سوى إزالين وحارسها، كانت هي تنام على ظهرها، بينما ذراعها الأيمن وساقها كذلك يختفيان تحت جبيرتين باللون الأبيض، مشدودتين بعمود الفراش بشكلٍ جعلني أفكر في كونها محظوظة لأنها نجت من هذه الكارثة، وفي نفس الوقت أشفق على حالتها هذه. نظرت لظافر نظرة جانبيّة، أرسل له لومي، وكأن لسان حالي يسأله:

- هل هذا ما كنت تريد؟.

تنحنحت الحكيمة فرفعت إزالين رأسها بضعف بعد أن وقف الحارس، وقال هو بارتباك:

- صديقتك إليونورا جاءت للزيارة.. معها الحكيمة و... .

نظر لظافر بارتباك، علّه تذكّر كون ظافر ساعد الفتاة التي في حمايته بينما هو اختبأ كالجرذان فشعر بالخزي.. أو هذا ما اعتقدته أنا!

هرولت لإزالين وأمسكت بيدها المعافاة وقلت ودموعي تنهمر مرّة أخرى:

- كاد قلبي أن يتوقّف قلقًا لكن الآن اطمأننت لكونك بخير!.

ابتسمت لي وقالت همسًا:

- أنا بخير، لا تكوني حمقاء!.

نظرت لحالتها وابتسمت بغرابة، فتنحنحت الحكيمة قائلة:

- إذا احتجت لأي شيء قومي بطرق الجرس النحاسي الموجود بجانب يدك.

هزّت إزالين رأسها وشكرت الحكيمة قبل أن تنصرف وتتركنا، وقتها نظر الحارس الضعيف لإزالين قائلًا:

- سأترككم لدقائق.. يبدو أن صديقتك قلقة للغاية...

ونظر لي بارتباكٍ واضح، وحين تلاقت عيوننا أشاح ببصره بعيدًا وهرول للخارج، فتساءلت أنا:

- كم هو جبان! ألم يكن هذا هو المهووس بمراقبة الفتيات، والذي يتحاذق على أصدقائه متلفظًا بأكثر العبارات وقاحة؟.

هزّت إزالين رأسها وقالت ساخرة:

- منذ أن رحل أصدقاؤه وهو هكذا.. لا بل هو دومًا هكذا ضعيف الشخصيّة...

اقترب ظافر ليقف عند قدم إزالين قائلًا:

- هل تتألمين؟.

ابتسمت له بإشراق قائلة:

- كنت خائفة قليلًا لكن.. أخي أنت رائع! لم أشعر بأي شيء سيئ مطلقًا!.

فغرت فاهي ببلاهة ثم أشرت عليه بإصبعي السبّابة أسألها بغرابة بها شيء من الغضب:

- هل تشكرينه؟ هل أنت سعيدة لكونه فعل بك هذا؟.

سحبت يدي لتتشابك مع الأخرى بارتباك لضحكة إزالين الناعمة، وقلت بغرابة وأنا أمثّل المشهد بيدي:

- كنتِ تحلّقين برقصتك تلك، وفجأة وقعت الثريا فوق جسدك بالضبط! وتضحكين هكذا! من أنتِ؟ قابضة أرواح!.

التفت ظافر إليّ لأرى عينيه تلمعان لي بتحذير، فضحكت بارتباك بينما تذكّرت أنه سرٌّ بيننا.. ما بال لساني!

- بل أنا أشكر صنيعه هذا.. .

قالتها إزالين لألتفت إليها بغرابة، واستطردت:

- لن يعجب الأمير بفتاة بجبيرتين.. وهذا هو ما أردناه.. أخي عبقري!.

ضحكت فضحكت بغرابة.. ونظرت له أسأل لأتأكد من ما فهمت للتوّ:

- هل قمت بتخديرها أو شيء من هذا القبيل؟ كيف لم تشعر بأي ألم! و.. وماذا عن الدماء التي كانت تخرج من فمها و...

كنت أدير نظري بين إزالين وظافر، فوجدت إزالين تغمز بعينها قائلة:

- أخبرني بشرب الكثير من الماء، ففعلت!.

تذكّرت تلك الورقة الصغيرة ذات الخطّ الفنّي، فنظرت لظافر بغير فهم، محتارة.. أريد تفسيرًا!

عقد ظافر ذراعيه أمام صدره قائلًا بهدوئه المعهود:

- أردت أن تكون معدتها مملوءة بالماء كي أستطيع التحكّم به.. حولت لونه وقوامه من ماءٍ إلى دماء أمام أعينكم، بينما لم تشعر هي بأي شيء، حتى انقباضات المعدة.. كما لم تشعر بألم لوقوع الثريا من الأساس...

اتّسعت عيناي بفزع وتساءلت بغرابة:

- تحكّمت في كل هذا!.

أومأ بهدوء، وبت أتخيّل أن كل هذا كان فقط.. تمثيلًا! وتساءلت مرّة أخرى بحرج بينما أتذكر الموقف، وأيضًا موقف نعتي له بالقاتل و.. قاسي القلب:

- لكن.. لكن.. صرختها! و.. وكل شيء!.

فقال:

- لم يكن سوى خدعة بسيطة لم تكلفني الكثير .

جحظت عيناي ونظرت لجسد إزالين قائلة بقسوة:

- كلّفتك هذا! وإن كان بلا ألم فهو ما زال موجودًا! كسور بجسدها وتلك الخدوش على وجهها ورقبتها!.

هزّ رأسه نفيًا وقال:

- كان هذا أفضل من أن أفقدها للأبد.. .

لم أعد أتحمّل الوقوف، فجسلت على طرف فراشها وعيناي ما زالتا عليه، ذلك الهادئ البارد! وأشرت إلى قلبي قائلة:

- وماذا عني؟ شعرت بقلبي يتوقّف! فقدت وعيي أيضًا!.

تحدّثت إزالين مدافعة:

- هو أخبرني فقط أنني أجيد التمثيل، بدليل أنكِ اقتنعت جدًّا، وحتى الآن لا تريدين تصديق أنها كانت مجرّد خدعة! أما أنتِ؟ كنتِ ستتوترين وترفعين بصرك للثريا كل ثانية والأخرى!.

ضحكت بغير تصديق وقلت:

- قلبي كان سيتوقّف! وأعتقد أن ظافرًا لا يريد هذا لكونه يريدني الفوز بقلب الأمير.. وبرغم تصميمه لم يبالِ بي!.

وضعت يدي على قلبي وقلت بروحٍ فارغة:

- شعرت للحظة بـ.. بالخذلان!.

ساد الصمت للحظة، وأطرقت أنا برأسي أسفًا.. لأجد ظافرًا يقترب مني يطوّق كتفيّ بيديه قائلًا:

- هيّا.. ستتأخرين عن درس الفروسية.

نهضت وابتسمت لإزالين قائلة:

- أتمنى لكِ شِ...

وقبل أن أقول «شفاءً عاجلًا» تذكّرت كونهما لا يريدان هذا، فابتسمت بارتباكٍ وقلت:

- أتمنى أن تكوني بخير!.

هزّت رأسها لي مبتسمة وتركتها بالغرفة، مرورًا بغرفة العامّة حتى وصلنا لممر هادئ.

- سنذهب أولًا للخيّاطين لتحصلي على رداء مناسب.. كي لا يعيقك هذا .

وأشار على الفستان الفضفاض الذي أرتديه فهززت رأسي بصمت وتقدّمته رغم أنني لا أعرف الطريق، لم يتبعني، لكن في أقل من ثانيتين كان قد التقط معصمي وجذبني منه، ليضمني إلى صدره دون أن أدرك ماذا يفعل!

تفاجأت من ما فعل وحاولت رفع رأسي إليه فوجدت عينيه الرماديّتين تنظران لي بهدوء، فدفنت رأسي بصدره مرّة أخرى لأتجنّب لقاء العيون هذا.. ولم أقاومه! بل تشبّثت في ردائه بكلتا يديّ وكأنني أحمي نفسي منه به نفسه! فهو حارسي، وفي نفس الوقت من جعل قلبي يخفق بذعر للدقائق القريبة السابقة! لم أكن أسمع سوى صوت دقّات قلبي.. تتداخل مع دقّات أخرى، أظنها منه هو، لكوني قريبة منه لهذه الدرجة.. وسكنت.. وسألت نفسي.. كيف لي أن أكون مستسلمة هكذا؟!

- آسف.. .

قالها ظافر.. لم أصدقه بالبداية.. لم أكن أعتقد أنه من النوع الذي يعتذر! ومن نبرته تأكدت من أنه يعنيها حقًّا! فدقّ قلبي بعنف ورفعت عيني لعينيه بحذر وتساءلت ببلاهة:

- لم؟.

رفع يده اليمنى وقرص على وجنتي بنعومة بأنامله، ويده الأخرى ما زالت تلتف حولي لتقرّبني منه، فابتلعت غصّة في حلقي وأنصت لصوته العميق، وهو يجيب عن تساؤلي، بالطبع هو لم يرد عليه لأن الإجابة معروفة، بل قال شيئًا آخر:

- أنا حريص على سلامتك، وسأكون كذلك دومًا.. لذا لا تفكري في أن قلبك سيتوقّف أبدًا...

ابتسمت وتساءلت بغباء مرّة أخرى:

- هل قمت بعمل تعويذة أو تميمة أو شيء له من هذا القبيل؟.

ونهرت سؤالي الغبي هذا.. لماذا توقّف عقلي الآن ليجعلني أقول أي شيء يخطر على بالي فجأة؟! كل ما أفكر به الآن هو شعوري بالدفء! هذا الشعور الذي يجعلني أنسى برودة الشتاء وصوت الهواء المرعب، وبدلًا من التفكير في ضوء القمر، تذكّرت دفء الشمس! تنهّدت براحة بينما قال لي:

- لدي تميمة تخصّك بالفعل.. سأريها لكِ ذات يوم.

- متى؟.

تساءلت بفضول، فضحك بطيبة وقال بصدق:

- قريبًا.. قريبًا جدًا.. أشعر بهذا!.

أخرجني من صدره لينقطع هذا الدفء فجأة، احمرّ وجهي بشدّة ونظرت حولي أتفقّد الردهة، لم يكن هناك أحد! لماذا تركني إذًا!

- سنذهب لغرفة الحياكة...

قالها وتقدّمني في السير، فهززت رأسي بشرود قائلة:

- اممم.. نعم.. سنذهب.

وتحرّكت نحوه بشرود، أسرعت الخطى قليلًا كي لا يسبقني هو بخطواته الواسعة فأضلّ الطريق.. لأنني ببساطة أدركت أنني بدون حارسي ظافر، تائهة.. بلا مأوى!

قرّرت أن أصمت كي لا يكشف تشوّش تفكيري، فسألته بريبة:

- ظافر.. اا.. هللل... هل تعرف كل ما أفكّر به طوال اليوم؟.

صمت قليلًا ثم قال بعد برهة:

- حين أنظر لوجهك فقط.. وخصوصًا عينيكِ .

وضعت يدي على فمي أفكر بشرود، ولم أسمع ضحكته المتسليّة.. بالطبع كان يقول هذا فقط ليجعلني أفكر بحريّة.. وقد كان!

خرجت من غرفة الحياكة بعد حديث قصير مع معلمة الحياكة العجوز، لأجد إيفي تنتظرني، فابتهجت لرؤيتها وابتسمت بدفء، كم تبهجني تلك الصغيرة! آهٍ لو تعلم أن كلمة صغيرة هذه هي مدح وليس ذمًّا كما تعتقد!

كنت ألف يدي حول جسدي وكأنني أخفيه، أو أخفيه فعلًا! وأتلفّت خلفي بينما أسير بجانبها لأرى ظافرًا يسير ببطء.. تاركًا لنا مساحتنا لنتحدّث بحرية، وكانت إيفي تحدّثني بلطافة:

- اعتقدت أنكِ لن تبدأي هذا التمرين بسبب الصدمة التي حدثت.. لكن.. أنا سعيدة بكونك سترين الخيول اليوم! ستبتهجين لرؤيتها كثيرًا!.

زدت من احتضان نفسي بذراعيّ، وتساءلت في نفسي:

- لمَ رداء الفروسيّة هذا ضيّق هكذا!

فأنا لا أحب أن يكون جسدي مرسومًا تحت ملابسي بوضوح، كم يشعرني هذا بالإحراج! جسدي جميلٌ ومتناسق، لكن هو لي! ملكيّة خاصة، لا أريد لأحد أن يطيل النظر إليه أبدًا!.

- معكِ حقّ...

توقّفت عن السير حين سمعت صوت ظافر مؤكّدًا على ما قلت، وقبل أن ألتفت له توقفت إيفي أيضًا، تنظر على ما يفعل بترقّب، فلقد اقترب ليقف خلفي، ووضع عباءة ظهره عليّ، ثم التفت ليربط الخيطين الرفيعين من الأمام والذي يتدلّى منهما حجران أسودان داكنان للغاية، بخطوط رمادية صعب ملاحظتها إلا عن قرب، تعجّبت من كونه قد استجاب لأفكاري بتلك السرعة.. أم أنه كان يفكر فيما كنت أفكر به أيضًا؟ هل لهذه الدرجة كان جسدي ظاهرًا للعيان؟!

تنحنحت بحرج وغمغمت بكلمة شكر، ثم أخذت يد إيفي وانطلقت بعيدًا، بينما قلبي.. يدق بغرابة!

وصلت مع إيفي للجسر المضاء من الجانبين، ليهدينا لمكان تواجد الخيول، فتساءلت هي بغرابة:

- ما بكِ؟.

ابتسمت بغرابة وأمسكت بطرف عباءة ظافر الطويلة التي غطّت معظم جسدي، وتساءلت متصنّعة عدم الفهم:

- ما بي؟ هل أبدو مرهقة؟.

تصنّعت العبث بوجهي وكأنني أتفقد حيويّته، وبينما نحن نسير ببطء ابتسمت هي.. فارتبكت.. هل علمت بما حدث منذ قليل؟ هل رأت ظافرًا يجذبني فجأة ويقربني منه؟ بالطبع لم ترَ هذا.. فالمكان كان خاليًا تمامًا... لعل ظافرًا فعل هذا.. لكن.. أريدها أن تعرف، هناك شيء ما بداخلي يحثّني على أن أحكي ما حدث.. لأنني أريد تذكّره مرّة أخرى، وكأنني أستعيده مجددًا!

- إيفي.. .

نطقت باسمها فنظرت لي مبتسمة بتساؤل، فقلت بينما نهبط الجسر بهدوء:

- هل من الطبيعي أن.. أن يحتضن الحارس الفتاة التي يحميها؟.

لوت شفتيها بابتسامة بينما تفكّر، ثم قالت بتلقائية:

- يفعل كاليب هذا بين الحين والآخر!.

نظرت لها مندهشة وقلت بصدمة:

- حقًّا؟.

هزّت رأسها وقالت مؤكدة على ما قالت، بتلقائية:

- طبعًا.. فنحن أصدقاء! مررنا بالكثير معًا.. وكما تعرفين لم يكن لديّ أي أصدقاء سواه قبل أن تأتي!.

ربّت على كتفها وابتسمت، وتوقّفنا فجأة لنجد كاليب آتيًا ممسكًا بجواد جميل جدًا، لونه هو البنّي المحبّب، بشعرٍ ناعم وطويل، يهز ذيله ليبعد عنه حشرات الليل التي تحوم حول جسده متطفّلة، فابتسمت إيفي واقتربت منه قائلةً:

- إليونورا أعرفك بثاني صديق لي هنا بعد كاليب.. قهوة!.

ضحكت بسعادة واقتربت منه قائلة:

- قهوة؟! كم أنت لطيف!.

ضحك كاليب قائلًا:

- أسميته بنفسي.. يمكنك التربيت عليه، هو مسالم تمامًا!.

ابتسمت بترقّب ورفعت يدي ببطء، أريد لمس شعره الذي يلمع مع ضوء القمر، لاحظت التفات عينيه البنيّتين الواسعتين لي، فضحكت بهدوء وقلبي يدق بحماس، وقبل أن أستطيع لمسه، سمعت ظافرًا يناديني، فالتفت له لأجده يقف بثبات ممسكًا بجواده أسود اللون.. لم أرَ جواده هذا منذ أول يوم استيقظت فيه بهذا العالم! ابتسمت بحماس وقلت، أنادي ظافرًا من مكاني:

- كاليب يلقب جواده بقهوة، فما اسم جوادك؟.

عمّ الصمت للحظة، لم يقل ظافر أي شيء ليجيبني! فتنحنحت بحرج.. كدت أن أعيد عليه سؤاله حتى تفاجأت بأنه ينصرف بجانب جواده..

احمرّ وجهي بخجل شديد واعتذرت من إيفي وحارسها كاليب وانصرفت خلف ظافر، لترفرف عباءته خلف ظهري من أثر الهواء!

اقتربت من ظافر وتساءلت بغرابة:

- هل تخفي اسم جوادك كما تخفي وجهك؟.

- لا.. بل لا أفضل الثرثرة وقت التدريب.

هكذا ردّ عليّ بينما يربّت على شعر جواده الأسود الناعم، وما هي إلا ثوانٍ حتى قال بهدوء:

- قمر...

اقتربت قليلًا منه دون الاقتراب من الجواد، وتساءلت بغرابة:

- هل يدعي قمرًا؟.

- نعم...

قالها ظافر بينما يتأكد من ثبات السرج، فابتسمت ورفعت رأسي للقمر وتساءلت مبتسمة:

- وهل هو مغرور كهذا القمر؟.

التفت لي ظافر متفاجئًا من ما أقول، وحين لاحظت ضحكت بخجل وقلت مبرّرة ما أفكر به:

- لطالما كان لديّ فكرة راسخة بعقلي.. وهي أن القمر مغرور.. كذكر الطاووس الذي يتباهي بريشه الملوَّن...

ظل ناظرًا لي.. ظننته يسخر مني بداخله.. لكنّه في حقيقة الأمر كان يبتسم بغير تصديق!

اقتربت من الجواد ببطء ووضعت يدي عليه أتحسّس نعومته، فأبعد رقبته عني قليلًا فقلت أنا أداعبه:

- لن أصدق كونك مغرورًا، ولدي شعور جيّد بأننا سوف نكون أصدقاء!.

التفت لي ظافر مرّة أخرى، فقلت بجرج:

- ربما سيفهم ما أقول!.

ضحك ظافر ثم سألني:

- هل تستطيعين رفع نفسك لامتطاء الجواد؟.

نظرت لقمر لأجده يقف بشموخ، ظهره أعلى من رأسي قليلًا.. فضحكت قائلة بشك:

- ربّما!.

ثبّت عباءة ظافر على إحدى جانبي جسدي، واقتربت من قمر، رفعت ساقي لأسندها على السرج المريح المثبّت عليه بإحكام وكدت أرفع نفسي بينما تشبّثت

بالسرج بقوّة، وفجأة تحرّك الجواد للأمام بمنتهى البرود، لأقفز أنا على ساق والأخرى معلّقة به لعدّة خطوات، هامسةً بدهشة:

- قمر انتظر! توقّف توقّف!.

اقترب منّا ظافر وثبّته بإشارة واحدة منه، واقترب مني وطوّق خصري بيديه، وبكل سهولة رفعني لأجلس على الجواد بسرعة.. فتنهّدت بغرابة قائلة:

- شكرًا! يبدو أنك معتاد على رفع الأثقال!.

ضحك بتسلّي ثم قال:

- ربّما.. لكنّكِ لستِ حملًا.. .

ابتسمت لمجاملته على كوني خفيفة الوزن، وتلفّت حولي بترقّب قائلة بشرود:

- هل تأخّر المدرّب؟ اعتقدت أنه سوف يوبّخني على تأخّري بالحضور!.

وبينما أنا شاردة سمعته يقول:

- أعلم ما حدث لكِ بالدقائق الماضية.. فلن أوبّخك، بل سنبدأ الدرس على الفور...

عدت بنظري له مبتسمة بغير تصديق، وسألته:

- أتعني.. أنك.. أنت؟.

أومأ بإيجاب، فصفّقت كفيّ بحماس وقلت بتحفّز:

- نعم! كم هذا رائع! فالفروسيّة تليق بك ظافر!.

رفع رأسه إليّ فلمحت بعض التجاعيد قد تكوّنت حول عينيه بينما شعور دافئ اجتاح حواسّي حين تساءلت بشرود.. هل ابتسمت عيناه للتوّ؟



{١٦}

= كتب، دروس، وحارس خان أمانته!=

أحببت درس الفروسية وركوب الخيل كثيرًا، أطاعني قمر بوجود ظافر بالقرب منه، لكن عندما يبتعد ظافر عني مسافة ليرى كيف سأصل إليه يعاندني قليلًا، وحين يسمع صوت ظافر يشجّعه كان يصهل بطاعة ويصبح مسالمًا للغاية! فبدت لي علاقتهما وطيدة للغاية، فظافر الذي يتحكّم به دومًا..

تعلمت أن لا أُقبل على الحصان من الخلف أبدًا، يجب أن آتيه من مكان يراني به، مع إصدار صوت خفيف كي لا يفزع، نصحني ظافر بمناداته باسمه كتحية له، أيضًا التربيت على ناصيته أو رقبته، فيصهل الحصان وكأنه يرد السلام! أراني كيفية تركيب السرج سريعًا وقال أنه سيريني إياها أكثر من مرّة فيما بعد حتى ترسخ الطريقة في ذهني؛ ليكون من السهل عليّ تجهيز أي جواد فيما بعد، قام بامتطاء الجواد أمامي برشاقة ليخبرني كيف أفعل، فالركوب يكون من جهة اليسار -كما هو تركيب السرج- وبحركة سريعة وخفيفة، أجلس بوضع مستقيم، وحين أريد النزول أثبت الحصان وأنزل إلى يساره أيضًا! كم بدا هذا سهلًا، لكن كانت مشكلتي فقط في الركوب والنزول فكان يساعدني ظافر بهذا.. عدا ذلك، كنت أقود ببراعة فطريّة كفارسة، أنعطف يمينًا ويسارًا مستخدمة ذلك اللجام في يدي، مع حركة بسيطة من قدمي لجسد قمر. قال ظافر أنه فخور بي لأنني سريعة التعلم، فسعدت بهذا حقًّا! وتحمّست لأتعلم شيئًا جديدًا، شيء سيكسبني الكثير من المعرفة.. وهو قراءة الكتاب الذي استعرته من إيفي!

تناولت إفطاري بهدوء، وعيني تراقب المنضدة الأرضية التي رأيت عروس الأمير بها ليلة أمس حين نهضت فجأة.. لم أشعر برغبة حقيقيّة في تناول الطعام فتركته كعادتي التي لم أدركها إلا اليوم. خمنت؛ ربما أكون ضعيفة الشهية فيما يتعلّق بالطعام، فأنا أعطي نصف طعامي لإيفي، والآن لا أستطيع إكمال النصف المخصص لي! لا بأس، فأنا أشعر بالشبع.. نهضت لأغسل يدي وقابلت ظافرًا بالردهة، كان يتحدّث مع حارس إيفي والذي حين رآني رفع يده لي بتحيّة هادئة فابتسمت، وأكملت مضيًا في طريقي لفراشي..

مرّت دقائق وأنا أحاول التركيز في هذا الكتاب، فبالرغم من أنني استخدمت فراشًا آخر غير فراشي لأجلس فيه ليكون بعيدًا عن ثرثرة العرائس والحرس لم يكن هذا كافيًا.. أريد بعض الهدوء! القراءة ليست سهلة بالنسبة لي كما تبدو لبعض الناس؛ أعتقد أنني كنت ضعيفة قليلًا في الدراسة وسيأخذ مني التركيز أضعافًا مضاعفة من الوقت والجهدّ!

- ارتدي ملابس ثقيلة، سنذهب للمكتبة...

رفعت عيني من بين سطور الكتاب لأنظر لظافر الذي وقف أمام الفراش، يبدو أنه هنا منذ فترة كافية ليشعر بمعاناتي! فابتهجت أنا وتركت له الكتاب وأسرعت لفراشي، أخرجت الصندوق الخشبي الكبير من أسفله والتقطت ذلك الشيء الذي أحب ارتداءه دومًا.. عباءة الظهر، ذات غطاء الرأس المتصل بها.. كم تشعرني بالاحتواء، كما أنها تعطيني شعورًا لطيفًا حين تمر نسمات الهواء بينها وبين جسدي فترفرف، وأغمض أنا عيني وأتخيّل أنني أقف على أعلى تلّة، عاقدة ذراعيّ أمام صدري بتحدٍ، وأقدم على شيء خرافي، كإنقاذ العالم مثلًا!

سمعت ظافرًا يضحك ضحكته الهادئة القصيرة، فالتفت له بنظرة ذات معنى: «هل قرأت أفكاري للتوّ؟»

فهزّ كتفيه ببراءة، فتقدّمته أنا كي لا يرى وجهي ويستطيع العبث وسماع أفكاري الطفولية الساذجة، ولم أكن ألتفت لفكرة أنه يستطيع قراءة أفكاري من على بعد كبير جدًا دون النظر إليّ، بل بمجرّد التفكير بي!

دلفت للمكتبة عبر بابٍ خشبي ثقيل للغاية حين تدفعه للأمام أو الخلف، والذي بالطبع ساعدني ظافر في فتحه، وذهلت من ما رأيت! هي مكتبة عالية الأرفف، كثيرة الكتب من شتّى الأنواع والأحجام، بها منضدة كبيرة باللون البني وضع عليها مفرش أنيق هادئ اللون، بمقاعد كثيرة، عديدة.. لكنّها خالية!

طرقت الأرض بحذائي ليصدر صدى عظيمًا، وسرعان ما اختفى حين خطوت على البساط العريق، وتساءلت بشرود:

- لمَ هي خاوية هكذا؟ ألا أحد يحب القراءة هنا؟.

وسرعان ما وجدت ظافرًا يتّجه لإحدى الزوايا بينما يحدّثني دون استخدام التواصل العقلي بيننا، ليصدح صوته في أرجاء المكان بطريقة مثيرة:

- لن تحصلي على علمٍ كافٍ من هنا إلا في مجالات محدودة...

رأيته يجمع بعض الكتب بطريقة مدروسة، يسندها بين ذراعه اليسرى وصدره وبيده اليمنى يختار كتبًا أخرى، بينما يستطرد:

- فالعلوم مثل الأحياء، والرياضيات، والفيزياء والكيمياء جميعها متوفرة هنا بكثرة، وأيضًا الأدب كالروايات والشعر والقصص القصيرة...

وأضاف:

- أما بالنسبة للجغرافيا والتاريخ، فلن تجديهم في أي مكان سوى أرض الواقع...

تعجّبت من ما قال فرفعت صوتي بغرابة:

- كيف ذلك وكتاب إيفي هو كتاب تاريخي؟ مذكور به عدّة مناطق جغرافية! أعني.. لقد عرفت منه أننا في مملكة الـ...

قاطعني:

- معلومات ناقصة، أو غير صحيحة.. سأصحّحها لكِ أولًا بأول...

فهمت مقصده، فتساءلت بغرابة بينما أستمع لصدى صوتي بشرود:

- هذا يعني أنك كحارس، وبقية الحرس، أيضًا الوزراء والأمير نفسه فقط من تعرفون جغرافية هذا العالم وتاريخه؟ لأنكم بطبيعة الحال تتنقّلون وتسافرون؟.

انتهى ظافر من جمع ما يريد واقترب مني، تخطّاني واضعًا الكتب التي جمعها بطريقة غريبة، فأمام كل مقعد كان يضع كتابًا، حتى انتهى بوضع آخر كتاب وجلس أمامه، على رأس المنضدة جهة اليسار، ولم ينسَ أن يجيبني على ما سألت:

- ليس كل الحرس.. أما الأمير ووزراؤه فنعم بالتأكيد، هذه طبيعة عملهم.. بالرغم من أنهم يتقاعسون أحيانًا...

هززت رأسي باهتمام، ثم تساءلت بفضول غلب عليه المزاح بينما أشير لما فعله للتوّ بالكتب:

- هل ستقيم اجتماعًا؟.

أشار لي على رأس المنضدة من الجهة الأخرى، فذهبت لأجلس، لأغوص في هذا المقعد الوثير المريح، هو مقعد خشبي، مجهز بوسائد ومسند للظهر، للجلوس الطويل..

- لديكِ درس الرقص، الفروسية وهي ليست كل يوم، إفطار، وقت فراغ، درس حياكة، وقت فراغ ثم النوم.. سنستغل وقت الفراغ بالقراءة، وستقرأين كل هذا.. وأنا لا أمزح في هذا أبدًا...

ابتهجت وتحمّست كثيرًا لجدّيته في الأمر، لكنّي تذكّرت علّتي بالقراءة وبطئي، فتساءلت:

- وهل ستساعدني في هذا؟.

أومأ مجيبًا:

- دومًا وأبدًا...

ابتسمت بامتنان وفتحت الكتاب بيدي بعد أن ملأت نظري من غلافه المميّز ذي النقوش الغريبة، وحين فتحته امتقع وجهي بغرابة، فنظرت لظافر وصحت به:

- لا أرى سوى الطلاسم!.

رأيته يخرج شيئًا ما من جيب ملابسه القريب من صدره، والذي هو من الجهة التي تلتصق بجسده، فكان دفترًا وقلمًا، أخذ يكتب وبينما أنا متعجّبة من ما يفعل، وجدته يحدّثني بعقلي:

- أول آداب المكتبة هو الهدوء.. لا نريد أن تكون أصواتنا مسموعة للعامة.

فرفعت صوتي بتعجّب طفولي:

- لكن لا أحد هنا، من نزعج؟!.

سمعته يجيب:

- هذه المكتبة تقع بالضبط تحت غرفة الأمير بالطابق العلوي.. ولا أثق بفكرة أننا نجلس وحدنا الآن...

وضعت يدي على فمي بدهشة ونظرت لسقف المكتبة بإعجاب، وقلت بحماسٍ هامس مستخدمة عقلي هذه المرّة:

- هل تعني أنه يمكن لسموّه سماعنا؟ أو رؤيتنا؟.

هزّ كتفيه باستسلامٍ وهو ما زال يكتب بعض الكلمات وقال ردًّا على تعجّبي:

- تلقّي العلم هنا يعتبر فعلًا شاذًّا بعض الشيء.. فلا تثقي بوجودك هنا وحيدة، يوجد دومًا من يراقب...

لويت شفتيّ أفكّر فيما قال، وقلت بتحدٍ:

- لا عيب في تلقي العلم، فهو ما سيوصلني للأمير!.

- بالضبط ركّزي على هذا العلم.. في صمت...

وقبل أن يصلني آخر كلماته، طارت لي الورقة -التي انتزعها من مفكّرته- بطريقة سحرية، حتى استقرّت أمامي بالضبط على يمين الكتاب! فاندهشت أنا ووجدت ظافرًا يقول:

- هذه لغتك الأولى، سترين مفردات غريبة منها بالكتاب لكن لا بأس، ستكون هكذا في البداية فقط، وما في تلك الورقة هي المفردات السهلة القصيرة، والتي إن جمعت أكثر من حرف منها مع حروف كلمة أخرى تكوّنت كلمة جديدة...

فقلت بتركيز:

- أتقصد أن أعرف الكلمات الصغيرة لأستطيع تكوين منها ما هو أكبر وأصعب ليساعدني في قراءة الكتاب؟.

- مؤكّد، هيّا انطلقي...

قالها بتشجيع فابتسمت وبدأت في قراءة الورقة كطفلٍ يتلقّى أولى دروسه بالتعليم الأساسي، ولم أدرِ أن ظافرًا -بالرغم من أنه يكتب بعض الأشياء الأخرى- يراقبني مبتسمًا، فخورًا بما أفعل!



انتهيت للتوّ من قراءة أول كتاب! كدت أن أنتقل للكتاب الآخر لكن استوقفني ظافر قائلًا:

- مهلًا...

رفعت عيني المجهدة إليه بتساؤل فقال:

- كم مملكة بهذا العالم؟.

ارتبكت من سؤاله، فبالرغم من أن هذا الكتاب كان عن الممالك الثلاث، فإنني ارتبكت قليلًا.. وما هي إلا ثوانٍ حتى قلت:

- ثلاث ممالك؛ مملكة الشمال، والتي بها هذه القلعة، أيضًا مملكة الجنوب والغرب.. ولا يوجد مملكة شرقيّة.

صحّح لي:

- بل توجد مملكة شرقيّة، لكنّها مهجورة بعد أن تولّى الأمير الحكم بعد... بعد من؟.

ها هو سؤال آخر! فأجبته بغير تردد:

- والدة الملك!.

ضحك وقال بمراوغة:

- ليس من عمّه مثلًا؟.

هل يسخر مني لعدم ذكري اسمه؟ عبست وشبكت أصابعي بتوتّر قائلة:

- تولّى الأمير غيث الحكم بعد أن توفّي الملك الأعظم «إياس ساري» عام...

عددت على أصابعي شيئًا ما، وسألت ببلاهة:

- في أي عام نحن الآن؟.

ابتسم وأجابني بتسلّي، فرفعت كلتا يديّ بأرقامٍ متتالية قائلة:

- توفي منذ خمسة أعوام من الآن وكان في العقد الخامس من العمر، حيث إن الأمير الآن يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا.. لماذا يوجد الكثير من رقم خمسة؟!.

قلتها ضاحكة لأخفف من وطأة توتّري بقول كل هذه المعلومات دفعة واحدة، فصفّق ظافر بيديه قائلًا:

- ممتازة يا إليونورا.. تلميذة نجيبة...

ابتسمت بخجل لإطرائه قائلة:

- الفضل يرجع لكلماتك، لقد ساعدتني كثيرًا على فهم الكتاب...

قبل أن أنهض استوقفني بجديّة:

- ليس بعد!.

فتنهّدت وتأهبت لعدة أسئلة أخرى، ليسألني:

- بماذا يفسّر اسم الملك.. «إياس ساري»؟.

فابتسمت قائلة بثقة:

- هذا سهل!.

أرجعت خصلة من شعري خلف أذني ونظرت لظافر مبتسمة أشرح بيدي:

- إياس يعني الذئب.. وساري معناه المرافق في الليل، لا أدري لماذا لم يذكروا ذلك في الكتاب، عرفت هذا من الورقة فقط...

أضفت:

- مكتوب هنا بالكتاب أن هذا يعني اجتماع صفتين واحدة عن القوّة والذكاء والأخرى عن الثبات والصمود.

أومأ برأسه وقال بسخرية:

– حسنًا.. لن أصحح هذا وقد اكتشفت بنفسك؛ إن الكتب تجمّل التاريخ!.

ابتسمت بارتباك قائلة:

– وهل لم يكن كذلك؟ أعني ذكيًا صامدًا؟.

صمت ظافر قليلًا لكن سرعان ما أجابني:

– بلى.. كان ذكيًّا، لكنّني أفضل استخدام الذكاء في الخير.. وليس العكس.

ثم قرّب إصبعه السبّابه إلى موضع فمه وكأنه يقول:

– أبقي هذا سرًّا دون جدال.. فأومأت وانتظرت السؤال الثاني...

ساد الصمت لحظة.. حتى وجدت ظافرًا يسألني بصوتٍ متحشرج:

– وماذا عن الملكة؟.

لم أبدِ تعليقًا صريحًا على نبرة صوته، بل نظرت له بتمعّن، ثم أجبت:

– كانت جميلة، أردت أن أرى لها رسمًا أو حتى بعض الكلمات الوصفية، إلا أنني لم أجد أي شيء عنها سوى اسمها.. هي جينروز، من مقطعين، ويعني الوردة النضرة الجميلة حسب ما كتبته أنت بالورقة، أما عن الكتاب فذكر أنها محبة لشريكها، مرحة، اجتماعية ومليئة بالحيوية...

تنهّدت واستطردت سريعًا:

– كم أردت أن أقابلها وقتها! يقال إنها فقدت حياتها بمرضٍ ما لم يكن له دواء.. و.. هذا فقط...

عمّ الصمت فسألت ظافرًا:

- هل شهدت عصرهما؟ أعني الملك الأعظم والملكة؟.

أومأ ظافر رأسه إيجابًا، وقال بشرود:

- كنت ستسعدين بمجرّد النظر إليها فقط.. دون أن تعلمي شيئًا آخر عنها...

ابتسم وأنا أتخيّلها.. فسألته بفضول:

- كيف كانت؟ صف لي جمالها!.

تنحنح ظافر قائلًا:

- لن أكون دقيقًا بوصفي...

وانتقل لموضوعٍ آخر قبل أن أفكر في ما قال للتوّ:

- حسنًا يمكنك الانتقال للكتاب الثاني، اجلسي على مقعد مختلف كي لا تملّي...

ابتسمت بحماس ونهضت لأجلس على المقعد المجاور أمام الكتاب الآخر، وبينما فعلت هذا تساءلت:

- كيف لظافر أن لا يكون دقيقًا بالوصف؟ فمن قرأ كل هذه الكتب سيكون سهلًا عليه قول، وكتابة أي شيء! وقبل أن أفتقد خطّه المرسوم بدقّة طارت إليّ ورقته الثانية، وقال لي:

- كتاب القلعة البيضاء.. مهم جدًا لمعرفة المكان الذي تعيشين به...

تحسّست غلاف الكتاب بيدي، وكان المرسوم على قطعة القماش المغلّفة للكتاب هي قلعة تشبه كثيرًا تلك التي نحن بها الآن.. لكن هل هي فعلًا بيضاء؟



انتهيت من قراءة ثلاثة كتب ثم نبّهني ظافر لضرورة الانصراف لأتناول لحضور درس الحياكة، فذهبت معه أعيد الكتب لمكانها، فبدأ هو من أقصى اليمين وبدأت أنا من اليسار، والتقينا في الوسط، لأبتسم بهدوء، وقبل أن أذهب، ربّت على رأسي قائلًا:

- أحسنت.. لقد أنجزت الكثير ببداية اليوم.

ابتسمت بسعادة حقيقيّة وسرت أمامه أباعد بين خطواتي وأقفز بسعادة كطفلةٍ تلقّت الإخبار بالعلامة النهائية! حتى وصلت لطابق العرائس، فاستقبلتني المعلمة ببهجة:

- ها قد وصلت الجميلة الموهوبة! أحضرت لكِ شيئًا مميّزًا اليوم!.

ضحكت بفرح وهرولت إليها لأتربّع بجانبها وبجانب إيفي التي أشارت لي بحماس، لأجد أن ما تعطيه لي كانت بكرة ممتلئة من الخيط الناعم المجدول باللون البنّي بالدرجة المعتدلة، وإبرة سميكة واحدة ذات خطّاف، فلمعت عيناي وقلت بتلقائيّة:

- سأصنع بها شعرًا لدمية إيفي! شكرًا سيّدتي!.

ضحكت إيفي وحدّثت المعلمة:

- عرفت أنها ستفكر بالدمية التي أعطتها لي، فهي صديقتي!.

ابتسمت واهتززت بحماس أنا وإيفي وأصدرنا أصواتًا تنم عن سعادتنا بينما لففت طرف الخيط على إصبعي بحماس، والمعلمة تضحك، الفتاة ذات الحكايات تشاركنا الضحك، كما فعلت جلاديس، لا أعتقد أنها سمعت ما قلناه تحديدًا لكن من الجيد أن أراها تضحك على شيء آخر غير تلك السخرية التي توجّه إليها..

قمت بغزل الخيط بمهارة فطرية وحين انتهيت منه أخذت الدمية من إيفي، التي راقبتني وأنا أثبّت لها الشعر البني الذي يشبه شعرها هي، فصفّقت بحرارة حين انتهيت واحمرّت وجنتاها بحماس وأخذت مني الدمية تحتضنها.. قائلة:

- شكرًا لكِ صديقتي!.

تناولنا الغداء بصورة عاديّة لكنّي لاحظت انزواء جلاديس بعيدًا، تأكل وحيدة على فراشها، بالرغم من أننا بتنا نتناول طعامنا بجوار المنضدة الأرضية منذ أن تناقص عددنا بشكلٍ ملحوظ.. لا أظنها غيرة.. تقول بعض الفتيات أنها تشعر بذلك لأن الأمير قد طلب ثلاث عرائس منّا دفعة واحدة! لكن لا، فلا أعتقد أنها من هذا النوع من الفتيات، فهي لا ترى غير نفسها، تذكّرت رؤيتها سابقًا تبتسم بشرود بينما تمشّط شعرها الطويل بلون البندق، تعاني قليلًا في تمشيطه لكن لا بأس، لا يظهر الامتعاض على وجهها أبدًا، تضع على خصلاته مستحضرًا تجميليًّا في صورة زيتيّة لفرده أثناء النوم، تواظب عليه يوميًّا وتغسله باليوم التالي، وسمعتها تقول أن الماشطة قد صنعته لها خصّيصًا من موادٍ طبيعيّة آمنة.. هي ليست جميلة لكنّها تحاول. ابتسمت وأخذت تفّاحة لأنهي بها طعامي بعد أن تركت أكثر من نصفه، وذهبت تجاهها، جلست على طرف فراشها بلا استئذان قائلة:

– لماذا تأكلين وحدك؟ هل ضايقتكِ إحدى العرائس مُج..؟.

كدت أن أقول «مُجدّدًا. لكنّني ابتلعتها قبل أن تصل لطرف لساني، لم أرد أن أشعرها بالاستياء.. فوجدتها تبتسم لي قائلة:

– صوتك خفيض للغاية.. سمعتك لكن، هل يمكنك رفعه قليلًا عند التحدّث إليّ؟ لدي مشكلة طفيفة بالسمع.. خصوصًا حين يكون هناك أكثر من شخص يتحدّث.

هززت رأسي وقلت بنبرة أعلى صوتًا:

– لا تشغلي بالك بهذا، سأكون حريصة على أن يصل صوتي لك!.

سمعت ظافرًا يناديني بعقله:

– لماذا تصرّين على ترك طعامك لتلك الفتاة؟ ستفسدين شكل جسدك!.

تباعدت المسافة بين شفتيّ بشرود بينما أقضم تفّاحتي ورددت عليه:

- لقد اكتفيت من الطعام، ولا أحب تناول تلك الحلوى كثيرة السكّر، تصيبني بالقرف...

وقبل أن يقول أي شيء آخر لاحظت أن جلاديس لم تأكل شيئًا! فقطبت حاجبيّ بغرابة وسألتها بتلك النبرة التي تجعلها تسمع صوتي المنزعج بوضوح:

- لم تتذوّقي الطعام بعد؟ يجب أن تنهيه بسرعة قبل أن تأتي الخادمات لأخذ الأطباق!.

هزّت رأسها نفيًا ببطء وأبعدت الطعام وأمسكت بمعدتها، فسألتها بقلق:

- ما بك؟.

نظرت حولي أبحث عن حارسها، فقالت هي:

- أشعر بالخوف.. معدتي منقبضة ولا أريد الطعام، سيزيد حالتي سوءًا بلا شك.

سألتها بدهشة:

- أين حارسك؟ لا أراه بجوارك كما اعتدت هذا!.

قالت بأسف:

- ذهب لتلقّي العقاب.. لقد تسبب لي بمشكلة، وهي سبب ما أشعر به الآن!.

أرخيت حاجبيّ بصعوبة وأنا كلّي آذان صاغية، لتحكي هي لي وقد وجدت في عيني الاهتمام:

- كنت أمتطي الخيل وأسير ببطء، حتى أتت إليّ بعض العرائس وجيادهن يركضون إليّ، شعرت بالقلق من كل تلك الأصوات الخافتة المتداخلة، لقد كانوا يتحدّثون أيضًا، مرّوا بجانبي ولم أسمع ما قالوه لي.. وبعد قليل أتى حارسي من بعيد قائلًا:

- هيًّا، الطريق خالٍ يمكنك تجربة جعل الجواد يسير في خطٍ مستقيم...

ابتسمت ولم أعر لحديث العرائس انتباهًا، ونظرت لحارسي قبل أن أنطلق بالجواد، ضربت جسده بقدمي بهدوء وانطلق بي، وبينما أنا أمسك باللجام، وأنظر للأسفل على الجانبين لكوني قلقة من أن يتعثّر الجواد بشيء ما -وقد حدث أكثر من مرّة- فاجأني شيء غريب، جعلني أقبض على اللجام بقوّة حتى أذيت باطن يدي...

مدّت كلتا يديها تفردهما أمامي بعد أن كانت تضعهما تحت الغطاء تحتضن بهما جسدها، فرأيت خطوطًا حمراء تحوّلت للونٍ داكن قليلًا تظهر من شريطين أبيضين خفيفين لم أرهما إلا الآن، فاقشعرّ بدني وأخذت يدها أربّت عليها، وقلت لها بفضولٍ وذعر:

- ماذا رأيت؟.

ابتلعتّ غصّة في حلقها، ومسحت على مقدمة شعرها غير الملساء تمامًا قائلة بريبة، بينما عيناها تنظران حولها بتقزّز:

- جثّة! جثّة فتاة نعرفها!.

شهقت بصدمة ورجوتها أن تفسّر لي ماذا رأت بالضبط ففعلت هذا:

- كانت ترتدي فستانًا شفّافًا باللون الأبيض.. أحد الفساتين ذات الثقوب الواسعة بنقوش الورود تعرفينها.. لكنّها كانت ترتديها على لون جسدها العاري دون وجود أي شيء يستره من الأسفل... شعرها ممزّق بوحشيّة، لم يخفِ وجهها رغم تناثره عليه، رأيت ساقيها تملأهما الخدوش الطولية والعرضية والتي قد تلوّثت بفعل الطين.. وحين اقترب حارسي مني بالمصباح في يده، وضحت الرؤية أكثر، ورأيت أن أظافر قدميها قد تم اقتلاعها.. ليحلّ مكانها اللون الأحمر.. هي دماؤها المتحجّرة فظيعة اللون والمنظر!.

وضعت يدي على فمي وعيناي جاحظتان بغير تصديق، وفي نفس اللحظة قالت جلاديس بشفتين مرتعشتين قبل أن تفقد ما تبقّى لها من أعصابٍ وتبكي:

- وكانت حيّة! أعتقد أنني لم أكن أسمع شيئًا بوضوح حتى قالت لي «ابتعدي أيتها الحقيرة أنتِ السبب في عذابي! أنتِ من جعلتني عبدة يفعلون فيّ أي شيء يريدونه!».. ليتضح لي أن هذا كان عذابًا.. وليس مجرّد دفن.. دفنوها حيّة بعد أن عذّبوها!.

انفجرت باكية فاحتضنتها رغمًا عني وقلبي يخفق بعنف، أصبت بالذعر واقشعرّ بدني لمجرد التخيّل، إذًا ماذا إن كنت أنا التي أمام تلك المدفونة حيّة؟!

- هل كانت تقصدني أنا؟ لكن.. لم أفعل أي شيء سيئ لأحد! لم أكن قط عدوّة الفتيات هنا!.

قالتها بذعر وجسدها يرتعش بين ذراعيّ وبأنفاسي الهادرة قلت لها أهدئها:

- لم تكن تقصدك بالطبع! أظنها أرادت أن تخيفك ليس إلّا! لن تكون موجودة في المرّة المقبلة! سيحرص الحارس على عدم مرورك من تلك الجهة أبدًا أنا واثقة!.

سمعت صوت الفتاة ذات الحكايات تتساءل:

- هل ما سمعته للتوّ صحيح؟.

نظرت لها بذعر قائلة:

- قالت أنها رأته!.

ابتسمت بشرودٍ قائلة:

- أعتقد أنني حلمت بشيء مثل هذا من قبل.. فتيات تتعذّب.. يقتلعون أظافرهن وشعراتهن شعرة شعرة...

هدرت بها بانفعال:

- هل ترين أن الموقف مناسب لتلك الحكايات المرعبة؟ المسكينة مذعورة!.

هزّت رأسها بأسف وقالت بلهجة عادية:

- لا أظن أنها سمعتني من الأساس لكن.. حسنًا كما تقولين.. سأدخرها لتكون حكاية قبل النوم...

نظرت لها بفضول وأردت أن أسألها عن الحلم الذي رأته.. فأنا أيضًا قد شاهدت شيئًا مشابهًا أحلّ بي الذعر!

بعد قليل سمعنا صوت المشرفة جليندا تحيّينا، وتنتظر لأخذ الثلاث عرائس اللاتي يريدهنّ الأمير، ولدهشتي، ربّتت على جلاديس التي هدأت واستأذنت قليلًا، ووقفت أراقب من ستأخذ جليندا وتفاجأت بأنهن أقل ثلاث عرائس جمالًا بيننا! تهامست العديد من الفتيات بغيرة، وسمعت إحداهن تقول بغرابة:

- أنا لا أرى نفسي فائقة الجمال، لكنّني بالطبع أجمل منهنّ! أهذا ذوق الأمير الذي يخبروننا عنه دومًا؟.

وقالت أخرى:

- أنا أستحمّ أكثر منها!.

قالتها مشير لإحداهنّ فقلت أنا بعقلي:

- هناك شيء خاطئ!.

أدرت وجهي وقمت بتغيير صوتي قليلًا وسألت بفضول بصوتٍ مسموع:

- جليندا، هل تأكدت من أن الأمير قد طلبهنّ أم أن هناك خطأ ما؟!.

نظرت الفتيات لليمين واليسار يبحثن عن من سألت السؤال، يبحثن عني، وقمت أنا بالمثل، أدور بعيني بينهم ببراءة.. ماذا؟! أريد معرفة الحقيقة ليس أكثر!

- نعم آنستي، لقد اختارهنّ بالفعل، يريد مواصفات خاصّة هذه المرّة...

شهقت الفتيات بغرابة حين وصلت ثلاثتهنّ لجليندا وعلى وجوههن تكبّر وُلِد حديثًا بمنتهى الوضوح، فقالت إحدى العرائس بملل:

- حسنًا دعوه يفعل كما يشاء، فليس لديه اختيارات عديدة كالسابق!.

انصرفت العرائس كل واحدة إلى ما كانت تفعل سابقًا، ولم ينصرف قول تلك العروس عن ذهني، وخمّنت.. ربّما كلامها صحيح! ربما هو يفعل هذا لأن الجميلات قد رحلن.. ربما هو لا يعرف أن هناك العديد من الجميلات هنا! جلاديس تعتبر جميلة، وفتاة الحكايات، لديها شعر مموّج يليق بها.. وإيفي، وأنا! أردت أن أقول إزالين لكن لقد أخرجها ظافر من اللعبة، فالأمير حقًّا لا يدرك الاختيارات التي لديه! لهذا، يجب عليّ التأكّد من ظهوري بحفل عيد مولده السادس والعشرين.. بالمناسبة.. متى يكون هذا؟!

لم أقرأ أي شيء مثير يخص سموّ الأمير بعد، وهذا يثير جنوني، وفجأة وبدون أي مقدّمات وجدت نفسي أذهب للفتاة ذات الحكايات أهمس في أذنها:

- لا تبدأي حكاياتك دون أن تتأكدي من كوني جالسة معكنّ.. سأذهب للخارج قليلًا...

وقبل أن ألتفت سألتني بفضول:

- حسنًا لكن إلى أين؟.

فأجبتها أنا بتردد:

- سأزور إزالين لبعض الوقت...

وانصرفت بسرعة أنادي ظافرًا بعقلي، والذي لا أدري أين اختفى فجأة!

أبطأت من خطواتي ما إن وصلت بالقرب من المكتبة وحدي، ونظرت حولي متفحّصة الوضع، فهذا الطابق آمن، لكن يشعرك بأن أحدهم يتلصّص عليك عن بعد، وقد رسخت هذه الفكرة بعقلي خصوصًا بعد أن قال ظافر:

- تلقّي العلم هنا يعتبر فعلًا شاذًّا بعض الشيء.. فلا تثقي بوجودك هنا وحيدة، يوجد دومًا من يراقب...

ابتلعت غصّة مسنّنة بحلقي ودفعت الباب الثقيل بكل قوّتي، لم أستطع أن أزيحه ولو لبعض الشيء، فزفرت بضيق.. وقبل أن أفقد الأمل سمعت صوت خطوات بالقرب مني، فهمست بدهشة ممزوجة بالحماس:

- ظافر! ها قد أتيت! ساعدني فقط لدفع هذا الباب الـ.. ثقيل!.

قلت آخر كلمة ببطء وبغرابة شديدة، وهذا لأنني لم أجد ظافرًا حين كنت ألتفت محدثة إياه، بل وجدت شخصًا آخر.. حارس إزالين!

تساءلت بنفس التعبير على وجهي:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟.

ابتعدت خطوة للخلف لألتصق بالباب حين وجدته يقترب قائلًا:

- أنتِ هنا أيضًا، فما المشكلة؟.

دفع الباب الذي استند عليه ولدهشتي قد فتحه، وبرغم عدم فعله ذلك بهدوء وسهولة -كما فعل ظافر- كنت ممتنّة له، فإن هذا يفي بالغرض. قلت هامسةً بينما أبتعد عن جسده لداخل المكتبة:

- شكرًا لمساعدتك.. يمكنك الذهاب لا أريد أن أعطلك أكثر من هذا...

قلتها في محاولة لصرفه، إلا أنه تبعني وترك الباب يُغلق بقوّة وقال بهدوءٍ مستفزّ:

– لقد وصلت لوجهتي على أيّة حال.. لا تشغلي نفسك بي، تصرفي بطبيعتك!.

واستطرد:

– سأنتظرك لتأتين بما تريدين وأساعدك في فتح الباب للخروج، بالطبع لا تريدين أن تبقي هنا حتى الغد؟!.

فُتحت شفتاي قليلًا ببلاهة، وهززت رأسي مطلقة: «حسنًا» بهمس، واتّجهت لذلك الرفّ الذي تقابلت أنا وظافر عنده بينما نودع الكتب لمكانها الأساسي، وأخرجت ورقة من جيب ردائي الواسع، وقرأت أسماء الكتب بها بتركيز هامس، وحدّثت نفسي:

– لقد قرأت بالفعل القلعة البيضاء.. هل يمكنني إذًا بدأ القراءة بكتاب الأمير غيث الثاني؟.

تناولت الكتاب بين يدي، والذي أعجبني غلافه للغاية؛ بتاج بارز للخارج قليلًا مرسومٌ عليه، وضعت يدي على الغلاف أتحسّسه، أتحسس ذلك التاج الذهبي المرصّع.. لكن حين وصلت لإحدى الأجزاء المدبّبة بالتاج تأوهت بألم، لأكتشف أن ذلك الجزء المدبّب قد جذب بعضًا من جلد إصبعي، ليزيله بقسوة ويترك لي تجمّعًا دمويًا صغيرًا باللون الأحمر الداكن!

وقع الكتاب رغمًا عني حين وضعت أنا إصبعي في فمي بسرعة، أهدئ من ألمه بلعق ذلك السائل الأحمر منفّر الطعم بلساني، وهويت بيدي الأخرى ألتقط الكتاب، وحين رفعت جسدي لأقف كما كنت، تفاجأت بوجود الحارس السخيف يقف خلفي، فتجاوزته بعدم اهتمام مع حرصي لعدم لمسه بينما ما زال طرف إصبعي بفمي ويدي الأخرى تقرّب الكتاب مني لتضمّه إليّ، وقبل أن أدرك أنه يستدير إليّ، تفاجأت بيديه القاسيتين تقيّدان كتفيّ بإحكام، ليلقي بي أرضًا بقسوة! صرخت فهوى على فمي ضاغطًا عليه بيده، بينما جسده جالس فوقي ليشلّ حركتي، جحظت عيناي بذعر ودقّات قلبي تتزايد بشعور الخطر هذا، الأدرينالين

يتدفّق بقوّة في عروقي ليجعلني أتحرّك أسفله بجنون، أحاول التلويح بذراعيّ في الهواء لأضربه بهما وأبتعد، وقدماي تحاولان الارتفاع وخصوصًا ركبتي التي تريد ركله ركلة ممتازة، لكن جسده الثقيل منعني تمامًا من هذا بكل برود هذا العالم، وناديت اسم ظافر أكثر من مرّة من بين صراخي. اقترب ذلك الأحمق من أذني وهمس بصوتٍ أعلى من صوت شهقاتي المكتومة:

- أنتِ جميلة جدًّا إليونورا.. وهذا ليس عدلًا!.

هززت رأسي للجانبين لأبعد أنفاسه القذرة الساخنة عن أذني، وبدأ جسدي بالارتعاش أكثر وأكثر... وسمعته يقول بوضوح:

- لا يتسنّى لي الكثير من الوقت لرؤيتك وحدك دون حارسك الغامض.. وما إن وجدتك تسيرين وحدك عرفت بأنها فرصتي... والفرصة تأتي مرّة واحدة فقط!.

لم أكف للحظة عن التحرّك والتململ أسفل جسده الثقيل، فضحك هو قائلًا كشيطانٍ يوسوس بأذني:

- كفي عن المقاومة! أردتِ لهذا أن يحدث.. أنسيت نظراتك لي؟.

هدأت قليلًا وخفت صوت صراخي وحاولت تذكّر ما يقول.. فلم أجد أي ذكرى لهذا! فصحت به رغم عدم سماعه لما أقول:

- وكيف لي أن أنظر لك أيها الحقير! اتركني وشأني!.



وفي هذه الأثناء بطابق العرائس، تجوّلت فتاة الحكايات صائحة بين الفتيات:

- هل رأت إحداكن إليونورا؟.

وردّت عليها إحداهنّ:

- لقد خرجت...

قطبت العروس حاجبيها وقالت بغرابة:

- ألم تعد بعد؟.

ثم سألت حارسها إن كان قد رأى حارسي -ظافرًا- فأجابها بتأكيد:

- لقد استدعاه كبير الحرس ومساعده.. أظنّ الأمر يتعلّق بحارس جلاديس، فكما تعلمين يمكنه أن يسألهم تخفيف العقاب له...

ضمّت أصابعها بتوتّر قائلة بقلق:

- لقد تأخرت إليونورا بالخارج، لقد أتت إيفي من عند إزالين للتوّ، وقالت أنها لم ترّ الجميلة ذات الشعر الداكن هناك قط كما قالت الشقراء.. أشعر بالقلق!.

فكّر الحارس ثم قال سريعًا بينما يرتدي معطفه البنّي البسيط:

- سأذهب لظافر، مؤكّد يعرف أين هي.. كما يعرف كل شيء بطريقته المبهمة.

هزّت الفتاة رأسها وابتسمت بأمل، وجلست وحدها أرضًا، فسألتها إحدى الفتيات:

- ألن تبدأي بالحكاية؟ أشعر بالنعاس وأريد النوم، لكنني لا أريد تفويت ما ستقولين!.

هزّت رأسها وقالت بتأكيد من خلف قلبها:

- دقائق وسنبدأ، فور وصول إليونورا سنبدأ.. لن أطيل عليكنّ!.

وهمست برجاء..

- كوني بخيرٍ أيتها الجميلة!.

وبينما تمنّت هي ذلك كنت أنا ما زلت أحاول تخليص نفسي من ذلك المنحرف الخبيث، وقلت له بغير تصديق:

- من المفترض أنك حارس! حارس تحمي ما يخص الأمير!.

ضحك مرّة أخرى لكونه لا يسمع ماذا أقول، ومسح على جبيني المتعرّق وشعري قائلًا بعمق:

- وفّري طاقتك عزيزتي وتذكّري.. في كلّ مرة رأيتني فيها، كنتِ تنظرين لي تلك النظرة الدافئة من عينيك بلون العسل الشهي.. لتثيري جنوني بهما في كلّ مرّة!.

وقال متذكّرًا:

- تذكري وقت تدريب الرقص بأول اليوم! قبل أن تنهاري لصديقتك.. نظرت لي وابتسمت قبل تأديتك تلك الرقصة الرائعة.. لقد بدّلت مكانك مع عروس أخرى من أجلي أتذكرين؟.

شهقت قائلة أدافع عن نفسي:

- كان هذا من أجل ظافر أيها الأحمق الخبيث!.

وصمت فجأة عن الصراخ دون أن تكف يداي وساقاي عن المقاومة وكأنني مبرمجة على فعل هذا.. وتذكّرت ابتسامة ظافر.. تلك الابتسامة الجذّابة من عينيه، ليدقّ قلبي دقّة تختلف عن باقي دقّاته.. وتساءلت: هل كنت أنظر لظافر هكذا فعلًا؟ هل كانت نظراتي له دافئة كالعسل المسكوب؟ وكانت ابتسامتي لرؤية عينيه الشاحبتين بجاذبيّة مميّزة؟

أغمضت عيني بحيرة ودقّات قلبي تخفت شيئًا فشيئًا.. وتذكّرت قول ظافر القديم لي حين كان يمنعني من تنظيف الزنزانة:

- من أنتِ يا فتاة! تبدين كربّة منزل حيّة الضمير؛ تنهكين نفسك بأعمال المنزل وكأنك تنتظرين زوجك الحبيب!.

تذكّرت نظرته القلقة وقتها.. وقارنتها بجميع النظرات التي رأيتها بعينيه.. ولم أرَ أجمل من تلك التي جعلتني أبتسم بشرود..

شعرت بقلبي يخفق بغرابة، فقلت بداخلي أُنبِّه حواسّي التي سيتم انتهاكها الآن:

- قاومي إليونورا.. قاومي.. يجب أن تحافظي على قلبك للأمير!.

وبرغم دقّات قلبي الثائرة، تذكّرت كلمات إزالين، وتردّدت بخلاياي ليكون طنين عقلي هو الموسيقى الخاصّة بها:

- لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلا لنفسي...

لكن لماذا؟ لمَ أكون لنفسي فقط؟ أريد أن يكون لي أحد أسكن إليه.. أحتمي بصدره حين أكون خائفة، كالآن!

تذكّرت الدفء الذي يرتبط بضمّه لي.. لجسده القوي، فاجتاحني هذا الضعف الذي أشعر به معه.. تلك الرجفة التي تصيبني حين لمحت شعاع عينه اليسرى أول مرّة، واختفاء الطنين من عقلي بعد أن تسكنه نبرة صوته العميقة الهادئة.. ارتخت شفتاي في ابتسامة واهنة، وسقطت ذراعاي قبل أن يصلا لوجه هذا الخبيث قبل أن أقطّعه إربًا بعد أن سنحت لي الفرصة أخيرًا..

همست بداخلي:

- ظافر.. قلت لي أنك تضمن عدم توقّف قلبي.. فأين أنت الآن؟!.

وهمست آخر أنفاسي وقد شعرت أن الهمس يخرج من قلبي:

- هل شعرت بالحب يومًا ظافر؟.

قلت هذا وأسبلت أهدابي باستسلام.. ليقترب الحارس بشفتيه الخبيثتين إلى وجهي....

وقبل أن يحدث أي شيء، سمعت صوت الباب يُركل بقوّة، وظافر ينادي اسمي بجنون.. وبعد هذا فقدت الوعي.. بعد صمودٍ لم أعهده يومًا.. وأفكار غريبة واهنة كذلك...



{١٧}

= ظافر.. من أنا؟ =

فتحت عيني لتتضّح الرؤية تدريجيّا، وبدأت أشعر بدقّات قلبي المرتاحة تزداد شيئًا فشيئًا، وتساءلت.. أين أنا؟ لم الظلام دامس هكذا؟!

نهضت ببطء ليتدلّى طرف غطاء ما من على جسدي إلى الأرض، فأزلته تمامًا وقمت بحذر، وقبل أن تلمس قدماي الأرض عادت الرؤية لي، ليتضّح كل شيء؛ كنت بغرفة الحكيمة، تلك الغرفة التي بها إزالين، أراها مغمضة العينين مستسلمة على الفراش الآخر أمامي على أقصى اليمين، أما على اليسار بالقرب من الباب رأيت شبحين متقاربي الطول، قويّي البنية يقتربان ومن خلفهما ضوء الشعلة الكبيرة، أشحت بنظري بعيدًا كي لا يؤذيني الضوء، لكن سرعان ما التفت مرّة أخرى حين سمعت صوتًا غريبًا يسألني:

- كيف أنتِ الآن؟.

نظرت لذلك الشخص بريبة، تذكّرته على الفور! فتلك البنية الشديدة ذات الكتفين العريضين والوجه الهادئ أثارت الكثير من تساؤلاتي من قبل، ضيّقت عينيّ بينما شردت ببعض خصلات شعره الفضّية التي تخلّلت لونه الأشقر الأصلي ممّا زادته جاذبيّة، وتساءلت بوهن:

- رأيتك من قبل، أنت.. مساعد الساحر العجوز؟.

ابتسم بعذوبة:

- تشرّفت بلقائك، أنا طِراد.. مساعد كبير الحرس.

هكذا انطلق مصحّحًا لي معلومتي برفق؛ ساحر أو كبير حرس.. من أين لي أن أعرف؟! وقبل أن أتساءل عن المزيد وجدته قد أخذ يدي الموضوعة أمامي بضعف ليطبع قبلة رقيقة عليها ورفع عينيه الحادّتين لي بطيبة قائلًا:

- سعيدٌ بأنكِ بخيرٍ الآن.

احمرّت وجنتاي خجلًا من رقّة تعامله وهمست بغير تصديق مرددة ما قال منذ ثوانٍ:

- تـ.. تشرفت بلقائك!.

وعند هذه النقطة لاحظت وقوف ظافر بجانبي، والذي كشف عن وجوده بنحنحة قصيرة، قبل أن يجذب يدي من بين يديّ طراد -مساعد كبير الحرس- ويضعها تحت الغطاء، ثم يرفعه ليدثّرني جيّدًا قائلًا:

- يجب أن ترتاحي...

تعلّقت عيناي بموضع عينيه اللتين أخفاهما تحت غطاء الرأس بمهارة وتساءلت بينما أحاول تذكّر آخر شيء توقّفت عنده ذاكرتي منذ دقائق.. وكان مشهد اقتراب الحارس القذر مني بدناءة، فاقشعرّ بدني وتساءلت:

- هل نال عقابه؟.

لم يجبني ظافر، ولاحظت أنه يضغط قبضتيّ يديه حتى ابيضّت مفاصلهما بشكلٍ ملحوظ.. يبدو أن تحكمه في غضبه يحرق أعصابه بشدّة.. فرفعت حاجبيّ بقلق..

- لقد نال العقاب مرّتين.. مرّة من ظافر ومرّة من كبير الحرس شخصيًّا.

قالها طِراد لألتفت له بتساؤل، بينما استطرد دون أن يلاحظ تساؤلي:

- الحقير! مؤشراته الحيوية كانت قد بدأت بالتضاؤل شيئًا فشيئًا بين يديّ ظافر، وكاد أن يتوقّف قلبه لولا أن تدخّلنا بالوقت المناسب!.

شهقت بهدوء وصدمة، أتخيّل ذلك المشهد، وآخر، فيه يحملني ظافر كطفلة صغيرة، بينما ألامس شيئًا ما دافئًا للغاية أمام صدره.. لا بل كان ساخنًا! أتذكر إخفاء ظافر لهذا الشيء بملابسه حين أشرت إليه بتيه.. كانت قلادة أسطوانيّة الشكل، تلمع بشكلٍ غامض، وتخرج منها حرارة جعلتني أشعر بالطمأنينة لأسبل جفوني مرّة أخرى.. وانتهى كل شيء وقتها..

رفعت وجهي لظافر بصدمة وسألته بعقلي:

- هل ما تذكّرته الآن صحيحًا؟.

وقبل أن يجيبني سمعنا صوت إزالين تتساءل برقّة:

- ظافر... هل استيقظت إليونورا بعد؟.

التفت لها وهمست باسمها غير مصدّقة أنا تسأل عني بينما هي من تستحق أن أسأل عنها! في خلال لحظات كنت أقف بجوار فراشها التي هي مثبّتة به بجبيرتيّ ذراعها وساقها، وحين رأتني ابتسمت بعذوبة قائلة:

- كم أنا مرتاحة لرؤيتك بخير!.

لم يكن باستطاعتي كبح دموعي أكثر من هذا.. فاضت مشاعري وأبت أن تظلّ مستترة كما كانت منذ دقائق، فهويت على إزالين أحتضنها وأبكي بصمت، إلا من بعض النهنهات القصيرة، وكأنني أخرج كل تلك الدموع والانفعالات التي كبحتها أمام ذلك النذل أثناء اعتدائه على كرامتي قبل جسدي! ربّتت عليّ بذراعها السليمة لتهمس بأذني:

- لا تخافي.. فهذا النذل الحقير يتذوّق الآن أشد العذاب على فعلته تلك!.

سمعت ظافرًا يزفر بضيق ويغادر الغرفة بغضب، لم يستطع طِراد أن يوقفه، فاقترب من فِراش إزالين، شعرت بقلبها تزيد دقّاته فجأة فابتعدت ماسحة دموعي وقلت ببراءة حزينة:

- أنا السبب في هذا.. ذهبت لهذا المكان الهادئ وحدي دون علم ظافر.. أنا التي تستحقّ اللوم!.

قلتها ونهضت أنوي اللحاق بظافر، والذي أشعر به يغلي غضبًا، وقبل أن أذهب تساءلت بصوتٍ مسموع:

- لكن كيف استطاع الوصول بالوقت المناسب؟!.

ابتسمت إزالين وقالت بصدق:

- هو من عثر عليك!.

ظهر صوت الطنين بعقلي بصورة ملحوظة، وباتت فكرة اللحاق به رغبة مُلحّة، ففعلتها دون استئذان، غادرت الغرفة ولم أدرِ أن بمجرّد رحيلي ابتسم طِراد لإزالين قائلًا:

- آنستي.. هل تعلمين سبب وجودي هنا الآن؟.

ابتلعت إزالين غصّة في حلقها وقالت بنبرة حاولت أن تكون طبيعيّة بينما ترفع رقبتها لتراه بوضوح:

- أتيت مع أخي للاطمئنان على إليونورا.. أليس كذلك؟.

- ليس هذا فقط...

قالها واقترب قليلًا لتراه دون أن تتعب نفسها، وقال بينما ينحني برأسه قليلًا مع طوي ذراعه وفرد الأخرى بجانبه بوضعٍ معين بحركة مسرحية قائلًا:

- أتيت لألبّي واجبي، فأنا من اليوم الحارس الخاص بكِ إزالين!.

احمرّ وجه إزالين خجلًا أثر المفاجأة مّما جعلها تهمس باسمه بغير تصديق، فقال هو بعذوبة:

- أعتذر لتأخري كل هذا الوقت...

أغمضت إزالين عينيها مبتسمة، وانهمكت تخفي خجلها بإعادة خصلة متموّجة من شعرها الأشقر خلف أذنها..



وصلت أخيرًا للرواق بعد خطواتي البطيئة برغم تدافع الأفكار بعقلي، وبحثت عن ظافر بعيني، وفجأة وجدته يأتي من آخر الرواق ممسكًا بشيء مألوف، منعت نفسي من العدو إليه، حتى وقف هو أمامي وأحاطني بذلك الشيء المألوف بيده، عباءتي الثقيلة المخصّصة للخروج للجو البارد، وقال بنبرة هادئة تخلو من التعبير:

- سنغادر للخارج لبعض الوقت.

انتظرني حتى أومأت -بغرابة- وتقدّمني، وسرت خلفه وعقلي يجلب لي العديد من الأفكار المتزاحمة، أولها، أن كيف لذلك الرواق أن يشهد موقفين متناقضين للغاية هكذا؟ الأول هو موقف احتضان ظافر لي بكل الدفء الذي لم أشعر به يومًا.. والآخر هو تعامله معي بجفاء هكذا.. وغيرها من الأفكار والمشاهد التي حاولت تذكّرها قبل أن أفقد وعيي للمرّة الثانية أو الثالثة لهذا اليوم.. لكن أكثر ما شغلني هو تلك القلادة الأسطوانية الغريبة التي رأيتها معلّقة بصدره.. وعن ذلك الدفء الغريب المنبعث منها!

بينما يصهل قمر بحماس، كان الصمت سائدًا بيني وبين ظافر بصورة ملحوظة، فكان يوجّه قمرًا -الذي يركض سريعًا مبتعدًا عن القلعة- بهدوءٍ وتمرّس، بينما أجلس أنا خلفه، أمسك بطرف عباءته التي منعها التصاق جسدي بها من

الرفرفة، مانعة إيّاها من تقليد عباءتي المتفاعلة مع الرياح الباردة خلف ظهري.
بت أحاول منع نفسي من الاستناد على ظهره القويّ بوجهي، وكم أردت أن أدفن نفسي به حتى لا يستطيع قراءة أفكاري التي تدافعت واحدة تلو الأخرى بقسوة عن ما كنت أشعر به بلحظات المقاومة الأخيرة لذلك الحارس النذل، كما استعدت إحساسي الذي استحضرته لأشعر بالاطمئنان، وإحساس وجودي بجانب أحد يهتمّ لأمري، يحميني ويطمأنني.. يعدني بحمايته لقلبي من التوقّف، يضمن دقّاته بهذا العالم القاسي المظلم.. وكتمت شهقتي حين تذكّرت آخر ما همس به قلبي..

توقّف قمر أمام منظرٍ خلّاب، لم أكن لأتصوّر أنه يتواجد بمثل هذا العالم البارد، فتحت ضوء القمر الكبير المتطفّل عليّ أنا وحارسي، يقبع النهر الجاري، والذي رأيت جزءًا منه بالخندق حول القلعة، وبداخلها أيضًا..

ربّت ظافر على قمر بينما يخفض عنقه ليشرب من الماء، يروي عطشه بعد تلك المسافة الطويلة التي قطعها، والتفت إليّ ترفرف عباءته خلف ظهره، فاقتربت أنا من الشاطئ، أتحسّس الماء البارد بيدي، أنتظر من ظافر أن يفسّر لي لمَ نحن هنا الآن.. وحين طال الصمت، عادت لي تساؤلاتي بمنتهى القسوة.. لأجد نفسي أتساءل بصوتٍ مسموع:

- لم يخفق قلبي بالذنب؟ وكأنني أخون من أحببت؟.

التفت لي ظافر، فأخفيت سؤالي بآخر، لأزيل حرجي، ربما يعتقد أنه تصحيح لما تفوّهت به للتوّ:

- كيف أعرف إن كنت أحب أحدًا بحياتي الأولى؟.

رأيت ظافرًا يعبث بالعشب البالي بحذائه، فاسترجعت أنا شيئًا ما تذكّرته قريبًا:

- تساءلت يومًا عن كوني ربّة منزل، لما أعرفه من مهارات بالمطبخ والتنظيف وغيرها.. هل تعتقد أنني كنت كذلك يومًا؟.

ظل ظافر صامتًا، ممّا أثار حنقي، فاقتربت منه وفتحت صدر فستاني وسألت بمرار:

- لم قتلت؟ تضحية من أجل من أحب؟.

وأشرت لشيء على جسدي لا أراه بوضوح قائلة:

- من كتب تلك الحماقة؟ كيف له أن يكتب ذلك بدون أي تفسير! هل ما زلت ترى تلك الحروف المستفزّة ظافر؟.

أبعد ظافر يدي وأغلقت عباءتي عليّ ليخفي ما ظهر من جسدي وأجابني ببرود:

- قابض روحك هو من حفرها بأظافره.. تطبيقًا للقواعد.

أغلقت فستاني بحنقٍ حين أزال يده عني هكذا ليجعلني أبدو كبائعة هوى رخيصة، وتساءلت بغيظٍ، بينما أحاول كبح دموعي ومنعها من النزول أمامه:

- قواعد؟ أي قواعد تجعلني مرتعبة من كوني مقتولة ولا أعرف السبب؟ أي قواعد تجعلني هنا فقط من أجل أن أحب شخصًا واحدًا، لم أرَ إلا ظلّه العالي ولا أعرف عنه أي معلومات غير من الكتب المجملة للحقائق؟ هه؟ أي قواعد؟!.

وللحظة استعاد ظافر عادته القديمة معي، وأجاب على الجزء الذي يختار فقط من أسئلتي المتتالية، مّما أثار حنقي:

- اعترافًا من قابض الأرواح بأنه لن يعشق جسد الفتاة بعد ذهابها للقلعة؛ يحفر سبب موتها وأي معلومة يريد على صدرها.. ويسلّمها للحارس المسؤول عن توصيلها للزنزانة.

كظمت غيظي منه وفكّرت لدقائق، ثم رفعت صوتي بآخر ما توصّل إليه عقلي:

- إذا كان قد قبض روحي، فبالطبع يعرف كيف مُت.. أقصد كيف قتلت! كما يعرف من أنا، كيف كانت حياتي أو من كان قابعًا بقلبي يومًا!.

رفع لي ظافر عينيه لأول مرّة منذ أن أتينا أمام النهر، لأرى ضوء القمر بعينيه، وقلت بحزمٍ وتصميم:

- أريد الوصول لقابض روحي!.

أشاح ببصره عني، فاقتربت من يمينه لأواجه عينيه وقلت بتوسّل مصمّمة على فكرتي:

- أرجوك!.

وقبل أن يعمّ الصمت المرير مرّة أخرى، سألته عن ما يدور بعقلي ويصدر ذلك الطنين المؤرِّق:

- هل شعرت بالحب يومًا ظافر؟.

التفت لي فجأة فشعرت ببصيص من الأمل، وبتمهلٍ رسمت ابتسامة أمل على شفتيّ حين أجابني بـ:

- نعم...

فرجوته:

- من كانت؟ أيمكنك إخباري؟.

قول ذلك تطلّب مني الكثير من القوّة، لكنّي لفظتها رغم غيرتي وسلّمت الأمر له، أريده أن يخبرني بهويّتها، كيف أحبها ومتى، حتى يمكنه أن يشعر بتلك المشاعر بداخلي، فيقدم على مساعدتي!

تحرّك خطوتين وجلس أرضًا، واستند بظهره إلى جذع شجرة عظيمة، ففعلت أنا مثله وجلست أرضًا لكن أمامه، أريد النظر إليه بينما يحكي، وأظنه سيفعل ذلك لدهشتي!

نظرت له مبتسمة بتشجيع، بينما دموعي -مجهولة السبب- تتراقص بعيني تريد خيانتي أمامه، فأطرقت برأسي وتنهّدت بصمت بينما أغلق أهدابي وأعيدها مفتوحة لأكثر من مرّة حتى أجهضت خطّة دموعي، ومن ثم أعدت النظر لظافر مرّة أخرى، والذي بدا شاردًا حين قال:

- كان هذا منذ وقتٍ طويل حين رأيتها أول مرّة.. كانت طفلة صغيرة تلعب وحدها بملل طفولي.. حتى جاء إليها خبر وصول مولودة صغيرة لتشاركها حياتها، أختها الصغيرة، فقفزت فرحًا تملأ الكون بضحكاتها الرنّانة.. كم بدت وقتها بريئة، صافية ونقيّة!.

توقّف قليلًا ثم استطرد:

- راقبتها تتقدّم بالعمر، تترك مرحلة الطفولة لتخطو أولى خطواتها بالمراهقة وصولًا للشباب، ولم يكن بمقدوري الاقتراب، رغم وقوعي بحبّها منذ النظرة الأولى...

نظرت له بحيرة وتساءلت بغير فهم:

- آسفة لمقاطعتك لكن.. كيف راقبت مراحلها العمرية تلك ولم تتغيّر بنظرك.. أعني.. حين تتقدم بالعمر تتغير رؤيتك للأشياء والأشخاص، فكيف ذلك؟.

رأيته يضع يده على صدره، يلامس ذلك البروز الذي يثير فضولي، والذي بالطبع سبّبته قلادته الغامضة، وقال بشرود:

- لأني كنت أمرّ مراحلها ذاتها تلك رغم أنني أكبرها بستّة أعوام، وكنت مسافرًا من العالم الآخر للحياة حين قابلتها، ومن يومها بتّ أتردد على تلك الحياة لأراها بصورة مستمرّة.

دقّ قلبي بعنفٍ وقلت بإعجاب به بعض الخجل:

- أحببتها منذ أن كنت طفلًا؟ كم هذا رائع!.

لاحظت ابتسامة بصوته حين قال:

- ولن أتوقّف عن حبّها يومًا.

أثارت كلماته دقّات قلبي، لتجعلها تتراقص بجنون.. كم بدا واثقًا حين قال هذا! حسدته على ثقته تلك، فأنا التي أشعر بدقّات الحب لا أستطيع تمييز لمن تكون؟ أهي للأمير الذي فُرِض عليّ حبّه من قبل أن أراه؟ أم؟!

لم أحتمل هذا، أريد معرفة المزيد! كان بإمكاني الاكتفاء عند هذا الحد وطلب المساعدة منه ليجعلني أكتشف من أحب، لكنّني رغمًا عن ذلك تساءلت بشرودٍ وفضول:

- وماذا حدث؟ هل تزوّجت؟.

ضحك بمرارة وقال مستنكرًا:

- لم أكن لأسمح لهذا بالحدوث!.

لاحظت نبرته المتملّكة، فأثار فضولي أكثر، واستمعت له بإنصات حين قال بشرود:

- ماتت.. قبل أن أتمكّن من الظهور أمامها والنظر بعينيها عن قربٍ ولو لمرّة!.

شهقت واضعة يدي على فمي ولم أدرك أن دموعي قد بدأت بالتجمّع، وقلت بصوتٍ متأثر، غير مصدّقة ما قال للتوّ:

- وانتهى كل شيء؟ فقط بهذه البساطة؟.

فأجابني بعد أن تنهّد تنهيدة أثارت القشعريرة بجسدي:

- لم أرد لحياتها أن تنتهي هكذا.. فمنعت قابض الأرواح من الاقتراب منها، وحين أجبرني بالتسليم للأمر الواقع.. ساومته...

اعتدلت في جلستي ونظرت بتطلّع لوجهه المختفي تحت ذلك السواد القاتم، لأجده يستكمل ما يقول، ساردًا ما بصفحة قلبه:

- كنت أعلم أنني بمجرّد عودتي للحياة لدي عمر محدّد، وبانتهائه سأعود للعالم الآخر بدون أي ذاكرة عن حياتي، عكس ما كنت أفعل بطبيعة الحال، أتنقّل بين العالمين بحريّة...

واستطرد:

- فساومت بنصف عمري بالحياة، وتم تأجيل موتها بمقدار ما ضحّيت به.

أزلت يدي عن فمي وصرخت به بغير تصديق:

- ماذا تقول؟ ماذا إن كانت حياتك انتهت عند هذا الحد؟ ستكون هي على قيد الحياة وأنت تحت التراب!.

هزّ كتفيه باستسلام فسألته من قبل أن يجيبني على ما قلت للتوّ:

- وماذا حدث؟.

عادت نبرته للشرود مجدّدًا، رأيته يعتدل في جلسته ليجلس القرفصاء مثلي، وانحنى بوجهه للأمام ليكون بالقرب مني ورفع غطاء رأسه للخلف قليلًا وقال بينما يشير لعينه اليسرى:

- أصبحت هكذا...

اختلجت المشاعر بصدري فجأة واختنق صوتي بدموعي حين أدركت أنه قد ضحّى بنصف حياته من أجل أن تحيا هي مزيدًا من الوقت، وأصبح نصفه الآخر قابض للأرواح!

ربّت هو على رأسي ببطء يواسي ما أشعر به قائلًا:

- لا بأس.. لم يكن سيئًا قط، ولا أندم على فعلي هذا!.

رفعت عيني الغارقتين بالدموع وسألته بصوتي المختنق:

- وهل قابلتها لتنظر بعينيها وتعترف لها بجنون حبّك؟.

ساد الصمت لحظة، لأجده يضحك بمرارةٍ ويقول:

- لم تكن للجميلة أن تحب الوحش يومًا!.

صدمتني كلماته فقلت أنا -بتحفّز- دفاعًا عن فكرتي الراسخة بعقلي:

- لا بل يمكنها أن تحبّه! الحب للقلب والروح، لا للوجه أو الجسد!.

وقبل أن أقول أي شيء قاطعني:

- هذا إن كانت رأته أصلًا...

مسحت عيني ونظرت له بغير فهم، فضحك باستنكار وسخرية من نفسه قائلًا:

- لم أكن أعلم خطورة كوني قابضًا أرواح إلا بعد تحوّلي...

استطرد بنفس النبرة، ليذكّرني بما قال سابقًا حين أراني لمعة عينه اليسرى:

- نظرة الأرواح -دون الوعي بكيفيّة التعامل معها- تعكس طبيعة الفتاة.. إن كانت حيّة تميتها، وإن كانت دميمة...

قاطعته أنا:

- تجعلها جميلة!.

- بالضبط!.

قالها ظافر، ففهمت مغزى ما قال وردّدت ما فكّرت به:

- هذا يعني أنك حرمت من النظر إليها؟.

أومأ ببطء، فانفجرت أنا ببكاءٍ أكثر مرارة! كيف هذا! كيف عاش بجانبها بنصفه الآدميّ المحظور عليه رؤيتها بسبب لعنة نصفه الآخر!

- لم يتسن لي رؤيتها إلا حين قبضت روحها بنفسي، حين انتهت حياتها للمرة الثانية...

وأضاف بدفء:

- وشكرت صنيع من حوّلني لقابض أرواح، بعد أن علمت ما تسمى برقصة الوداع!.

شهقت بصدمة بينما أضع يدي على قلبي، اهدئه، قبل أن يقتلع صدري بدقّاته، وتساءلت بدهشة:

- إذًا هي حقيقية؟ ليست مجرّد قصّة؟.

وأغمضت عيني بتأثر حين أجابني:

- هي الحقيقة، والقصة التي تعيش ذكراها بداخلي حتى الآن، وللأبد!.

أمسكت يده بحزنٍ قائلة:

- أنا حقًّا آسفة! لم يكن عليّ تذكيرك بها، سيكون تذكّرها أصعب عليك بينما أنت خالدٌ بهذا العالم القاسي!.

ربّت على يدي ثم نهض قائلًا:

- لا عليكِ، لم تغب عن بالي ولو للحظة لأنساها...

جفّفت دموعي وقلت بخفوت:

- وبعد أن أخبرتني بحبّك الأسطوري لتلك الفتاة، تتوقّع مني أن أنتظر مجرّد نظرة من الأمير ليعجب بي من بين كل تلك العرائس؟.

تنهّدت وانطلقت قائلة بتمرّدٍ أهوج:

- لن يرتاح بالي إلا بعد أن أعثر على قابض أرواحي لأسأله من كنت أحب، أريد أن تكون لي ذكرى جيّدة أحيا بها حتى يتسنّى لي الوقوع بحب الأمير!.

التفت ظافر لي متسائلًا باستنكار:

- وهل يجب عليكِ أن تتذكّري حبّك لأحدهم قبل رؤية الأمير؟ نحن بالعالم الآخر! حياتك انتهت وقد انتهى معها كل شيء، لهذا تستيقظين هنا بلا ذاكرة!.

نظرت له بغيرة وقلت بصعوبة:

- أحسدك ظافر! فأنت تتذكّر كل شيء عن حبيبتك!.

تنهّد وقال متحاشيًا النظر إليّ:

- التفاهم مع قابضي الأرواح ليس بالأمر السهل، فهم جنسٌ آخر غير ذكور وإناث البشر...

تنهّد واستطرد:

- كما أنهم انتهازيّون للغاية، ربما سيطمعون برقصة وداع أخرى مع الفتاة التي كانت لهم يومًا!.

اقشعرّ بدني وقلت بتقزّز:

- لا أريد رقصة أخيرة! فقط أريد معرفة من أنا!.

التفت لي ظافر قائلًا بحسم، يغلق مسار الحديث:

- مستحيل.. لن يمكنك معرفة هذا!.

زفرت بضيق، وذهبت مقتربة منه ونظرت لعينيه فتجمّد للحظة ونظر لي، احمرّ وجهي تدريجيًّا حتى أصبحت كحبّة الطماطم، وقد سكن الطنين بعقلي إلا عن جملة واحدة.. ردّدتها كثيرًا بقلق فتاة مراهقة تقدم على شيء لا تعرف خطورته:

- أعتقد أنني واقعة بحبّك ظافر!.

وقفت على ركبتيّ مستندة بيدي على صدر ظافر، على موضع قلبه تحديدًا، وتساءلت بعقلي:

- هل لي بتفسير؟.

لم أجد منه ردًّا، وانتهزت فرصة تجمّده هكذا، ورفعت إحدى يديّ لقناع وجهه الأسود، أجذبه للأسفل، وأغمضت عينيّ.. لا يهمني كيف يبدو وجهه الآن.. لا يشغلني سوى هو نفسه.. هو فقط ظافر! لا أريد شيئًا منه إلا غموضه، نبرة صوته العميقة الهادئة والساخرة أحيانًا، ثباته وحزمه معي، وأيضًا احتضانه لي بدفء..

رفعت يدي من على صدره لأحيط بها مؤخّرة رأسه كما فعلت يدي الأخرى، لأقرّبها مني.. أشعر برغبة جامحة في أن ألمس وجهه بشفتيّ.. أن أقبله بكل ما بي من مشاعر متداخلة من ضمنها تلك الغيرة من حبيبته التي سيأبى نسيانها.. والتي عزمت على أن أتّخذ مكانها من الآن فصاعدًا، دون أن يهمني منصبي المستقبلي المرتبط بحب الأمير، فقط أريد هذا الحب! لكن، قبل أن أفعل أي شيء صدمت بشيءٍ دافئ للغاية لدرجة الغليان، شعرت بأنه أحرق صدري المتلاصق بصدره، فتأوهت مبتعدة، وسقطت أرضًا، وحين فتحت عينيّ وجدته قد أعاد إخفاء وجهه كما كان بينما ينظر لي بغضب.. فانتبهت على ما كنت مقدمة عليه وهمست معتذرة، متوسّلة منه أن لا يكرهني بسبب فعلتي! خلته يريد هذا كما أريد.. للحظة أردت تصديق أن الشعور متبادل.. لأنه ببساطة لم يمنعني.. لم يوقفني!

- بل منعتك للتوّ!.

قالها بحزم، فأغمضت أنا عيني أمنع نفسي من الوقوع في أسر نبرته العميقة تلك، ونهضت واقفة أتساءل بقلق:

- هل أغضبتك مني؟ أعتذر ظافر أنا...

أخرج قلادته الغريبة واقتلعها وأسدلها أمام وجهي، وقال بغموض:

- أدركت أن هذا يمكنه الحدوث مجدّدًا...

واستطرد:

- هذه.. تحميني من أن أقع بحب أي أحد غيرها!.

أدارها بأنامله بخفّة أمام وجهي لأراها، وقد استحال لون القنّينة أسطوانية الشكل تلك من الأسود إلى الشفّاف بطريقة مذهلة، ليتضح لي ما بداخلها! وقبل أن أنطق بما أرى قال هو بتأثّر:

- قطعة من قلبها.. ودموعي!.

وضعت يدي على فمي بصدمة وغير تصديق، وهوت دموعي مرّة أخرى أكثر قوّة.. كيف لشخصٍ ما أن يتذكر حبّه لأحد لتلك الدرجة! لن تكون لدي أي فرصة معه على الإطلاق!

- هذه التي تذكّرني بها دومًا وأبدًا.. والتي سأعطيها لها حين ألقاها.

همست أنا متسائلة بغيرة صادقة:

- يمكنها أن تأتي لهذا العالم؟.

أعاد القلادة للونها الأصلي قبل أن يخفيها داخل ملابسه، بالقرب من صدره وقلبه فابتعدت حرارتها عن وجهي، ولا أنسى تلك اللمعة بداخلها، هل هي من نبض قلبها بها أم بسبب دموع ظافر المتلألئة؟

- ستراني.. أنا على يقين باقتراب هذا اليوم.

استدرت مبتعدة عنه لأهوي بركبتيّ بالقرب من الماء البارد، أخذت القليل منه بين يدي وبقسوة قذفت به على وجهي، أصيح بداخلي:

- أفيقي إليونورا! لن يكون ظافر لكِ!.

كرّرت فعلتي واستطردت بحزم، أذكر نفسي بهدفي الأول:

- أنتِ الأميرة التي ستملك كل هذا! حبيبك هو الأمير، ولن يكون بقلبك متّسع لغيره أبدًا!.

نهضت متثاقلة فاستعنت بقمر لأستقيم في وقفتي، وقلت لظافر بينما صوتي ما زال متحشرجًا أثر البكاء:

- أعدني للقلعة.. أريد النوم...

مسحت على شعر قمر قائلة بشرود وكأنما أذكّر نفسي بهدفي:

- اقترب حفل مولد الأمير، ويجب عليّ الاستعداد للرقص منذ الصباح الباكر... اقترب ظافر بصمتٍ وساعدني على امتطاء الفرس، وعدنا للقلعة بين أصوات صهيل قمر المتحمّس دومًا للسرعة.. لا يدري أن سرعته تلك كانت تنافس سرعة أفكاري ودموعي المنهمرة حين تذكّرت كل شيء جمعني بظافر من اليوم الأول هنا.. وأخيرًا تذكّرت سؤالي الخجول لإيفي:

- هل من الطبيعي أن.. أن يحتضن الحارس الفتاة التي يحميها؟.

وتذكّرت إجابتها.. وجحظت أمامي كلمة «أصدقاء» بقسوة، لتصفعني على وجهي لأستفيق.. وباتت كلمات إيفي تتردّد بداخلي حين فسّرت لي سبب احتضان حارسها لها أكثر من مرّة:

- طبعًا.. فنحن أصدقاء!.

دفنت رأسي بظهر ظافر رغمًا عني وتساءلت بمرار:

- هل كان ما بيننا مجرّد «صداقة».. وهدمتها أنا باندفاعي وتهوّري؟.



{١٨}

= ما حدث بكوابيسـي.. والحضل! =

تلك الليلة لم أستطع النوم قط، وظلّت ذاكرتي تصف لي كم كان موقفي محرجًا أمام ظافر، بما فيها دموعي أمامه والتي لم أدرك -إلا الآن- أنها مثيرة للشفقة.. تنهّدت وأبت جفوني الراحة، فكّرت في تغيير طريقة نومي، تململت في فراشي بهدوء لأنام على جنبي الأيمن، فوجدت ظافرًا يجلس على مقعد مجاور، يستند على الفراش يكتب شيئًا ما، نظرت لما يكتب بفضول، لأراه يخط بيده حروفًا أعرفها جيّدًا! إنها لغتي! وحين حاولت النهوض أخذ الورقة وأبعدها كي لا يلمسها الغطاء فيفسد حبرها، وهمس بـ:

- تشعرين بالأرق؟.

ضحكت بسخرية من نفسي وأشحت بوجهي بعيدًا قائلة باستنكار:

- لا بل صوت احتكاك قلمك على تلك الصفحة يزعجني!.

لاحظ ظافر أنني أعانده، فنهض ونظر لي وقال بنبرة بها شيء من السخرية:

- هل لي بصَمّ أذنيك حتى الصباح آنستي؟.

زفرت بضيق وتململت بعِند للجهة الأخرى، وقلت:

- لا أريد أيًّا من تعاويذك، سأكون بخير!.

لم هذا الجفاء بنبرتي؟ أنا لا أكرهه كي أعامله هكذا!

- في حالة بقائك مستيقظة طويلًا؛ يمكنك قراءة هذه، أتممت ترجمتها للتوّ.

لم ألتفت له، وتصنّعت اللامبالاة حين سألته من الجهة الأخرى بهمس:

- وماذا يوجد بها لأقرأه؟.

مال إليّ بجذعه وهمس بأذني بينما ترك الورقة على الوسادة بجانب وجهي بنعومة:

- رسالة من الفتاة التي تلقبّينها بفتاة الحكايات.

انتفضت حين ابتعد واقفًا كما كان وأخذت الورقة بحماس، استقرّيت بوضع الجلوس وقرأت العنوان:

- جثّة حيّة، أم بقايا عروس؟.

وهمست ما بين الأقواس باستنكار:

- دليلك لتتحوّلي من عروس، لخادمة أو عبدة!.

ابتسمت ببلاهة وتساءلت:

- هل كتبت هذا من أجلي؟.

وكانت الإجابة بالسطر الأول:

- عزيزتي إليونورا.. لقد قلقت عليكِ كثيرًا لكن طمأنني حارسك للتوّ، لذا أكتب لكِ قصّة الليلة والتي لم أرد أن أحكيها إلّا بحضورك، لكن.. تعلمين إصرار العرائس وتصميمهنّ!

هل تتذكّرين ما حكته لكِ جلاديس؟

سأضيف عليه قليلًا، وأترك لكِ التخيّل..

يُقال إن الأمير لا يكلّ من فتياته.. عرائسه أو أميراته.. فصنع لهنّ طابقًا مميّزًا، هو أعلى من طابقه نفسه، يحمل العديد من العرائس القديمات اعتزازًا بهنّ.. يذهب ليلقلي عليهنّ تلك النظرة الفخورة وينصرف لمسؤوليّاته.. لكن، كيف رأت جلاديس جثّة حيّة لفتاة نعرفها؟ فتاة تم أخذها لطابق الأمير يومًا؟

وهكذا تابعت قراءة رسالتها التي تقصّها عليّ، وبكل ما بي من فضول اتّسعت عيناي لأتلقى المزيد والمزيد من حروف كلماتها، وكأنها جرعة من مخدّرٍ قوي معتادة عليه وأحتاجه، ولم أدرِ أين انتهت سطورها، أو أين انتهى وعيي بما حولي.. ليختلط عالم الواقع، بالافتراضات والأحلام.. بلا تمييز!

رأيت وجه الثلاث فتيات يقطر دمًا، دماء ثقيلة لا يخفّفها إلا قطرات العرق النديّة على جبينهن الملوّث بالكدمات بمختلف ألوانها، يطلبن الرحمة.. يطلبن السماح، ويعتذرن لكونهنّ دميمات ولا يلقن بالأمير!

ابتسمت لي الفتاة ذات العينين الرماديّتين والكحل يرسمهما بإتقان، بينما تبدو كالجثّة، فشعرها الأسود الفاحم الطويل استحال لونه للرمادي من كثرة ما عانى من قرب التراب والأرض.. تهمهم بكلمات لا أفهمها.. فاقتربت من الأرض التي لا تظهر إلا رأسها، وتستر باقي جسدها المدفون واقفًا، لأسمعها بوضوح تهمس بأذني بفحيح:

- هل تنتظرين الحب منه؟.

ارتعشت ابتسامتي وتساءلت بهدوء وثبات:

- مصلحتي تكمن في حُب مولاي الأمير، ولن يتغيّر هذا أبدًا!.

سمعتها تضحك باستهجان، وفجأة صرخت بأذني:

- وهل لديه قلبٌ يا حمقاء؟.

انتفضت واقفة لأرى أنني أرى برج العرائس العالي، وأنادي باستعطاف:

- يا عرائس البرج العالي.. أيمكنني الزيارة يومًا؟.

فسمعت أصواتًا متداخلة، صوت الثلاث عرائس، الفتاة ذات الكحل بعينيها، وصوت جلاديس! يقلن في نفس الصوت، باختلاف نبراتهنّ:

– تستطيعين هذا دومًا!.

كانت نبرة الثلاث فتيات حزينة مريرة، نبرة الفتاة كحيلة العينين صارخة، ونبرة جلاديس مستغيثة راجية!

شعرت بأنني أهوي بحفرةٍ عميقة، سحيقة لا تنتهي أبدًا، شعرت بانقباضات معدتي تؤرّقني، وأصوات الخلفية تؤذيني.. أصوات ممتزجة من الصرخات، الضحكات والنهنهة الصامتة.. كنهنهة عروس الأمير التي رأيتها تبكي قبل أن تختفي باليوم التالي!

فجأة ارتطمت بشيءٍ ناعم للغاية، ففتحت عيني لأرى أنني على فراشٍ كبير واسع، ناعم للغاية تزيّنه الوسائد البيضاء، الحمراء والفضّية، فاعتدلت جالسة، وقبل أن أنطق بأي شيء سمعت نبرة رجوليّة مبهمة تهمس بالقرب من أذني:

– أنتِ جميلة جدًّا إليونورا.. وهذا ليس عدلًا!.

اتّسعت عيناي لتذكري تلك الجملة بوضوح، واقشعرّ بدني وتوقّعت أن يكون من يهمس بأذني هو حارس إزالين، لكن.. لمحت ظلًّا رأيته في يوم ولم يؤرّق نومي، بل أثار فضولي.. ظلًّا لشخصٍ بتاجٍ مرصّع، أذت أطراف رسمته الحادّة إصبعي ذات يومٍ بالمكتبة.. لكن ما أراه الآن هو تاجٌ حقيقي، يرتديه شابٌّ ذو جسدٍ رشيق، يقترب من وجهي ويطبع بشفتيه قبلة على زاوية شفتيّ لأهمهم أنا بتيه:

– سمو الأمير؟.

وفجأة شعرت بوخزٍ في صدري، فرفعت رأسي الذي كان أثقل من أي وقتٍ مضى لأرى ما يحدث، فرأيت جسدي عاريًا، لكنّه رفيع للغاية، دميم، تملأه البثور والبقع! وكان ما يقيّد حراكه هو قابض أرواح! بردائه الرماديّ الباهت كالضباب الذي لا يظهر بنهايته إلا طيفه، تحاشيت النظر بعينيه ويردّد هو بفحيح:

– أنتِ مقتولة.. مقتولة!.

وتزامنًا مع كلماته تلك أتت صرخات الألم من بين شفتيّ وكأنني أصرخ تحت الماء، لأتفاجأ بأنه يغرس أحد أظافر يده ينقش حروفه الغامضة وكأنها حروفٌ من نار! فتململت أنا وشعرت فجأة بيد تقبض على عنقي، لم أعد قادرة على التمييز بين اللمسات، لا أدري إن كانت لمسة قابض الأرواح؟ حارس إيفي؟ أم سمو الأمير؟ فالشيء الوحيد الذي كنت أشعر به هو انخفاض معدّل دقّات قلبي بصورة ملحوظة.. حتى خفتت تمامًا.. وانتهت!

شعرت بيدٍ قويّة تجذبني من تحت التراب بالأرض، استندت على ذلك الشخص بكل قوّتي بينما أحاول التقاط أنفاسي، لأجد أنه فجأة قد ضمّني إليه بقبلة! وكل ما جاء بعقلي وقتها أنها قبلة الحياة.. لا... بل قبلة العالم الآخر.. فبعد أن انتهت تلك القبلة العميقة شهقت أنفاسي بانتظام، وعاد قلبي يخفق مرّة أخرى، لم يخرجني ذلك الشخص من أحضانه ولو للحظة! بل تمايل بي على أنغامٍ غريبة.. لا بل صرخات.. ونواح!

هل أتذكر الآن رقصتي الأخيرة؟ نعم! هي فرصتي! عليّ فقط أن أخرج من بين أحضانه لأسأله؟ من أنا؟ كيف تم قتلي؟!

أخرجني قابض الأرواح بصعوبة من بين أحضانه ونظر في عيني، لأرى عينيه الدامعة تشع شعاعًا خاصًّا وفجأة وجدت نفسي بعالم آخر، لأجد صوته يهمس لي بـ:

- لحظاتك الأخيرة.. سأعرضها عليكِ لمرّة واحدة فقط.

أغمضت عينيّ وفتحتهما بغير تصديق، لأرى أنني بممرٍ مظلم، أرتدي أزياء غريبة غير ذلك الرداء المعتادة على ارتدائه بطابق العرائس، نظرت حولي بتيه وفجأة سمعت صوت استغاثة!

- فليخرجني أحدٌ من هنا أرجوكم! أتوسّل إليكم أنا لم أفعل لكم شيئًا!.

خفق قلبي ببطء وتنهّدت بارتعاش، وخرج مني صوتي وكأنني لا أتحكم به:

- أين أنتِ صغيرتي! لا تخافي ها أنا هنا!.

وفجأة صرخت الفتاة بـ:

- أختي! أغيثيني!.

لم يكن لدي حل سوى أن أفتح أبواب ذلك الممرّ دون الحاجة للضوء، بابًا تلو الآخر، أشعر بمحتواه الفارغ لأتنقل لما يليه، وفجأة لمحت ضوءًا يأتي من تحت بابٍ ما، فركضت إليه وفتحته بكل ما فيّ من قوّة، لأجد أصواتًا رجولية تضحك بمجون، إلا حين رآني واحد منهم صاح في بغضبٍ وغير تصديق:

- أنتِ! كيف وصلت إلى هنا!.

نظرت خلفه ورأيت جسدًا ضئيلًا لفتاة ما تصغرني بأعوام بسيطة، مكبّلة بأيادٍ رجوليّة قذرة، بينما المسكينة تتململ وتصرخ وقد وجدت ضالّتها:

- أختي! أنقذيني!.

أنا؟ أخت تلك الفتاة المسكينة؟ ربما أنا هنا لإنقاذها! اقتربت من الرجل بغضب وركلته ركلة ممتازة فهوى أرضًا ممسكًا بمنطقته المحظورة يتأوه ألمًا ليصيح بباقي الرجال بأن يمسكوا بي، نظرت حولي فوجدت زجاجات من الخمر، فارغة.. لكنّها ستفي بالغرض، بتّ أقذفهم بها بينما أصيح بغضب واستماتة، هوى رجلان مخموران أرضًا فشعرت بسهولة ذلك، تجرأت واقتربت من الخبيثين اللذين يكبّلان تلك المسكينة أختي، أريد منع ذلك الخبيث من طبع قبلاته الثملة على وجهها وجسدها!

فجأة سمعت زمجرة الرجل الذي قد ركلته بالخلف مني، يصرخ بأشياء غير مفهومة، وفجأة التفت الرجل الذي ينهال على جسد أختي بسكب الخمر على جسدها الهش ليتذوّقه، التفت إليّ بغضب، ثم أخرج سكينًا صغيرًا وجعله بالقرب من رقبة أختي والتي باتت تبكي بجنونٍ وفحيح صوتها لا يغادر أذني أبدًا، مذعورة

جدًا تخشى الموت وفي نفس الوقت تخشى الحياة بهذا الشكل! فصحت أنا بغير وعيٍ مني:

- اتركوها! دعوها تذهب وخذوني أنا!.

ضاقت يد من يقف خلفي على رقبتي وقال بطمعٍ هامسًا:

- أو يمكننا الحصول على كليكما! فأنتما شهيّتان للغاية!.

أغمضت عينيّ والدموع تنهار منهما بينما أتململ بكل قوّتي، وفجأة لمحت من بعيد طيفًا رماديّ اللون، يقترب من رجل ما، يعبر من بين جسده بخفّة فيسقط الرجل أرضًا بكل سهولة! واقترب من الآخر الذي يسكب الخمر على جسد أختي، وآخر وآخر حتى انتهوا جميعهم، عدا ذلك الذي يحيط رقبتي بيديه القويّتين المتعرّقتين، وقبل أن يلتفت لي ذلك الطيف المبهم، سمعت صوت طقطقة عالية، ولم أشعر بشيء آخر وقتها.. فأدركت بأنه صوت انفصال فقرات رقبتي عن بعضها البعض، مما أنهى حياتي...

فتحت عيني مرّة أخرى لأجد أنني طيف، أجلس على جسدي المنتهي، وأمامي يقف هذا الطيف، وسمعته يقول بنبرة خالية من التعبير:

- يجب علينا الذهاب.

ومدّ يده لي، فوضعت بها يدي بشرودٍ وغير تصديق، وأشحت ببصري لتلك المسكينة التي تغمض عينيها بين جثث الرجال الهامدة، وقبل أن أقول أي شيء سمعت صوت ذلك الطيف يقول:

- ستكون بخير، ما ضحّيت به كان كافيًا لإنقاذها.

نظرت له بغير تصديقٍ وصحت بغير فهم:

- ماذا تقصد!.

جذبني لأنهض، وأحاطني بذراعيه قائلًا:

– ضحّيت بحياتك لأجلها! من أجل أن تعيش هي! ستعيش، وسترحلين!.

نزلت من عيني دمعة فمسحها سريعًا، فابتسمت أنا وتساءلت برضا:

– وهل ستكون بخير دومًا؟.

أومأ فزادت ابتسامتي إشراقًا، وهمست براحة:

– وهذا كل ما أريده.

تنهّدت فرفع ذلك الطيف وجهي له، لأنظر بعينيه، وفجأة ظهر شعاع قوي، جعلني أحبس أنفاسي بذعر، فأغمضت عيني، تزامنًا مع أصوات كثيرة، طنين.. صرخات.. نهنهة وبكاء.. حتى سمعت صوت الطيف مرّة أخرى يقول بلا تعبير:

– هل رأيت نهايتك؟ هل يكفي أم أنك تريدين رؤية نهاية أخرى؟.

فرفعت له عينيّ بغير فهم.. بينما عيناي ما زالتا متّسعتين على آخرهما من الصدمة!

من هذه؟!

فتاة تسير أمامي ببطء، في ممرٍ ضيّق مظلم لا ينيره إلا شعلتان أراهما من على بعدٍ كبير.. رأيتها تلتفت خلفها مبتسمة بصفاء، فرأيت وجهها.. إنها جلاديس! كيف أن أخطئ ربطة شعرها غير الناعم!

ناديتها بغرابة:

– جلاديس؟ أين تذهبين؟!.

وأشرت خلفي قائلة بتأكيد:

– طابق العرائس من هنا!.

لم ترد عليّ! فأدركت أن هذا بسبب ضعف سمعها، فهرولت خلفها، ونظرت بوجهها لأرى شفتيها يهمسان بحماس:

- سأرى مولاي الأمير أخيرًا!.

رأيتها تحلّ ربطة شعرها لينساب على وجهها وجبينها بنعومة لم أعتقد يومًا أنها تليق بها! وتلمع عيناها بأمل، فقلت أنا:

- جلاديس! لا ترحلي وتتركيني!.

ضحكت هي والتفتت لي، ثم عادت تنظر للأمام وكأنني لست هنا من الأساس!

وقبل أن أدرك أنني مجرّد طيف، لمحت أن هذه الأرض التي لا تسير بها، لا تنتهي نهاية جيّدة أبدًا! بل تغوص إلى حفرةٍ مظلمة، أشعر ببرودتها بالرغم من أنني أقف بجانب إحدى الشعلات!

جلاديس تسير ببطء، وأنا أتبعها بريبة.. وأناديها بأعلى صوتٍ لدي، أحاول لمس يدها إلا أن يدي تعبر من خلالها ولا تمسك بها.. وبكيت بذعر حين اقتربت من السقوط، وصرخت باسمها بكل ما بي من قوّة:

- جلاديييييييس!.

وانتهى كل شيء! هَوَت جلاديس!

وضعت يدي على فمي بغير تصديق، والتفت لأعود حيثما كنت، لكنني فزعت باصطدامي بأحدهم.. جسد ضئيل وصغير.. جسد إيفي!

نظرت لها بتيه، لأراها تبتسم لي بينما تفرك عينيها الناعستين، تتطاير منامتها الوردية الناعمة وتهمس لي بصوتها الناعم المبتسم:

- أين كنتِ أختي؟.

في حركة واحدة اعتدلت بوضع الجلوس واضعة يدي على قلبي الذي يخفق بجنون، ولم أدرك أن شهقة عالية قد انطلقت من بين شفتيّ، وفجأة شعرت بيد تربّت على ظهري، فالتفت لأراها إيفي الصغيرة تهمس بـ:

- آسفة هل أفزعتك مجدّدًا؟.

جلست على طرف فراشي وربّتت على يدي قائلة:

- ما بك؟ للثلاث ليالٍ الماضية تستيقظين مفزوعة! هل تراودك الكوابيس؟.

- ثلاث ليالٍ؟.

ردّدتها بتيه صوت الناعس، وأضفت:

- في أي يوم نحن الآن؟.

ابتسمت إيفي وصفّقت قائلة:

- يوم مولد الأمير!.

اتّسعت عيناي بذعرٍ ووضعت يدي على رقبتي أمسّدها، ونظرت حولي لأجد أن الطابق شبه فارغ، فتساءلت:

- أين العرائس؟ أهم في الحفل؟.

هزّت رأسها نفيًا بغرابة قائلة:

- لا يوجد أحدٌ بالطابق سواي أنا وأنتِ، والباقيات قد ذهبن للخيّاطات، سيحصلن على ملابس الرقص خاصّتهن ليرتدينها بعد الحمّام الدافئ، للتوجه للحفل!.

اقشعرّ بدني وشعرت بنذير شؤم كبير، ونظرت حولي وناديت باستجداء:

- ظافر!.

وزاد معدّل تنفّسي بين نظرات إيفي المرتابة، وسمعت ردّه الفوري:

- أجل؟.

استدرت لأجده يجلس على يميني، ويشاهد ما آل إليه حالي! فسألته بغير تصديق:

- ماذا يحدث لي؟.

نهض تاركًا المفكّرة الصغيرة من يده ليخفيها بجيب ملابسه من الداخل، وقال لإيفي:

- اذهبي أنتِ وسنأتي على الفور.

ابتسمت إيفي لثقة ظافر، وقالت:

- حسنًا.

نهضت من على فراشي وأشارت لي بأنها سترحل مبتسمة، وخرجت لأكتشف أن كاليب كان يقف قرب الباب ينتظرها، التفت لظافر وتساءلت بذعر:

- هل نمت لثلاث ليالٍ؟.

ناولني كأسًا من الماء وقال:

- اهدأي، أنتِ لا تذكرين إلا الكوابيس الآن.. دقائق وسيعود كل شيء كما كان.

شربت بعض الماء ثم أعدت الكأس إليه متسائلة بغير تصديق:

- وهل الحفل اليوم؟ الآن؟.

أشار للشرفة، فنهضت بسرعة ولم أبال بكوني دست على غطاء الفراش الذي أزحته عني ليسقط أرضًا، وشهقت بذعر حين وجدت الأضواء بالأسفل، المقاعد والبساط الكبير الذي يبدّل لون العشب.. التفت لظافر لأجده يقف بالقرب مني،

وقبل أن أقول أي شيء وجدته يضع يده اليسرى خلف رأسي يثبّتها، ويده الأخرى تدلّك جبيني بإبهامه، هامسًا ببعض الكلمات المبهمة بالنسبة لي، وفجأة عاد إليّ رشدي!

قرأت حكاية قبل النوم من الورقة..

طمأنت الفتيات على حالي باليوم التالي..

الأمير طلب عروسًا..

درس الرقص شاق للغاية بسبب صدمة المدرّب لاختفاء إزالين..

أصنع بنفسي ما سأرتديه بالحفل..

درس الرقص بدل درس الفروسية..

الأمير طلب ثلاث عرائس..

لا وقت للمكتبة، فقط إنهاء الفستان..

لا أنهي طعامي..

اثنان من العرائس قد رحلتا لطابق الأمير..

تدريب مميت للرقص والتأهب للحفل..

رحيل جميع العرائس، من بينهن جلاديس، إلى طابق الأمير، ولا يتبقّى سوى أنا، وإيفي، وفتاة الحكايات، وثلاث عرائس أخريات!

شهقت بصدمة بينما وضعت يدي على قلبي وقلت:

- كيف حدث هذا! كيف مرّت تلك الأيام دون أن أتذكر؟!.

هزّ ظافر كتفيه وقال بغموض:

- أنتِ التي طلبت مني أن أجعل الأيام تمر ليأتي يوم حفل الأمير.

نظرت له بغير تصديقٍ وتذكّرت إحساس الضيق بداخلي وأنا أرى أن ظافرًا يتعامل معي كالسابق، وأنا التي أضخم مشاعري وأشعر بالحرج من كوني بجانبه طوال الوقت، فالتفت له قائلة بسأم:

- هل يمكنك أن تجعل هذه الأيام تمر سريعًا؟ أريدها أن تمر بأي حال من الأحوال حتى أستيقظ يوم حفل الأمير بدون أي مشاكل!.

أرجعت شعري الأسود الفاحم غير الطويل بيدي للخلف وطمأنت نفسي، ثم همست بغير صدمة:

- إذًا، كما قلت أنت ظافر، أنا مرتاعة فقط بسبب ذلك الكابوس الطويل.. فقط...

ربّت على رأسي وقال بتشجيع:

- حسنًا لا داعي للتفكير بالماضي الآن، اليوم فرصتك للحصول على الأمير، اسحريه برقصتك وبردائك الجديد...

التفت، أريد الوصول لصندوق ملابسي أسفل الفراش، لكن استوقفني ظافر قائلًا يقاطع ما نويت فعله:

- والرداء بالأسفل، لقد قامت إحدى الخيّاطات بإنهائه بدلًا عنكِ نظرًا لضيق الوقت.

أومأت وذهبت للمستراح، أنوي الإسراع للذهاب للخيّاطة.. وأشعر بحماسٍ مفاجئ لهذا اليوم!



وقف في منتصف غرفة الحياكة التي تعمل الماشطة بجزءٍ منها والجميع ينظرون لي بانبهار، يخبرونني أنني الأجمل، وبالطبع سيدعوني الأمير لغرفته لأقضي معه سهرة عيد مولده على طريقته الخاصّة!

رأيت الرداء الذي حكته بنفسي وابتسمت بفخر، فكان من قماش الشيفون الخفيف بلون العسل من الأكمام، وقماش آخر رقيق له نفس اللون على باقي الجسد والساقين، بتطريز بسيط هادئ، وتعجّبت من كوني صنعت غطاءً خفيفًا للوجه من نفس خامة الشيفون، ليبرز عينيّ فقط، وينسدل على رقبتي بنعومة..

أعطتني الماشطة بعض المستحضرات المحضّرة طبيعيًا لبشرتي الحسّاسة -كما تعتقد- كما أعطتني معلّمة الحياكة شرائط أنيقة لشعري لأرفعه به وقت الرقصة، وتمنّت لي حظًا موفّقًا.. وبدلًا من أن أستدير وأتّجه للباب ومن ثم أذهب للنهر للاستحمام، خطرت على بالي فكرة! شيء سيجعلني أصرخ طاردة كل مخاوفي دفعة واحدة وأكتسب إحساسًا مضاعفًا بالحماس والشجاعة!

تركت ردائي، شرائطي ومستحضراتي لإحدى الخادمات وطلبت منها أن تضعهم بالأسفل، واستأذنت من الماشطة أن أدخل لغرفة المرايا الصغيرة!

أدركت هي ما أرنو إليه فتركتني وحدي وقالت لحارسي:

- تلك الفتاة متحمّسة للغاية اليوم!.

اقترب مني ظافر ودلفنا للغرفة بهدوء، توقّفت للحظة.. أنظر إليها بألم.. كم ذكّرتني بأول يوم حضرت فيه إلى هنا، حين تفقّدوا جسدي بغير رحمة، لا مبالين بكرامتي! وحين دفعتني الماشطة من هنا للأسفل.. التفت لإحدى المرايا أدفعها كالباب، لتزيد انعكاسات صورتي وصورة ظافر بطريقة جنونيّة، ونظرت للأسفل لأرى العرائس يقمن بأخذ حمّامهن، فتنهّدت وأغلقت الباب قليلًا بتردّد، وسمعت صوت ظافر يشجّعني:

- انسي كل ما مررت به من هنا، واقفزي.. قفزة واحدة ستكون بداية لحياتك الجديدة، ستخرجين من هنا أميرة!.

نظرت له بتردّد، ثم عضضت شفتيّ بغير ثقة وكدت أن أمُرّ بجانبه لأخرج لغرفة الماشطة مرّة أخرى حيث التماثيل الباردة بينما أقول:

- ربّما يجب عليّ استعمال الدرج العادي فقط...

هزّ ظافر رأسه نفيًا ومنعني من المرور، فنظرت له بتساؤل، لأجده ينظر لي في عينيّ مؤكدًّا:

- أنتِ تريدين هذا إليونورا.. اقفزي واصرخي قدر ما تريدين! لن يصل صوتك للأعلى، لن تعترض العرائس أبدًا، وستشعرين بالمزيد من الثقة!.

تنهّدت بقلق ونظرت له قائلة:

- حسنًا.. سأجرّب.

فتحت الباب الزجاجي ونظرت للأسفل، لأجد أن البقعة التي أسفل الباب خالية تمامًا، مما جعله وقتًا مناسبًا للقفز من تلك المسافة.. أخذت نفسًا عميقًا وزفرته بحماس وابتسامة، وكأنني فتاة أخرى غير التي كانت قلقة منذ ثوانٍ.. وقفزت!

صرخت بأعلى صوتي بحماس وسعادة، والهواء يداعبني من كل ناحية، لم أشعر بالخوف كالمرّة الأولى التي فعلت بها هذا، لأن هذه المرّة كانت بإرادتي!

رفعت يدي للأعلى سامحة لمنامتي أن تطير للأعلى لأتجرّد من ملابسي بحريّة، ونظرت للأسفل بمرح وأغمضت عيني بعد أن أخذت نفسًا عميقًا وأنا أقول:

- اليوم سأصبح أميرة!.

سقطت بالماء وغصت به، فتحت عيني به على الفور لأراقب فقاقيع المياه تندفع بجنون من حولي، وفجأة شعرت بموجة أخرى تحركني، أحدهم قد قفز هو الآخر، وما هي إلا لحظة حتى رأيت ظافرًا يغوص إلى أعماق الماء متّجهًا إليّ، يمد ذراعي أمامه ليلتقطني ويجذبني لخارج الماء، لأفتح عيني شاهقة أنفاسي بحماسٍ، وضحكت!

- أجننت؟ هل كنتِ تريدين المكوث بقيّة اليوم تحت الماء!.

قالها ظافر بغير تصديق به شيء من الانفعال، فابتسمت في وجهه قائلة:

- شردت لبعض الوقت! ولا بأس أنا بخيرٍ الآن!.

سبحت بعيدًا عنه بعد أن وجدت ملابسي وأدواتي وبدأت بالاستحمام بشرود، بينما صفّرت فتاة الحكايات وقالت بإعجاب:

- يبدو أن هناك شخصًا ما متحمس بعض الشيء!.

ابتسمت وأنا أعرف أنها تقصدني، لكن سرعان ما عبست حين تذكّرت كوابيسي، والتي هي بسبب قصّتها تلك بلا شكّ! وشردت مجدّدًا، فجأة وجدت إيفي ترشّني بالماء وتناديني:

- أختي الجميلة! لا تنسي وعدك لي!.

التفت لها بينما أخفي ما ظهر من جسدي وسألت مبتسمة بغرابة:

- هه؟ أي وعد؟.

وشردت في كونها تناديني «أختي»!

مثّلت إيفي الانزعاج بضحك كاليب وقال يحدّثني بعفوية من خارج النهر بينما يجفف رداءه من الماء:

- وعدتيها أن تصبح وصيفتك! حين تصبحي الأميرة!.

شعرت بأنني قلت هذا، فانطلقت أومئ بتأكيد لها مبتسمة بحماس:

- نعم بالطبع! ستكونين كذلك!.

حدّثني ظافر ليفسّر ما غاب عقلي عنه:

- أنتِ من طلبت منها أن تتعامل معكِ كأختها، لأنها ذكّرتك بأختك بالحياة...

عبست بتركيز وحاولت تذكّر وجه المسكينة التي كانت تصرخ بذلك الكابوس.. لكنّني سمعت أصوات ضحكات متسليّة، فنظرت لمصدر الصوت لأجده آتيًا من خلفي، من ثلاث عرائس يساعدن بعضهنّ بعضًا على الاستحمام، تنظّف واحدة شعر الأخرى بينما الأخيرة تنظّف ظهر من تقف بالمنتصف، فتساءلت أنا باستنكار:

- ما المضحك؟.

ضحكت إحداهنّ بغرور وقالت لي:

- أدرين إليونورا؟ لستِ وحدك الجميلة هنا! سيختار الأمير أي واحدة منّا!.

رفعت حاجبيّ بتسلٍ ولوّحت بيدي في الهواء بلا مبالاةٍ قائلة:

- وما النقطة التي تريدين توضيحها بالضبط؟.

ضحكت صاحبة الحكايات وإيفي وحارساهما، وقال ظافر بعقلي لينهي الحديث:

- تجاهلي.. واسترخي قليلًا قبل الحفل...

هززت رأسي في خفاء وسبحت بعيدًا في زاوية غير واضحة للعيون وصببت سائل الاستحمام على جسدي وبدأت بتدليكه ببطء، بينما أغمض عيني أحاول تهدئة أعصابي..

وقفت بغرفة الماشطة مرّة أخرى، مرتدية الزيّ الذي أمضيت في صُنعه الكثير من الوقت، تضبطه إحدى مساعدات معلمة الحياكة على جسدي بينما الماشطة بنفسها تصفّف لي شعري الأسود الفاحم، رفعته للأعلى بأحد الأشرطة بلون ردائي، تاركة بعض الخصلات الناعمة لتنسدل على وجهي بدلال، وتركته بهيئة مرتاحة، فأخذت أنا غطاء الوجه الشفّاف وارتديته بنعومة.. راقبت إحدى المساعدات تصفّف شعر إيفي في جديلة تبدأ من أول رأسها حتى آخره، كما فعلن بشعر واحدة من الفتيات، أما الفتاة ذات الحكايات، فقد تركن شعرها منسدلًا بعد أن فردنه بالحرارة ليعطيها مظهرًا جذّابًا، وضعن القليل من الزينة على وجهها، ورفضت أنا أن يتم وضع أي شيء على وجهي، وأيّدني ظافر في ذلك، لأكون بمظهري الطبيعي.. فأنا أعترف بكوني جميلة الآن، فلمَ أحتاج إبراز جمالي بطريقة مفتعلة؟

انتهت المساعدات من إعدادنا على أكمل وجه، وقبل الرحيل نظرت لردائي مرّة أخيرة، وابتسمت حين رأيت في لونه الرقيق انعكاسًا للون عينيّ..

عبرت الجسر فوق الخندق وظافر بجانبي وأشعر برهبة لذيذة تدغدغ حواسّي والهواء البارد يدفع عباءتي يحاول كشف ما أرتديه، لكن هيهات، بت أقرّب العباءة من جسدي كي تكون مفاجأتي للأمير وحده.

أوقفتنا جليندا خلف ستارٍ كبير بالباحة الخلفيّة للقلعة، وباتت تملي علينا التعليمات: ممنوع الحديث أمام الأمير، التطلع بعينه يكون فقط بإذنٍ منه، كما يجب علينا تقبيل يديه بعد أي مدح يلقيه علينا، العبوس غير مسموح، فنحن هنا لراحة الأمير، من ستؤدي رقصتها أولًا يجب عليها تقديم باقة من الورود إليه.. وكانت ورودًا بيضاء رقيقة، لكنّها لم تعجبني.. لم أشعر بها بروح الورود التي أنا معتادة عليها..

قام المدرّب الذي ارتدى ملابس رسمية لا تليق به بالوقوف أمامنا واختار من ستؤدي الرقصة الأولى، وكانت الفتاة ذات الحكايات، تليها العرائس الأخريات ثم إيفي، وأنا كنت الأخيرة.. اقترب مني وهمس بأذني بحذر خوفًا من نظرات ظافر له:

- أنتِ الأفضل لذا تركتك للنهاية، كالحلوى!.

أمسك ظافر كتف مدرّبي وهمس بأذنه بطريقة عدائية، يملي عليه ما يشعر به تجاهه:

- أردت أن تكون مدربتها امرأة تجيد الرقص ببراعة، لكن ها أنت ذا، فقت جميع توقّعاتنا وأثبت أنك مدرب بارع وخبير!.

ضحك الحرس وكتمت أنا ضحكاتي، فاحمرّ وجه المدرّب وأرجع شعره للخلف بخجل قائلًا:

- أشكرك.. كلماتك تلك أسعدتني حقًّا!.

وكاد أن يتفوّه بالمزيد إلا أن ظافرًا زفر بسبّة وانصرف، لينفجر الحرس ضاحكين بشدّة، وابتعدت أنا أخلي مسؤوليّتي عن ما قال، واحمرّ وجه المدرّب، فصاحت جليندا بهمس:

- لا ثرثرة، لا ضحك، فقط تركيز!.

ابتسمت لإيفي ولوّحت لها فابتسمت بحماس وهمست بـ:

- تبدين رائعة حقًّا!.

ابتسمت لمجاملتها ورأيت التأكيد بعين كاليب، فابتسمت له بامتنان، ونظرت لظافر، كم أردت مشاركته لحظتي المهمّة تلك، لكنّني لم أجده! بحثت عنه بعيني وسألت أحد الحرس فأجابني بأنه لا يعرف، وتعجّب كاليب من فعلته وهمس لإيفي وسمعته أنا:

- لم يجب عليه الرحيل هكذا! حتمًا ستشعر بالتوتّر!.

ابتسمت بارتعاش وحاولت تجاهل ما قال، إلا أنني فجأة سمعت أصوات ألعاب نارية بالسماء، وأبواق عالية، وأحدهم ينادي بعظمة صوته:

- سموّ الأمير غيث.

وسمعت أصواتًا بالخارج، ووقع أقدام وصهيلًا لفرس، حاولت التلصّص، فتحرّكت لزاوية ما ونظرت من خلالها فوجدت جوادًا داكن اللون بسرجٍ أنيق للغاية، يرتدي ما يشبه عباءة ملكيّة فخمة، يمسك بلجامه فارسٌ مغوارٌ بينما جلس عليه بزهوٍ ليكون أعلى من الجميع؛ هو سمو الأمير! رفعت رأسي لذلك التاج العظيم وابتسمت بترقّب، وقبل أن أحاول لمح أي من ملامح أميري، جذبتني صاحبة الحكايات بحذر وهمست بـ:

- ستوبخك جليندا إن رأتكِ تتلصّصين هكذا! عودي لموقعك!.

عدت بسرعة خلفها ووقفت حيث كنت أقف منذ قليل، لأجد أن جليندا قد أتت لنا بمقاعد لنجلس عليها، فاسترحت وعيني تدور في كل مكان، أسمع موسيقى الاحتفال وصوت الحضور المتداخل، وأتساءل بغرابة.. أين ذهب ظافر؟!

نادت جليندا على فتاة الحكايات، فوقفت ممسكة بباقة الورود تبتسم بحماس، فشجعتها بابتسامتي ولمعة عينيّ وشجّعها حارسها بعد أن ضبط لها هيئة شعرها وربّت على كتفها، فانطلقت من الممشى الخلفي حتى ظهرت أمام الحضور، تخيّلتها تمشي بخطواتٍ متمهلة على البساط الناعم حافية القدمين، ممسكة بباقة الورود الكبيرة، وبينما تخفض بصرها للأسفل قدر المستطاع، تتقدّم نحو الأمير بحذر، وبدون أي كلمة تنحني لتجلس على ركبتيها وترفع باقة الورود له ببطء، فيمسكها مبتسمًا ابتسامة غامضة جذّابة.. ترى كيف يبدو الآن؟ كم أريد النظر له! لكن.. القواعد تمنعنا!

سمعت صوت الحضور يصمت شيئًا فشيئًا مع اندلاع الموسيقى المبهجة، وبالطبع قد بدأت فتاة الحكايات تؤدّي رقصتها المليئة بالحركة كبداية جيّدة للحفل..

- ستبدو قطعة الزينة هذه رائعة عليكِ! لمَ لا تجربينها؟.

أفقت من شرودي على صوت تلك العروس التي تُهدي أخرى قطعة من الحُلي، توضع على الرقبة ويتدلّى منها العديد من الأطراف الصغيرة الرفيعة، فأخذتها العروس بابتسامة واحتضنت الأخرى قائلة:

- حبيبتي أشكرك! كم هذا لطيفٌ منكِ!.

ساعدتها على ارتدائها بعد أن رفعت شعرها، وتمنّت لها حظًّا جيّدًا! وفجأة، وقبل أن تهدأ الموسيقى وقفت الفتاة لتستعد للذهاب للحضور من وزراء وضيوف شرف من ممالك أخرى وعلى رأسهم الأمير.. وفجأة تأوهت بضعف واضعة يدها على عنقها بغرابة! شهق حارسها بغيظ:

- مكيدة!.

خلع عنها الطوق بسرعة وقذفه بعيدًا، لألمحه بينما يطير بالقرب مني، يقطر منه قطرات من دمائها!

حضرت إلينا الفتاة ذات الحكايات وقبل أن تنادي على الفتاة الأخرى توقّفت أمام مظهرها المؤلم، لقد كانت جاثية أرضًا تنزف من رقبتها على ملابسها بغزارة ولا تستطيع التنفّس بطبيعية، انحنى حارسها ليحملها، وصاحت جليندا بذعر:

- ماذا حدث لها! ما الذي كانت ترتديه!.

انسحب حارس الفتاة ذات الهديّة الثمينة وجذب فتاته، ودفعها ببطء للخارج، لتؤدّي هي الرقصة وحدها، بدلًا من أن تكون الرقصة مزدوجة مع تلك الفتاة المصابة!

نظر الحارس القلق للحارس الآخر المتظاهر بالبراءة وقال بغيظ:

- ماذا فعلتم بها!.

كنّا نراقب بدهشة، إيفي تخفي عينيها من فظاعة المنظر، الفتاة ذات الحكايات قد قطعت جزءًا من ردائها الخفيف لتصنع به ضمادة للمسكينة، الفتاة الثالثة

تجثو بجانبها أرضًا تمسح على شعرها، وأنا أراقب.. فقط أراقب تلك المؤامرة.. المؤامرة الثانية! والتي بالطبع ستتّخذ جليندا ضدّها إجراءً قويّا بعد الحفل!

حمل الحارس مسكينته للحكيمة، وكادت أن تذهب معها صديقتها إلا أن جليندا منعتها بحزم، وطلبت منها أن تؤدّي رقصتها المنفردة أولًا ثم تذهب كما تشاء، فأمسكت الفتاة بعصاها ذات الشرائط وجلست على مقعدها بهدوءٍ غامض!

أخذت تلك الرقصة وقتًا أكثر من ما ينبغي، وبينما أنا شاردة في صوت الحضور المنبهرين خلف صوت الموسيقى الصاخبة، وجدنا خادمة تقترب منّا من الباب الخلفي، تقدّم لنا مشروبًا منعشًا بينما تهمس:

- أوصت به الحكيمة لزيادة مناعتكنّ ضد أي ميكروب بالجوّ.

ضحك حارس إيفي بسخرية قائلًا:

- ميكروب بالجوّ أم بقطعة حُلي على رقبة واحدة منهنّ؟!.

أخذنا الكؤوس بأيادٍ مرتعشة، وتنهّدت بداخلي قائلة:

- ظافر.. أحتاجك بجانبي الآن، فأنا لا أشعر بالارتياح!.

انتهى أمر السوائل بالكؤوس مسكوبًا على العشب أسفلنا؛ لم توافق أيٌّ منّا على شرب أي شيء بعد ما حدث لتلك الفتاة، فمن السهل جدًا أن يحتوي هذا المشروب على شيء غير آمن.. سمّ مثلًا! فالأفاعي تنتشر هنا بطريقة وفيرة بسبب كوننا في غابة، من السهل أن يتم استخلاص سمّها لبدء مؤامرة رخيصة للغاية لا تكلف غير أرواح البعض!

كنت أشعر بالجوع الشديد، لكنّني تحاملت على نفسي، فمنعنا المدرب من تناول الإفطار قبل الحفلة حتى لا نخمل أو تتعب معدتنا، فتحمّلت..

حضرت الفتاة الغادرة بعد أن انتهت رقصتها، فهوت عليها الفتاة ذات الأشرطة بالصفعات الخادشة على وجهها فصرخت الأخرى بألم وباتت تسبّ في

الأخرى، وكأنها لم تكن صديقتها يومًا! جليندا متوتّرة للغاية، فطلب المدرب من إيفي أن تؤدي الرقصة قبل تلك الفتاة الثائرة حتى يتمكنوا من تخليص يدها من وجه الأخرى، لكن، لم يدركوا أنها بصفعتها تلك تلقّت عقابًا عسيرًا من الحارس الخبيث ببعض الدبابيس والإبر المتوفّرة بغرفة الخيّاطة! فقط نثرها بخفّة تحت أقدامها الحافية بينما تتشاجر مع فتاته، وحُلّت المشكلة! ولن تستطيع الوقوف على قدمها مرّة أخرى إلا بعد علاجٍ مكثّف!

ها هي فتاة أخرى قد رحلت، وهذا يعني أنه لم يتبقّ غيري.. ورغم اندلاع مؤامرة ثالثة إضافية بخسة، لم يظهر ظافر بعد!

تحرّكت للحضور بخطًى متّزنة، لم أرفع عيني للأعلى سوى حين أخذت أولى خطواتي فقط، وهالني ما رأيت!

العديد من الحضور بملابسهم الفخمة الغالية، نساء ورجال في أبهى صورهم، من البذلات الراقية، الفرو والساعات الغالية.. يظهر عليهم الوقار والغرور، يذكرونني بتلك اللوحات والصور على الجدار بالردهة، كما تظهر رائحة عطورهم الكثيفة بالجوّ..

وأخيرًا لمحت الأمير! جالسًا على عرشه الأحمر المرصّع بالذهب كلون تاجه العظيم، عرشه في مستوى أعلى من الحضور لكن لم يمنعه هذا من مبادلتهم حديثًا جانبيًا ظهرت فيها ضحكته الساحرة لي.. كم أسرتني!

حاولت التركيز على الوقوف بهدوء، لكن مشهد عينيه وهما مبتسمتين هكذا بظهور تجاعيد خفيفة حولهما أثار بقلبي تلك الرهبة مجدّدًا وارتعشت ساقاي بوهن، شردت بشعره الداكن كلون جواده، وفي بشرته الخمرية الجذّابة المليئة بالحياة، والتي أشعرتني بكوني شاحبة للغاية مقارنة به.. لم أستطع النظر بعينيه أكثر كي لا تتقابلا، وتنهّدت بارتعاش، وقلت أناديه بداخلي مع بداية اللحن الهادئ:

- سمو الأمير.. ها قد بدأت الموسيقى، من فضلك انظر إليّ!.

رفعت ذراعي تزامنًا مع بدء أول آلة بالعزف، وفعلت المثل بذراعي الأخرى مع صوت الآلة الثانية، ومع دمجهما معًا قمت بتحريك يديّ مع جذعي قليلًا بتمايل ناعم، ونسيت أي شيء بهذا العالم أو بغيره، سوى ضحكة الأمير.. وباتت هي هدفي.. سأصل لك سيّدي.. وستكون لي وحدي اليوم!

انتهت رقصتي بسلام، وحين خفتت الموسيقى عادت قدماي ليشعرا بملمس الأرض بعد أن كنت عاليًا بالسحاب، صفّق لي الجميع فتجرأت لرفع عيني قليلًا وأدهشني ما رأيت وجعل قلبي يخفق بقوّة! الأمير يقف يصفّق ببطء، حتى بعد أن صمتت أصوات التصفيق من حوله! ترى هل كنت بالمستوى المطلوب لإبهاره؟ وبدوت محترفة برقصتي؟

رؤية الإعجاب باديًا عليه أكدت شعوري وزادت ابتسامتي بينما ألتقط أنفاسي برقّة.. وفجأة سمعت صوت وقع أقدامٍ خفيفة، وشهقات الحضور!

أخفضت رأسي بارتعاش وحاولت عيني جذب أي مشهد، إلا أنني سمعت أنفاسًا رجوليّة منتظمة فوق رأسي، فكتمت شهقتي وتساءلت بداخلي:

- هل.. هو سموّ الأمير؟.

وقبل أن أخمّن أكثر، شعرت بأنامله الدافئة تداعب ذقني الرقيقة، ترفع وجهي إليه، حتى تقابلت أعيننا!

كم هو وسيم! شعرت براحة غريبة بمجرّد النظر إليه، وضعت في عينيه الزرقاوين بلون المحيط.. شعرت بتجمّع الدموع بعيني، تلك الدموع التي تعبّر عن ما عجزت عنه الكلمات.. فما هو أمامي الآن هو الأمير ذاته، يبتسم لي بشفتيه الناعمتين لتظهر تلك التجاعيد التي تؤكّد صدق ابتسامته حول عينيه.. لم أستطع أن أفكر في أي شيء سوى أنه أجمل من رأت عيني بسن السادسة والعشرين! لا.. بل بأي عُمرٍ كان!

أزال غطاء وجهي الخفيف.. وتركه ينسدل على رقبتي كالعقد..

- أنتِ مميّزة.. وفريدة.

قالها الأمير فأسبلت جفوني عنه، خجلًا من عينيه اللتين أغرقاني بمياههما الجارية، وقبل أن أفكر بما قال وجدته يخدرني بكلماته العذبة:

- لم أرَ بحياتي شيئًا أكثر رِقّة منكِ!.

أيراني أكثر رِقّة من إيفي؟ كم هذا مؤثر بالنسبة لي! تذكّرت جليندا حين أخبرتنا بتقبيل يده بعد أي مجاملة يقول، انحنيت أمامه على ركبتيّ، أمسكت بيده، وقبل أن ألثمهما سألني بعذوبة صوته الأجش:

- ما اسمك؟.

فرددت أنا بينما أحاول منع صوتي من الاختناق بخجلي:

- إليونورا.. هو اسمي.

وبحذر شديد أخذت أنحني على كفّه التي أمسكتها بين أنامل يديّ برقّة، وقبل أن أطبع بشفاهي قبلة صغيرة تحمل كل ما بي من مشاعر متخبطة، سمعت صوت البوق ينفجر ليشق الصمت بفظاعة، فرفع الأمير رأسه للأعلى بتساؤل، لنجد الرجل ذا الصوت العظيم يقول بتحفّظ:

- يؤسفني إخباركم بأن حريقًا شديدًا قد شبّ بالمطبخ الكبير.. وأعتذر منكم، يجب الابتعاد عن القلعة قدر الإمكان!.

رفعت رأسي ببطء للقلعة، بينما ما زلت جاثية على ركبتيّ، لأجد الدخّان يتطاير بكثرة من نوافذ القلعة وفتحاتها بأحد الطوابق لتغشي عيني عن القمر الذي شهد على أروع لحظاتي بهذا العالم، بدأت أسمع صوت صرخات بعيدة تعبر عن الذعر والفزع.. هناك خادمات بالداخل! أيضًا ميلدا كبيرة الطهاة! ترى هل الجميع بخير؟

جذب الأمير يده من بين أناملي ببطء حين اقترب منه حارساه الشخصيّان يقولان بتحفّظ:

- من أجل سلامتك سيّدي، ينبغي لك الذهاب قرب النهر.

وتابع أحدهما وحده:

- القارب الملكي مجهّز لاستكمال الاحتفال واستقبال سيادتكم.

نظر لي الأمير بخيبة أمل، وقال بهمس:

- يا للخسارة!.

وعدا بعيدًا عني.. برفقة حارسيه، فتطايرت عباءته من أثر الهواء المحمّل بالدخان لتصفعني على وجهي الذي أخفضته بأطرافها المرصّعة، حتى وجدت نفسي ساجدة على الأرض.. أبكي بخيبة أمل!

ما هذا الحظّ! كنت قريبة للغاية وقاربت على الوصول له! ماذا يظنّني الآن يا ترى؟ فأل سيئ؟ أم جالبة للمصائب؟

انهمرت دموعي بغزارة وبات صوتي واضحًا بالبكاء، حتى إن أصوات الجميع قد خفتت عن أذنيّ وهم يركضون من القلعة وإليها ينادون بعضهم بعضًا بذعر، دقيقة مرّت قبل أن أسمع الحرس ينادون على الجميع.. سواي!

وبعد وقتٍ لم أدركه قط، شعرت بشيء ناعم يوضع عليّ فرفعت رأسي بتساؤل.. وجدته ظافرًا؛ قد أحضر عباءتي ليضعها على ظهري، وفي يده تفّاحة حمراء شهيّة، أخذ يدي فتحاملت عليه لأنهض ببطء وخذلان وهمست بغير تصديق:

- أين كنت؟.

ضحك بتسلٍ وقذف التفّاحة عاليًا ثم التقطها بنفس اليد قائلًا:

- كنت بالمطبخ حتى الدقيقة الأخيرة، أردت جلب شيء لكِ لتأكليه!.

واستطرد:

- بالتأكيد تشعرين بالجوع بعد كل هذا المجهود.. تفضّلي!.

وناولني التفّاحة، فأخذتها بين دهشتي، وقلت بغرابةٍ وقلق:

- لكن هناك حريقًا بالمطبخ! كيف كنت هناك!.

ربّت على يدي قائلًا:

- تركتهم يتولّون أمره، فالحرائق تحدث بصورة عادية، لا داعي للقلق!.

ضعفت قبضتي حول التفّاحة وصحت به بغير تصديق:

- لقد تعرّضت فتاتان لمكائد ومؤامرات، تأذيت نفسيًّا ورغم ذلك أبدعت برقصتي ونظر الأمير بعينيّ...

صمتت ألتقط أنفاسي ثم استطردت بقهر:

- ثم تركني ورحل لأتأذّي مرة أخرى.. ولم تكن هنا!.

صمت أفكّر ثم هطلت دموعي مرّة أخرى وتساءلت بشك:

- أين كنت حينما أدّيت رقصتي ظافر؟.

ضحك ظافر ليستفزّني فصرخت به:

- هل كنت أنت مسبّب الحريق؟.

هزّ كتفيه وفرد ذراعيه بلا مبالاة وانصرف، فلحقت به بين المكان الذي خلا تمامًا من الناس، لأسمعه يقول بهدوء:

- شاهدت الجزء الأول من رقصتك وأعجبت بها للغاية.. لكن كان عليّ الانصراف لتحضير مؤامرتي الثانية!.

وضعت يدي على قلبي -قبل أن يهوي- بغير تصديق وأمسكت ذراعه أديره إليّ، وصحت فيه بمرارة:

- بفعلتك تلك أضعت عليّ فرصتي مع الأمير! ألم تكفِك مؤامرة إزالين!.

ثبّت كتفيّ بيديه وانحنى ليهمس بالقرب من أذني بحرارة:

- لم أكتفِ بعد...

واستطرد لدهشتي:

- أنتِ مؤامرتي التالية إليونورا!.

اتّسعت عيناي بصدمة وشعرت بقلبي يهوي بقدميّ.. ماذا يعني بذلك؟ وبينما أنا أرفع عينيّ إليه؛ أحاول رؤية عينيه الغامضتين، رفع هو طرف عباءته الأيمن بطول ذراعه ليخفينا بها عن المارّة، ثم انحنى إليّ، وفي حركة خاطفة كان قد أنزل قناع وجهه، واقتنص شفتيّ.. ليذيبهما بقبلة خدّرت حواسّي..

وأسقطَت التفّاحة من يدي!



{١٩}

=الحكايـة الأخيرة لها=

اتّسعت عيناي بصدمة وشعرت بقلبي يهوي بقدميّ.. ماذا يعني بذلك؟ وبينما أنا أرفع عينيّ إليه؛ أحاول رؤية عينيه الغامضتين، رفع هو طرف عباءته اليمنى بذراعه ليخفينا بها عن المارّة، ثم انحنى إليّ، وفي حركة خاطفة كان قد أنزل قناع وجهه، واقتنص شفتيّ.. ليذيبهما بقبلة خدّرت حواسّي..

وأسقطت التفّاحة من يدي!

أفيقي! إنه يستغلّ مشاعرك تجاهه! يستخفّ بك.. يراك رخيصة بلا قلب!

ارتعد قلبي وهوت دمعة من عيني، جسدي يأبى الحراك، عقلي يصرخ في، يؤنّبني بشدّة وقلبي يرجوني بالبقاء.. لكن لا!

دفعت ظافرًا بكل ما بي من قوّة، قطعت ذلك الاتّصال الروحي بيننا بقسوة، ورفعت يدي أريد صفعه على وجهه الذي سرعان ما أخفاه بمهارة، لكنّه فاجأني بسرعة يدي بتثبيت معصمي بين وجهينا.. لهثت أنا أنفاسي، أكتم شهقاتي المريرة، وهو يلتقط أنفاسه ببرود يؤكّد ظنوني.. ولم أجد لي قدرة على فعل أي شيء، فصرخت به وجاء صوتي هزيلًا واهنًا:

- إيّاك أن تستغلّ ضعفي.. أكرهك ظافر!.

تحرّكت ببطء للخلف وقد بدأت أشمّ الدخّان الكريه، وزدت حركتي شيئًا فشيئًا، تركته خلفي وابتعدت مسرعة لداخل القلعة.. والغريب، أن شيئًا بداخلي شعر بالانكسار.. حين وقف ظافر مكانه، ولم يتبعني!

بغرفة الحكيمة، على فراش إزالين تحديدًا، نظرت إزالين حولها بقلق، بينما رأت نظرات الشرار تتنقّل بين ثلاث فتيات، يرفضن تناول الطعام أو الدواء رغم حالتهنّ الصحيّة المتدهورة.. واحدة منهن رقبتها مضمّدة، والثانية قدمها مضمّدة والثالثة تحتلّ وجهها العديد من الكدمات..

- طِراد.. أشعر بالقلق من مظهرهنّ...

نظر طِراد لإزالين المرتاحة على الفِراش بوضع الجلوس، فنهض على الفور وأغلق سِتار فراشها بالكامل، وقرّب مقعده من فراشها وهمس:

- هل هذا أفضل؟.

ضحكت بخفوتٍ ثم ابتسمت.. فابتسم وتناول بيده صينيّة إفطارها، وقال:

- هيّا تناولي الطعام لتتعافي سريعًا...

تحوّلت ابتسامتها لعبوسٍ شارد، وسرعان ما قالت بهمس:

- سمعت أن واحدة من الفتيات قد وضعت السم لإحداهنّ.. لن أتناول الطعام.. لا أريد أن يتوقّف قلبي قبل أن يحدث ما أريد...

تنهّد طِراد وأخرج من جيب ردائه شيئًا ما، قنّينة رذاذ شفّافة اللون، تظهر السائل الشفّاف بداخلها فبدا كالماء في هيئته الخفيفة، رشّ منها القليل على الطعام بحرصٍ وتركيز ثم قال بصدق:

- لم يتغيّر لون الطعام أو شكله إزالين.. إذًا هو طبيعي وليس مسمومًا!.

وأضاف وهو يشيح ببصره بعيدًا:

- لن أسمح أن يفعلوا بكِ هذا أبدًا طالما أنا أتنفّس بهذا العالم...

ابتسمت إيفي بألم وهمست بينما تدفع الطعام بيدها:

- لكن.. أنا فقط لا أريد...

عاود حارسها الجديد النظر إليها بقلق، وتساءل:

- ما بكِ؟.

أخفضت رأسها كي لا يرى عينيها النديّتين وقالت بقوّة، تخفي مشاعرها خلفها:

- اشتقت لصديقتي بالطابق ليس أكثر...

ابتسم ورفع ذقنها بأنامله لتنظر إليه، واكتشف عينيها الدامعتين، فمسحهما بإبهاميه وهمس:

- لا تخفي ما تشعرين به إزالين.. أراه بعينيكِ!.

ارتعشت شفتي إزالين قبل أن تفقد السيطرة على دموعها، لتسقط وتلامس يد طِراد التي تلامس ذقنها بخفّة.. وهمست بصوتٍ غير مسموع، لكنّه استطاع تمييزه بكل سهولة..

- اشتقت إليها.. اشتقت لأمي!.

- بما أنها الليلة الأخيرة لي هنا، سأخبركن بحكاية.. إحدى الحكايات المرتبطة بالحب.. والخذلان...

دقّ قلبي بعنفٍ لآخر كلمتين، ولا إراديًا تذكّرت قبلة ظافر، والذي لم يصعد خلفي بعد أن فررت من أمامه.. لمعت عيني وحاولت إخفاء تخبّط مشاعري فقلت مخاطبة الفتاة:

- قطعًا لن تكون الليلة الأخيرة.. فهناك فتاة عادت من طابق الأمير من قبل!.

قلتها لأصرف ذهني عن ما أفكر به، وأخذتني خلاياي لتلك الأميرة التي عادت.. لتبكي بحسرة ومرار، والتي عذّبني صوتها وأرّقني لليالٍ طويلة..

- وهل من عادت.. عادت بالفعل؟.

قالتها عروس الحكايات بابتسامة أليمة ذات مغزى.. فهوى قلبي بقدميّ وابتلعت غصّة في حلقي، وشددت على يد إيفي أربّت عليها.. أتذكر حينما قالت:
- حتمًا يختار الفتيات الأقل جمالاً فالأجمل.. ليترك أكثرنا جمالاً للنهاية!.

وعرفت من ستكون التالية.. هل الأمر سيّئ لهذه الدرجة؟!

- إذًا.. حكايتي الأخيرة بهذا الطابق.. عن فتاة جميلة.. ذبلت عيناها بسبب دموع القهر والضعف يومًا حتى توقّف قلبها...

اعتدلت في جلستها واحتضنت إحدى الوسادات الأرضية، وقالت بصوتٍ دافئ، لم أعتده من نبرتها المازحة دومًا:

- يحكى أن كانت هناك امرأة.. لم ير الكون في رقّتها وجمالها قط، فكان الموج بعينيها الزرقاوين يذيب قلوب الرجال أجمع، لكنّها لم تختر إلا واحدًا فقط، لتهبه جمالها.. وقعت بغرامه وأذابها عشقًا، كلّلا عشقهما بالزواج، لتصبح زوجة أصغر وزير شابّ بمملكة الغرب...

وفي يوم من الأيام، حضر جميع الأمراء من جميع أنحاء العالم الآخر لمناسبة مهمّة تعقدً بمملكة الغرب، وتسامر الوزراء، وزوجاتهنّ معًا بعد أن ناقشوا عِدّة أمور تخص أمن المملكة وسلامتها.. وعلى رأس المدعوّين كان أمير مملكة الشمال، المعروف بسلطته ونفوذه بين الممالك ومالكيها، يجلس بفخر، يتابع إحدى الجالسات بعينيه الزرقاوين كعينيها.. يراقب الشقراء الجميلة، ويطلق العنان لخياله ليجعلها بطلة أفكاره الهوجاء وتمنّى وقرّر أن تكون له.. وقد كان!

تقدم بخطوة لم يندم عليها إلّا وزير، تمّت إزالته من الحكم ومن العالم أجمع في غمضة عين، بسبب رفض حبيبته الجميلة تركه من أجل أمير الشمال، وبعد أيام، زُفّت الشقراء الحزينة -وقد انطفأت لمعة عينيها- للأمير، بصفتها الأميرة المنشودة للقلعة البيضاء.. ذات البرج الواحد العالي..

حاولت أن تديم إخلاصها لزوجها الوزير المقتول غدرًا، وعاش قلبها أرمل رغم وجودها تحت سقف القلعة البيضاء على فراش الأمير. جفّت دموعها من كثرة البكاء، أصبحت بشرتها شاحبة كالثلج، شعرها انطفأ وهيجُه الذهبي وغابت عن الوعي أكثر من مرّة وحدها.. ودون علم أحد، وحين شعر الأمير بهذا، استدعى الحكيم فورًا..

لم يكن خفيًّا على سحر الطِب وغير الطب أن يكتشفوا الخبر السعيد، خبر حمل الأميرة بوليّ العهد، لكن ما كان خفيًّا، هو ما أدركته الأم بمجرّد أن وضعت مولودها، طفلتها ذات السبعة أشهر.. لم تكن تلك طفلة الأمير.. بل هي ابنتها الوحيدة من الوزير!

كتمت الأم الخبر وأحبّت ابنتها التي تشبهها كثيرًا بلون شعرها الأصفر المنطفئ، في طباعها وحركاتها ووهبتها حياتها بعد أن كانت زاهدة بها والفضل للمغرور!

أحب المغرور فتاته وطفلته ودلّلها لعامين، ثم بدأ بتجاهلها وقتها لانشغاله بأمور المملكة، حتى جاء خبر سعيد آخر.. تمنّى وقتها أن يكون المولود ذكرًا فتيًا قويًا، ليتولّى منصبه الشاهق من بعده..

توالت الأيام، ووضعت الشقراء ما كان مخفيًّا عن العيان لتسعة أشهر، ولدين جميلين، بنفس لون عينيها، وشعر والدهما الداكن، والذي منذ ذلك اليوم أطلق على نفسه لقب الملك، لتكون المرأة الجميلة الشقراء ملكة، والصغيرة أميرة وأخت لأميرين!

مهلًا..

أميرين؟

كيف سيكون الوضع؟ من سيتولّى أمر الحكم؟ لمن ستكون القلعة البيضاء بمملكة الشمال بعد عمرٍ طويل؟ هذا ما ظلّ يسأله الملك لنفسه طوال خمسة أعوام، راقب فيهم أطفاله.

دومًا ما كان يرى صورة مصغّرة من زوجته الحزينة بابنته، والتي أسماها بآخر ثلاثة حروف من اسم الأم، كما رأى فارقًا كبيرًا بشخصيّة ولديه، ممّا أتى له بفكرة.. فكرة استدعى من أجل العمل بها الحكيم ذا السحر العظيم، ليحضر ويمثل أمامه..

حضر الساحر المعالج الحكيم، وسمع لأمر الملك وبيده، التي قد بدأت تظهر عليها بعض علامات العمر، كشف على قلب الأميرين، فاتضح أن أحدهما قاسي القلب، قوي وجريء، والآخر طيّب، مسالم ذو قلبٍ حنون؛ تمامًا مثل والدته و.. أخته الأميرة.. فابتسم الملك ابتسامة خفيّة، وعزم على أن يعجّل من قرار تدريب ولي العهد، والذي تم اختياره سرًّا..

انعزل الملك عن أطفاله، إلّا عن ولي عهده الصغير المندفع، فكان يترك زوجته ويهجرها هي وطفليه الآخرين؛ الصغيرة وأخاها البريء، فكانا يلهوان بالغابة، مع صديقهما ابن الساحر الحكيم، والذي كان أكبر منهما بعدّة أعوام فقط.

حرص على أن يقضي معظم وقته في تدريب ابنه على الصيد، ومراقبة دروسه للغات والعلوم، التحدّث معه وأيضًا أخذه معه لتنفيذ بعض الأحكام الخاصة.. كتعذيب حارس مذنب، أو إقصاء إحدى العرائس!

شبّ الطفل، سنتان كاملتان، ظهر فيهما لسانه الطليق، أصبح كلامه منمّقًا أكثر من حديث أخيه، لا ترتجف يده بسذاجة الطفولة، بل كان بارعًا بإمساك القوس والسهم، السيوف والخناجر، وأيضًا استخدام السوط للجلد والتعذيب!

سأم الملك من تأنيب الملكة له، تتهمه بعدم المساواة بين وليه، وإهماله لابنته حتى باتت منعزلة، لا تتكلّم إلا معها ومع ذلك الشاب ابن الساحر، فاضطرّ أن يصارحها بنواياه.. والتي قد تطوّرت كثيرًا، من تسليم السلطة لواحد من أبنائه فقط.. بما يقتضي عليه إبقاء روح أحدهما فقط دون الآخر!

أراد الملك أن يتم إقصاء ولده طيّب الأصل والضعيف –من وجهه نظره– من العالم، بانتهاز فرصة سذاجته وصغر سنّة وعدم تعلّقه به..

بكت الملكة كثيرًا يومها، حتى جاء موعد نوم الأطفال، وطلبت منها طفلتها أن تغني لها أغنيتها المفضّلة، والتي كانت سرًّا بينهما، فابتسمت الأم وقبل أن تأخذها للنوم، لاحظت أخاها ينظر لها بحنانٍ ويبتسم.. بينما يمسح دموع عينيها بكفّيه الصغيرتين! فكتمت شهقتها ولوعة بكائها، وقرّرت أن تغنّي لهما ليناما، وضعتهما كلٌّ في فراشه الصغير الملكي، وغنّت بنبرة صوتٍ لم يسمعاها منها من قبل، وقد كانت السبب بثبات كلمات أغنيتها الرقيقة بعقليهما.. وقلبيهما أيضًا..

انتهت الأغنية وانسحبت الأم لغرفتها، وقرّرت أن تقف أمام الملك العنيد وتعانده، ولم تدر أنها بمجرّد خروجها من الغرفة، دخل أحد الحرس ليكمّم فم ولدها الصغير، ليأخذه عنوة لتنفيذ الأمر الملكيّ!

– أرجوك! لا تفعل هذا به! ماذا فعل قلبه المسكين ليحرم من دقّاته؟.

قالتها بعد شجار دام طويلًا، انتهت فيه جالسة أرضًا بوهن بعد أن تلقّت صفعة قويّة على وجهها الشاحب الحزين، ذي العينين الزرقاوين الثائرتين، كالمحيط وقت الأعاصير، ولم يكن للملك إلّا أن يزجرها بالقوّة:

– قراراتي الملكيّة قابلة للتنفيذ فقط لا النقاش!.

صرخت الأميرة بجزع حين سحر عينيها ليريها أين يأخذون ابنها في تلك اللحظة، فقد كان واهنًا فاقدًا للوعي، محمولًا بوحشية وإهمال، يضعونه داخل إحدى الأَشْوِلَة قاتمة اللون قذرة الرائحة، ليرموه بعيدًا!

تخيّلت ما سيحدث ودموعها تنهمر بغزارة ويدها على قلبها الذي بدأ يدق بثقلٍ وضعف.. سيلقونه بالنهر! سيظل يحاول أخذ أنفاسه وطلب النجدة ببراءة طفوليّة لكن ذلك الوزن الذي أرفقوه بالشوال لن يجعله يتنفّس الهواء أبدًا.. سيغرق.. ويغوص حتى قاع النهر.. وستكون آخر أنفاسه هناك بالأسفل.. وحده حيث الظلام والبرودة.. حتى يتوقّف قلبه البريء عن النبض!

هل هذا جزاؤك؟ ما بالهم ينفرون من القلب الطيّب ويبغضونه حتى يتوقّف عن النبض وحيدًا! كيف يفعل والدك هذا بك من أجل أخٍ ليس له نصف حنانك؟

أفاقت من دموعها وحاولت تحريك جسدها المكبّل أرضًا لتنظر لابنتها الصغيرة التي جاءت عند باب الطابق تتساءل بنعاس:

- أين أخذوا أخي؟.

رفعت الملكة رأسها بفزع وهتفت بها:

- اركضي بعيدًا يا ابنتي.. اركضي!.

جاء صوتها مكتومًا وكأنها تصرخ من داخل فقّاعة مائية، وذلك أثر ما فعله بها الملك القاسي، كبّلها أرضًا ومنع صوتها حين أرهقته بنواحها المرير..

- اذهبي لبيت الحكيم.. أخبريه بأنهم سيقتلون الأمير!.

وضعت الفتاة يدها على فمها بصدمة حين قرأت شفاه والدتها وتنبّه قلبها المسكين بالخطر، وفعلت كما أمرتها على الفور حين رأت نظرة الغدر بعين والدها الذي لم تشعر بحنانه يومًا.. خرجت راكضة، بينما تسمع أباها الملك يهدر باسمها، فبدا صوته مخيفًا لقلبها الصغير كصوت الرعد في ليلة سوداء ممطرة، حاولت العبور بين الحرس لكنّهم منعوها بأمر ذي الشأن الوحيد بالقلعة، منعوا حركتها بأيديهم القذرة كما كمّموا صوتها، حتى حضر الملك وفعل هذا بنفسه، بسحره الأسود اللعين، وظلّ يهمس بأذنها بين شهقاتها المكتومة، يحاول أن يعود ذلك الأب الطيّب الذي نسي كيف يؤدّيه منذ فترة:

- اهدأي صغيرتي.. الأمر ليس بهذا السوء! فالأمير غيث سيظلّ أخاكِ للأبد، هو أكثر قدرة على حمايتك!.

هطلت دموعها البريئة وظلّت تهمس وبعينيها رجاء، فبرغم حداثة سنّها لم تكن غافلة عن ما حدث.. فالتلصص على الأبواب عادة لم تستطع أن تتخلّص

منها رغم كونها أميرة، استرجعت ذكرياتها واحدة تلو الأخرى، وربطتها بأحداثٍ مشؤومة تحدث حولها لتدرك الحقيقة.. وليتها لم تفعل هذا قط!

عزّ عليه أن يرى دموعها تلك تنهمر أمامه، كما تهدر مياه الأمطار الصافية، لكن كان عليه أن يتابع ما كان يقول. فبالرغم من تخطّيها هذا الأمر -القديم- ظاهريًّا، فإنها لم تتحدث معه به من قبل.. شعر بضرورة الحديث الآن، سيريحها هذا ويجعلها تتخطّى الأمر فعليًّا.. مسح على يدها بينما بدأ بالنظر بعينيها ليبثّها أفكاره بصوته:

- وقتها كان درس السحر الخاص بي، علّمني والدي كيف أقرأ الأفكار عن بعد.. وراقبني بينما أفعل هذا، ليرى النتيجة.. أنتِ أول من أتى ببالي روز، فأنتِ الأقرب لي منذ صغري، تفاجأت بأفكارك المشوّشة ودقّات قلبك المرتجف، وشعرت بكِ خائفة وضائعة.. أعلم أنكِ كنتِ تخشين المكوث بالقصر إن انشغلت سمو الملكة أو الأمير ليث.. لكن كان هذا وقت الليل، من المفترض أن تكوني نائمة! نهضت مسرعًا للقلعة بعد أن سمع والدي ما تفكرين به وشعر بضرورة التدخّل، ولم يقتصر الأمر على ما أسمعته إياه فقط.. بل على ما رأى هو.. رأى ألمًا وذعرًا.. وسمع دقّات قلوبٍ نقيّة تخفق ببطء، وكأنها تدق دقّاتها الأخيرة! لم أنسَ حين رأيتك مقيّدة ومكبّلة على تلك الألواح الخشبية الدنيئة.. كنتِ مجرّد طفلة بريئة.. زهرة يافعة ملقاة بإهمال؛ عيناكِ لم تكونا بحالتهما الطبيعية، لم تريني فلم تبتسمي، وحين استغللت فرصة تحدّث والدي مع سمو الملك ناديتك.. ولم تسمعيني قط.. كما لم تسمع سمو الملكة أي شيء! وقتها فقط رأيت السوط الأسود بيده، بيده سموّ الملك.. كما رأيت تلك العلامات الدنيئة والخطوط المتقاطعة على ما ظهر من جسدك الهشّ وملابسك بلونك المفضّل الذي لوثّته دماؤك.. ولم أنس أنه كان هناك... سمو الأمير غيث، يراقب، ويتعلّم، كيف يظلم القلوب الرقيقة!.

شهقت إزالين بينما تنظر بعينيه لتستطيع توصيل ما تفكر به دون أن يشعر بهما أحد من العرائس وحرّاسهنّ المنتشرين بالغرفة الكئيبة:

- عَذّبَني أبي.. واستمتع بهذا حقًّا! لم أنسَ قط تصرّفه السادي معي ومع أمي التي توقّف قلبها بمجرّد أن انهالت عليّ بعض ضربات السوط الخبيث، لم تحتمل أمي لكنّني تحمّلت... وما جعلني أعذره هو أنه عرف سرّها.. علم بأنني لست ابنته! لم أسأله كيف عرف، لأنها كانت مفاجأة بالنسبة لي أيضًا.. أردت أن أسأله ماذا يقصد بأنني لست ابنته؟ ظننت أنه مستاء مني لكوني سألته عن ما سيفعلونه بأخي ليث، ولم أكن أدري أنه ينتقم مني ومن والدتي لإخفاء حقيقة نسبي! لكن فكّر معي طِراد.. ماذا لو كانت أمي أخبرته بحقيقتي حين ولدت؟ لم يكن ليختلف مصيري حينها.. بل كان سيفعل بي ما فعله بليث، لأتذوّق مرار التجربة قبله، وكان لقلب أمي أن ينفطر، كما حدث...

لم يحتمل طِراد أن يرى دموعها أكثر من ذلك، مسحها بإبهاميه وضمّها لصدره بحنان لتشهق هي أنفاسها بتقطّع مع اهتزازات جسدها الرقيق، وقال بهدوء محاولًا إخراجها من نوبة حزنها التي كان يشعر بها كل ليلة:

- روز.. أتعلمين.. حين كنتِ تنظرين للقمر وتشكين له، وكنت أنا أسمع ما تشكين به كل ليلة، كم أردت فعل هذا؛ أن أضمّك لتهدأي...

تنهّد وقال متأوهًا لضعفها:

- آسف صغيرتي.. لم تستحقّي الخذلان يومًا!.

دفنت المسكينة وجهها الباكي بصدره وهمهمت من بين بكائها:

- أختار القدر أن تكون بالأربعين من عمرك لتبقى معي بنفس العالم كما اختارني أن أكون بطابق عرائس الأمير الذي لا يجوز لي.. لكن.. قلبك ما زال شابًّا طِراد.. قلبك لم يتغيّر قط؛ ما زلت ذلك الفتى الشجاع الذي طالما أحببت اللعب معه والبقاء قربه وقت حزني.

ابتسم طِراد وأغمض عينيه متنهّدًا وشدّد من ضمّها وهمس بعقلها:

- ولي الشرف يا سموّ الأميرة...

وبينما كنت أنا غارقة بدموعي الصامتة المذهولة، دخلت جليندا بعد أن عبرت منتصف المسافة بهدوء، وأشارت بيدها البيضاء المكتنزة لفتاة الحكايات، وقالت بتهذيب:

- آنستي...

انتشر صوتها الرفيع المزعج كما انتشرت رائحة القرنفل بالطابق، فتأففت وحاولت تركيز أفكاري على تلك القصّة.. إلا أنها استطردت:

- لقد انتهت الماشطة من تحضير مستحضرات التجميل الخاصّة بكِ... لذا لقد حان الوقت...

قاطعتها فتاة الحكايات بهزّة رأس، ونهضت بهدوء وهي تنظر إلينا بدفء تودّعنا، وحين تقابلت عينها بعين إيفي صرخت إيفي باعتراض:

- لا أريدك أن تذهبي لا لا!.

ضحكت الفتاة وقالت مشاكسة:

- لا تريدينني أن أذهب لأنكِ تحبين الجلوس معي أم تريدين فقط سماع بقيّة الحكاية؟.

ابتسمت إيفي بألم وقالت بينما تشير بإصبعيها أمام وجهها:

- الاثنان معًا.. سأفتقدك حقًّا!.

قالتها وقفزت تحتضن تلك الفتاة الطيّبة التي أثارت قصّتها القشعريرة بجسدي وحفّزت خلايا عقلي الذي بدأ بالطنين، فابتسمت بألم ونهضت ببطء أحتضنها أيضًا بتأثّر، وسمعت إيفي تقول بين بكائها:

- سأذهب لأساعدك بينما تستعدّين، حتى أحظى بالمزيد من الوقت معكِ.. لا أشعر بأنني أريد تركك الآن!.

ثم التفتت إليّ قائلة:

- وأنتِ أيضًا إليونورا، لنمكث معها هذا الوقت، ونأخذ الحمّام سويًّا ثم نعود للطابق!.

ارتجفت شفتاي ولم أستطع كيف أردّ.. لن أستطيع الذهاب معهما، فعليّ البحث عن ظافر، أريده أن يعرف بما سمعت!

- لا داعي؛ فقط تعالي أنتِ إيفي، فإليونورا عليها أن تستريح من دخّان الحريق، لقد مكثت بالخارج كثيرًا لا بد أنها استنشقت الكثير منه!.

رفعت رأسي لها بذهول، بعد أن غمزت لي بعينها، هل قصدت أن تعطيني فرصة للبقاء وحدي حقًّا؟

خرجت إيفي من العناق واتّجهت لفراشها بسرعة قائلة:

- سأحضر ملابسي لحظة واحدة!.

ابتسمت جليندا وقالت بصوتها الرفيع بخفوت:

- سأكون بالخارج آنساتي...

وحين خرجت اقتربت الفتاة على أذني وسألتني بغموض:

- هل تعلمين وجه الشبه بين الاسمين: روز، وإزالين؟!.

قطّبت حاجبيّ ودقّ قلبي بسرعة، لماذا يوجد ربط بين الاسمين أصلًا!

- الشعر الأشقر، العينين الزرقاوين بصفاء.. ونَسَب مُتّصل بالملكة جينروز...

اتّسعت عيناي ونظرت لها بدهشة، وتذكّرت قولها بالحكاية:

- أسماها بآخر ثلاثة حروف من اسم الأم...

أمسكت كتفيها بيديّ المرتعشتين بتردّد لتقول هي مبتسمة ابتسامة ذات مغزى، بينما تربّت على يديّ:

- تحرّي الحقيقة إليونورا...

بمجرّد أن قالت هي هذا، بدأت حديثي هامسة بارتباك:

- أي حقيقة؟ أتقصدين الحكاية؟ لكن.. كيف لي أن أعرف ما تبقّى منها؟ وهل هي حقيقيّة؟.

واستطردت بنبرة أكثر همسًا، تشبه الاستجداء:

- هي قصّة الملكة جينروز! أليس كذلك؟.

ابتسمت لي بينما ربّتت على وجنتيّ بهدوء:

- أنت تعرفين من سيكمل لكِ الحكاية...

عبست بتركيز، وردّدت بعقلي اسم ظافر.. أريده الآن بجانبي! أريد أن أسأله ماذا سمعت للتوّ! نهضت بسرعة أبحث عنه بعيني، فقالت هي وكأنها تجيب على تساؤلي:

- هو الآن ببيت الساحر.. زوجي العزيز!.

رفعت عيني لها بغير تصديق، وتساءلت بينما يكاد عقلي ينفجر:

- الساحر كبير الحرس.. يـ.. يكون زوجك؟ لكن كيف! كيف ذلك ونحن بنفس العمر، وهو كهلٌ عجوز!.

ابتسمت وهي تنهض وقبل اقتراب إيفي همست بـ:

- تحرّي الحقيقة!.

هززت رأسي والفضول يكاد يقتلني.. فكل هذه المعلومات تمثّل خطرًا كبيرًا.. كيف قابلت تلك الشخصيّات ولم أتعرّف إليهم أو أشكّ بأمرهم حتى!

خرجت الفتاة برفقة إيفي التي كانت تمسك بملابسها بحرص، ابتسمت إيفي وتمنّت لي أن أحصل على الراحة التي أحتاج.. فهمست أنا بشرود:

- نعم يا صغيرتي.. أحتاج لذلك حقًّا!.

وبمجرّد خروجهما، تحرّكت ببطء لضوء القمر.. أدين له باعتذار، فهذا المغرور كان يوصل رسائل أميرة لحبيبها البعيد.. كان الرسول الذي ينقل أخبارها له، وكان مرساله إليها دومًا وأبدًا.. ابتسمت بألم وناديت بينما أمسح على وجهي الذي قد جفّت دموعه للمرّة الألف اليوم:

- ظافر.. أين أنت؟.



طرقت الباب الداخلي لغرفة الحكيمة، حيث فراش إزالين وسط فُرُش ثلاث عرائس متمرّدات مذنبات وحرّاسهنّ، تحرّكت بهدوء وأزلت الستار غير الشفّاف، لأرى شيئًا أذاب قلبي حقًّا.. تلك الفتاة الشقراء، تبتسم بحزن، بينما تمسك يد مساعد كبير الحرس طِراد بالقرب من وجنتها، ترتاح على يده لتنام، وهو يراقب تعبيرات وجهها بحزن..

تنحنحت فالتفت لي، ابتسم وأشار لي على المقعد القريب، فأغلقت الستار لخصوصيّتهما وجلست.. رأيته يقترب منها، طبع قبلة رقيقة على جبينها وسحب يده بهدوء والتفت لي، وحدّثني ليصبّ كلماته بداخل عقلي صبًّا:

- هل انتهت والدتي من سرد الحكاية الأخيرة؟.

دقّ قلبي بعنف لأثر ما سمعت.. وقبل أن أتساءل ابتسم بينما يجيبني بكلماته الخفيّة:

- أجل.. هي والدتي، اضطر والدي أن يفترق عنها بإرسالها لإحدى الزنازين بعد أن غيّر ملامحها وسنّها، لتكون مناسبة لذوق الأمير.. محا قدرتها على الخدمة لتصعد لطابق الأميرات بسرعة.. وبالرغم من أننا هنا لا نشيخ، فإنه شاخ حزنًا على فراقها...

ضيّقت المسافة بين حاجبيّ وأشرت له بغرابة وتساءلت:

- وأنت؟ أنت لست شابًّا! اعتقدت أنك تكبر الأميرة ببضع سنوات فقط؟!.

ردّ عليّ بشرود:

- من أراد البقاء دفع المقابل، دفعت أنا سنوات عمري فجعلني والدي أكبر سنًّا وكأنني شخصٌ آخر غريب عنه.. لينسى الملك أنني كنت أعرف الأميرة...

تنهّد ثم استطرد:

- وليتأكد من أن وجودي بهذا المنصب هو بسبب كوني أحد الحرّاس المتميّزين بالخبرة فقط ليس إلا...

اعتصرت جبيني بيدي وتساءلت بشك:

- وهل توقّف قلب الملكة والأميرة كما سمعت؟.

هزّ رأسه إيجابًا.. فنظرت لإزالين النائمة.. فابتسم هو وربّت على يدها التي باتت تنقبض وتنبسط بغير راحة، حتى سكنت.. وقال بحنان تجاهها:

- هي أيضًا دفعت الثمن.. تخلّت عن دمائها الملكيّة وعاشت مع العرائس منتظرة ظهور الحقيقة...

ابتسمت لها بألم، فتابع هو الحديث:

- حين ماتت الملكة والأميرة واختفى الأمير ليث، اتهم الملك إحدى العرائس بفعل هذا لحبّها له، اتهمها بدسّ السم لهما فدفعت الثمن هي وحارسها.. أشرف الأمير غيث على تعذيبهما برغم حداثة سنّه.. ولم يعلم أحد غيرهما أن الملكة كانت أولى عرائس البرج العالي المتوقّف قلبهن.. تليها عزيزتي روز أو إزالين كما أسميتها.. سمو الأميرة الرقيقة...

هزّ رأسه بأسي واستطرد:

- مرّت السنوات ومات الملك، بل قتل.. وكان جزاؤه من جنس العمل.. تعذيب بالسوط بعد تكبيله أرضًا بالسحر الأسود، وكان الفاعل هو الأمير.. والسبب غير واضح...

عبس وفكّر معي:

- لا أعتقد أنه كان هناك سبب منطقيّ، غير وصول الأمير للسنّ القانوني للحكم.. أو أن ميوله الدفينة المكتسبة قد بدأت بالتحكّم به.

تساءلت أنا بغير فهم:

- ماذا تقصد بميوله.. الدفينة؟!.

أجابني طِراد بأسف:

- السادية.. يحب التحكّم ورؤية الألم بمن يتحكّم بهم...

وأضاف لتكون هذه القشّة التي قصمت ظهر البعير:

- هو يفعل هذا مع العرائس التي تخفى من طابقكنّ.. يكبّلهن أرضًا أو بألواح خشبيّة بالغرفة السريّة بطابقه، ويفعل هذا بمنتهى الوحشيّة، لا يفعل إلا هذا حتى يتوقّف قلبهنّ.. ولا يسمع أحد صوت صرخاتهن! ولو سمعها أحدهم لأتته الكوابيس كلّ ليلة!.

حين انتهى من كلماته تلك تذكّرت كوابيسي، صرخات آخر أميرة، نهنهتها بالبكاء المرير وتوسّلها لمن يسيطر عليها بأن يتركها، تداخلت تلك الأصوات مع صراخي محاولة تنبيه جلاديس لعدم الذهاب للأمير، خوفي من انتهاك عرض أختي والتي صرخت بمثل ما صرخت به العرائس.. وأيضًا كلمات عروس الحكايات:

- وهل من عادت.. عادت بالفعل؟.

وضعت يدي على رأسي بألم وشعرت بالقسوة تعتصر قلبي بشدّة.. كم هذا قاسٍ! كم هذا العالم أسود مرير!

وضع طِراد يده على كتفيّ وسألني:

- ألم تتحدّثي معه بعد؟.

رفعت رأسي له بغير فهم، فهمس لي مبتسمًا بطيبة:

- ظافر.. أقصد ليث...

وأضاف لتتّسع عيناي:

- سموّ الأمير!.

سقطت دمعة من عيني حين تأكدت من ما حاولت تجاهله.. ووضعت يدي على قلبي وتذكّرت قبلته لي.. ابتسمت بارتعاش ونهضت.. للبحث عنه!



{٢٠}

= ما قبل النهاية =

حاربت هواجسي وانطلقت لطابق العرائس، نويت أن أجلب عباءتي الثقيلة والنزول للغابة، سأبحث عن بيت الساحر والذي سأجد به ظافرًا.. بل سأجد سمو الأمير ليث! قلبي يخفق بقوّة، شيء ما يحثّني على الإسراع لطابق العرائس، أعتقد أن ثمّة أمرًا مهمًا.. أشعر بذلك!

رفعت ردائي وأسرعت أصعد الدرج الصخري والمضاء حائطاه بشعلات خافتة، وحين اقتربت من باب الطابق دفعته وعبرت من خلاله، وبخطواتٍ خفيفة كنت بالجزء الخاص بجلسة العرائس.. ورأيته.. يقف بالقرب من الشرفة، وكأنه يحاور القمر!

التفت بمجرّد اقترابي، فهويت أنا على ركبتيّ، أخفضت رأسي أرضًا بينما لساني يهمس برهبة محبّبة:

- سموّ الأمير ليث...

شعرت بخطواته، فأغمضت عيني وأنا أنتظر مصيري.. فمنذ ساعات فقط كنت أقف أمام الأمير الآخر غيث بمنتهى الرضوخ، أما الآن، وأمامي الأمير ليث، والذي نجا من الموت ليأخذ بالثأر، قلبي متوجّس.. وفي نفس الوقت مطمئن! لأنني أعرف أن من أنحني أمامه هو ظافر.. الذي أثق به بشدّة..

شعرت به ينحني أمامي، كما شعرت بملمس أنامله على ذقني، يرفع وجهي إليه، أعتقد أن هذا المشهد مألوف للغاية.. ابتلعت غصّة بحلقي وابتسمت بارتباك، بينما همس هو بعقلي:

- فقط ظافر.. للآن...

هززت رأسي بخفاء، واستجبت ليده التي أخذت بيدي ليوقفني بالقرب منه.. وقبل أن أنظر له وجدته يتّجه مرّة أخرى للقمر.. فسرت خلفه بهدوء.. وعلى ملامحي ظهر الارتباك جليًّا.. ظننت أنه سيكون بلا قناع ووجهه القماشي حين أراه.. لا أتصوّره يشبه الأمير غيث أبدًا! ربّما بسبب عينيه.. إنهما مختلفتان بشكلٍ غريب..

جلست معه أسفل الشرفة على بعض الوسائد الأرضية، ونظرت لعينيه بتيه، لكن سرعان ما ارتبكت، وأدركت أن من أمامي هو الأمير.. لا يصحّ أن أنظر له هكذا! لكن، قلبي يأبى الانصياع لهذه الفكرة.. فيدق ويدق، كالمجنون.. وعيني تلمع بتحفّز.. وعقلي لا يسأل إلا سؤالًا واحدًا.. «كيف نجوت سموّ الأمير؟»

تنهّد ظافر بهدوء ونظر إليّ قائلًا:

- عشت أكثر من حياة.. أمير صغير.. طفل ضائع، شاب حذر، وحارس.. لكنّني لم أنس طعم الموت يومًا...

ابتلعت غصّة بحلقي لسماع نبرته الشاردة البسيطة، برغم ما يقوله من مرار.. وأردته أن يحكي لي.. وقد كان، بدا صوته مرتاحًا بينما يلقي بالحمل من على صدره، وارتحت أنا لكوني أسمع له، أردت التخفيف عنه ولو بشيءٍ بسيط..

- ليلة غرقي، كانت آخر ليلة ليوم أشرقت به الشمس.. وكأن العالم حزن حُزنًا دفينًا على الظلم الذي قدً حدث.. أنقذني الساحر قبل أن أشهق أنفاسي الأخيرة.. فكّ وثاقي وأخفاني بعباءته حتى منزله، وطِراد؛ ابنه ينير الطريق أمامنا بمصباح يدوي بسيط.. كنت أعاني من الحمّي وقتها،

في الحقيقة عانيت منها لمدّة أيام، وسهر الطبيب وابنه يحضّران لي الأعشاب وقراءة التعاويذ لشفائي، وزوجة الطبيب، تعرفينها، كانت كأنها أنجبت ابنًا ثانيًا لها، عاملتني برفقٍ واعتنت بي حتى صرت بخير.. وفي يوم من الأيام؛ وقف ثلاثتهما أمامي وأخبراني بما حدث.. ثبّت الساحر تلك الذكرى بعقلي كي تكون راسخة للأبد، واختار لي اسمي.. ظافر.. لأكون ظافرًا بحقّي دومًا وأبدًا، وأكّد لي ضرورة الانتقام.. وإنهاء الظلم..

عشت بينهم، كصبيّهم الثاني، أخفاني الساحر عن الأعين لفترة، حتى استطاع إلقاء تعويذة عليّ تجعل كل من يراني مسحورًا، فينخدع بحجمي، شكلي، وهيئتي.. أراهم أنني ولده الثاني، ذو التشوّه الكبير بوجهه، والذي يداوم على ارتداء الأقنعة.. سلب لون عينيّ، ودومًا ما كان يقول لي:

- كلّما اقتربت الحقيقة، ظهر لون عينيك.. فحارب من أجل ذلك، حارب من أجل لون العين الأزرق الصافي والذي يماثل لون عيني الملكة جينروز؛ والدتك...

علّمني السحر كما علّم طِرادًا، حتى أصبح مستواي أقرب لمستواه.. خرجنا معًا لنشرف على إصابات الحرس الجنود وقت الحروب، وساعدنا بعلاج كبير الحرس الأسبق، وفي نفس اليوم، أتى خبر تعيين الساحر ككبير الحرس؛ لحكمته ولمعرفته أصول الكثير من الأشياء..

كان عليه التنقّل من العالم الآخر للحياة، فاصطحبني وطِرادًا معه، لنرى عالمًا جديدًا غير الذي نعيش به.. عالم لا تغيب به الشمس إلا وتشرق باليوم التالي، عالمٌ به الجميع متشبّثون بالحياة، ولا يدرون بوجود حياة أخيرة لهم..

وكان أول شيء جعلنا نراه بهذه الحياة بعد الشمس، لحظة ميلاد روح بريئة بالحياة.. روح أختي روز الشقراء الرقيقة.. باسم إزالين..

أخبرني الساحر بأنه أعاد روحها لتولد وسط أسرة سعيدة مرموقة الشأن، تعويضًا لها عن طفولتها الضائعة، وربّت على كتفي، فأدركت أن لا طفولة لي، وابتسمت أملًا، يكفي أن تسعد هي بلحظاتها بالحياة.. ويكفي تلك النظرة بعيني طِراد، ليجعلني أؤمن بأنها ستكون سعيدة بحياتها الأخرى معه.. كما آمنت دومًا رغم صغر سنّي..

بتنا نتردّد على الحياة بصورة غير منتظمة، حتى رأيت فتاتي.. تلك التي شعرت بقربي منها بمجرّد النظر بعينيها الدافئتين.. ومن يومها طلبت من الساحر أن يجعلني أزور الحياة وأزور حياتها يوميًّا.. علّمني كيف أتنقلّ بين العالمين لكن بحذر، كي لا تجفّ دمائي الملكيّة...

ابتسمت بغيرة.. بينما قلبي يدقّ بعنف.. لم ينس أن يخبرني عنها هذه المرّة أيضًا.. كم هي محظوظة به!

استمعت له يستطرد بشرود:

- كانت هي الوحيدة التي تجعل الانتظار هيّنًا.. فمتابعة يومها بعينيّ -عديمتي اللون- لطالما أشعرتني بالدفء.. لم أشعر بوجودها أني ملفوظ من عالمي، بل شعرت بأنني إنسان مرحّب به بكلا العالمين.. تابعتها تكبر أمامي، يومًا بعد يوم، حتى أصبحت شابّة جميلة، يكاد قلبي يتمزّق حين يطيل أحد النظر إليها، شعرت بأنها ملكي، تخصّني وحدي.. كما كانت هي؛ تشعر بأنها لشخصٍ ما دون غيره، تنتظره بإخلاص ولا تعلم من هو.. لكنّها تشعر به.. بقلبها وبروحها النقيّة.. حتى فقدت حياتها للمرة الأولى.. والثانية.. تعرفين باقي القصّة..

هززت رأسي بألم، والدموع متحجّرة بعيني.. لأسمعه يتابع بينما ينظر للقمر:

- بمجرّد أن فقدتها، عملت على أن أستردّها، كما عملت على أن أكون قويًّا للانتقام.. تدرّبت أكثر، تعلّمت أكثر وقرأت العديد من الكتب، دخلت

القلعة أكثر من مرّة مع الساحر ومن دونه، حفظت مداخلها وأبوابها السريّة التي لا يعلمها أحد، حتى البرج العالي.. وصلت له، وبتّ أتردد عليه لأرى من افتقدتها، أهمس لها بأن تراقب مرور الزمن واقتراب ظهور الحقيقة، وأمسح دموعها كما فعلت قبل أن أفقدها.. وتفقدني.. كنت أقوى الحرّاس، أتجنّب باقي الحرس، وأظفر بثقة مدرّبي، أحصل على ترقيات حتى قدت جيشًا خارج المملكة، بينما كان أخي مخمورًا وبجانبه أكثر من فتاة.. يسهر ليلته بغير حساب...

توقّف عن الحديث للحظة.. فلاحظت أنه يغمض عينيه بقوّة، وحين فتحهما سألته بترقّب:

- وماذا عن حبيبتك؟ ألم تظهر بعد؟ أم أنك سئمت الانتظار فاخترت حراستي؟.

ضحك بسخرية، فاعتذرت منه لكوني غير رسمية معه بالحديث.. ودقّ قلبي وعقلي يبث بداخلي فكرة واحدة غريبة، لكنّها محببة إليّ.. وهي أنني من كان ينتظرها ظافر.. أنني حبيبته! أشحت بنظري بعيدًا كي لا يستطيع قراءة أفكاري، وهمست بداخلي بـ:

- لم اخترتني؟ لم؟.

أجاب على سؤالي غير الرسمي مبتسمًا:

- كنتِ أكثر من مناسبة كاختيار.. أنتِ مضحية؛ قُتلت في سبيل إنقاذ عرض شقيقتك من الانتهاك.. ولم تكوني ساخطة قط لهذا...

ابتلعت غصّة بحلقي بينما همست له:

- إذًا هذا هو السبب؟ كوني مضحية؟.

هزّ رأسه ببطء، فابتسمت بمرار.. ونفيت فكرتي، وقلت محدثة نفسي بوضوح:

– لستِ أكثر من أداة إليونورا.. لم تكوني يومًا حبيبته.. ولن تكوني!.

تنحنحت قائلة، بينما أخفي مشاعري الحقيقيّة بينما أتذكر قبلته:

– مساعدة سموّك شرف كبير لي، كان عليك فقط أمري بهذا.. دون التحكّم بمشاعري...

قلتها إشارة إلى أفكاره التي كان يبثّها بداخلي، كوني أميرة على اعتبار ما سيكون، كون قلبي للأمير، وأخيرًا.. قبلته..

ضحك بهدوء وربّت على شعري قائلًا:

– تؤكّدين صحّة اختياري في كلّ مرّة إليونورا!.

ابتسمت لمجاملته.. وشردت.. في كون قلبي وحيدًا، إلا من وهم حبّ الأمير.. أو حب حارسي.. فحارسي، أو الأمير، مغرم بفتاة واحدة لا يقبل بغيرها، ينتظرها بصبر ليبثّها مشاعره.. إذًا.. أنا وحدي الآن.. ولا أعتقد أنني سوف أقع بالحب مرّة أخرى..

– لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلا لنفسي...

تذكّرت صوت إزالين بغناء تلك الكلمات من أغنيتها المتوارثة والخاصة، ثم تذكّرت وجه الأمير الوسيم، والذي لم أرَ مثله قط.. احمرّ وجهي خجلًا.. واقتربت قليلًا من ظافر هامسة:

– ربّما أعرف من تكون.. لكن.. فضولي يقتلني...

لمست قناع وجهه بيدي، فرأيت عينيه تبتسمان، وجاء صوته الهادئ لي ليشعل رغبتي أكثر:

– فضولي يقتلني أيضًا...

وفي نفس اللحظة سمعت صوت فتح الباب، فتجمّدت مكاني، حتى اقتربت من دخلت للتوّ، لتراني بالقرب من ظافر، أميل إليه بينما أقف على ركبتيّ مستندة على يدٍ واحدة والأخرى كانت ممدودة لوجهه للتوّ.. فتنحنحت بإحراجٍ وعدت للخلف وضممت كلتا يديّ بعضهما إلى بعضٍ توتّرًا.. فابتسمت هي بغرابةٍ، وسرعان ما أتت سيدة لتقف بالقرب منها، وقالت بصوتٍ وقور:

- لقد أخبرتني المشرفة بأنكِ هنا آنسة إليونورا...

رفعت رأسي إليها بغرابة، وهمست بـ:

- ميلدا؟.

ابتسمت السيّدة ورفعت قبّعتها البيضاء التي تخص الطهاة لي كتحيّة، وقالت:

- أسرّني أنك تتذكّريني...

باعدت بين شفتيّ بغرابة حين أدركت الفتاة التي تقف بجانب كبيرة الطهاة الآن، رأيتها بالمطبخ وتسبّبت بخلع ردائها يومًا وإلقاء اللوم عليها..

- فتاة الجزر؟.

قلتها بغرابة بينما وقفت على قدميّ أمامها ببطء، فابتسمت هي بارتباك قائلة:

- في الحقيقة كنت معروفة بفتاة البازلاء.. لكن لم يعد أحدًا يدعوني بهذا الآن!.

حقًّا؟ هل تسبّبت فعلتي القديمة بإبقاء هذا اللقب بها!

- هذه الفتاة ممتازة، قد تسلبني مكانتي يومًا بسبب مجهودها وطموحها!.

قالتها ميلدا مشيرة إلى تلك الفتاة بفخر، ووقتها فقط لاحظت أنها ترتدي قبّعة مماثلة لقبّعة ميلدا البيضاء.. إذًا هي مساعدة كبيرة الطهاة!

همست الفتاة لي بأدب:

- جئت لأسألك آنستي.. ماذا تحبين لطعام الغداء؟.

ضيّقت المسافة بين حاجبي بغرابة وهمست بـ:

- منذ متى ويأتي أحد ليسأل هذا السؤال؟.

ارتبكت الفتاة قائلة:

- ربّما لأنه عيد مولد الأمير؟.

وأضافت لدهشتي:

- لقد سألنا الآنسة إيفي وأخبرتني بما تريد، بالإضافة لمضاعفة الكميّة التي ستأكلها.

همست أنا بشرود:

- أخيرًا ستستجبن لطلبها!.

وبينما قلت هذا لاحظت أن ظافرًا يعطي شيئًا ما لميلدا، وحين التفت بجسدي وجدتها تنحني له بطاعة، وكأنها تعلم بهويّته! فقلت بغرابة:

- ما الذي يحدث؟.

جذبت الفتاة يدي وأعطتني قلمًا ونوتة صغيرة وقالت:

- هل لكِ أن تختاري من قائمة الحلوى؟ لقد تم صنع الكثير منها اليوم!.

لاحظت أنها تربك تركيزي لتشغلني عن ما رأيت، فوضعت أنا خطًّا تحت أحد الأصناف العشوائية بينما عيني ما زالت مثبّتة على ميلدا التي تصنّعت عدم حدوث أي شيء.. وحين انتهت ابتسمت الفتاة وقالت لميلدا:

- أعتقد أنه الوقت للبدء بتجهيز الغداء...

التفتت ميلدا إليها وأخذت النوتة من يدها ورحلتا على الفور، فالتفت أنا لظافر بغرابة، فسألني:

- تريدين معرفة ما الذي أعطيته لها أليس كذلك؟.

اقتربت أنا منه وجلست فأجابني وهو يرى الفضول بعيني:

- سُم.. بطيء المفعول، يشل حركات السِحر ويبطل المقاومة...

وضعت يدي على فمي فقال هو ليطمئنني:

- لا تقلقي.. سأكون مطمئنًا عليكِ أكثر هكذا...

لم أفهم ما قال، ففسّر لي:

- ستضعه ميلدا لغيث بطعامه، لن يسبب الأذى وقتها...

وضعت يدي على قلبي براحة.. وهمست بـ:

- هل ستكون زوجة الساحر بخير؟ وإيفي؟.

تمهّلت قليلًا حين همست مستطردة:

- وأنا؟.

هزّ رأسه بتأكيد فتنهّدت.. ثم لمحت بعيني من النافذة شيئًا ما.. أراه بوضوح؛ البرج العالي!

وتذكّرت الكابوس القريب، فانتفض جسدي وطلبت من ظافر بعد أن ناديت اسمه همسًا:

- أيمكنني الذهاب للبرج العالي؟.

نهض من جلسته ونهضت أنا أيضًا، وفي لمح البصر كان قد لوّح بعباءته ليخفيني بها، لأفتح عيني، وأجدني بمكانٍ آخر..

تحرّكت لأقرب نافذة لأنظر منها، وشهقت لما رأيت! أنا بأعلى نقطة بالقلعة! أكاد ألمس القمر بيديّ، وبالأسفل أرى كل شيء صغيرًا للغاية، كما رأيت ترس طابقٍ عظيم.. أعتقد أنه يخصّ الأمير!

- يمكنهم سماعك والإحساس بك...

التفت لظافر، لأرى أن خلفي مجموعة كبيرة من العرائس، يقفن بثبات، يرتدين الأبيض، الجميلات بالصفوف الأمامية والدميمات بالخلف.. وجوههن ثابتة، عيونهن شاردة، مبتسمات، تختلف ابتساماتهنّ.. بينهن من تبتسم بارتباك، وبينهن من تبتسم بصفاء وراحة.. أعتقد بأن تلك الابتسامات هي التي تميّزهن عن بعضهنّ البعض..

ارتجف قلبي واقتربت من إحداهنّ.. حين شعرت بأنها مألوفة.. وبالفعل، كانت هي، التي ظهرت لي أثناء نومي.. جلاديس!

همست باسمها، وقبل أن أراقب تعبيرات وجهها، وجدت أخرى، تلك التي أرّقتني صوت صراخها طويلًا، ورأيتها تطلب الرحمة من شخص ما.. فهمت الآن..

- آسفة لكوني لم أفهم ما أردتِ.. لم يكن بيدي منع أي شيء...

نزلت دمعة من عيني وهمست بأسماء فتيات كثيرات أعرفهنّ.. وفجأة تذكّرت صوتي بالكابوس.. حين كنت أسأل:

- يا عرائس البرج العالي.. أيمكنني الزيارة يومًا؟.

وصوت إجاباتهنّ، وبأصوات تبدو مألوفة:

- تستطيعين هذا دومًا!.

خيّل لي أنني أرى شفاههن تتحرّك بما قلنه، بينما ينظرن بعيونهن الشاردة بعيني.. فعدت بضع خطوات للخلف بخوف.. لأصطدم بظافر، والذي أمسك بيدي مربّتًا عليها، وهمس بـ:

- تعالي معي...

هززت رأسي بتوجّس، وسرت خلفه بينما لم أترك يده للحظة، عبرنا من ستارٍ أسود، لنصبح بغرفة صغيرة، بها عروس واحدة فقط.. ترتدي أكثر الفساتين البيضاء جمالًا وصفاء، وجهها مغطّى بغطاءٍ من الدانتيل الأبيض، رأيته بوضوح بعد أن أضاء ظافر المكان بتميمته الغريبة..

راقبته يرفع الغطاء من على رأسها بحذر، فابتلعت غصّة في حلقي بترقّب.. حينها دقّ قلبي بحنان وتأثّر، سالت دموعي الساخنة على وجنتيّ الناعمتين، تنزلق بسهولة لتحل محلها دموع أكثر حرارة.. كم هي جميلة من أراها الآن!

حرّكت بصري بين شعرها المرفوع لأعلى، مالئة بصري بلونه الأشقر الدافئ، اللامع كلون أشعة الشمس اللامعة حين تشرق بحياء.. عيناها الزرقاوان كلون السماء الصافية، بأهدابٍ كثيفة تزيدها جمالًا.. وجهها الصافي أبيض اللون إلا من حمرة وجنتيها وشفتيها الرقيقتين.. لا إراديًّا وجدت نفسي أجلس على ركبتيّ، وأنحني برأسي.. فمن أمامي هي الملكة جينروز، التي أخفتها معظم كتب التاريخ عن الجميع!

همس ظافر بدفء:

- كيف حال جلالتك؟ هذه إليونورا.. التي حكيت لكِ عنها من قبل...

رفعت رأسي بحذر، مسحت دموع عينيّ لأرى عينيه تلمعان بحنين، فأخفضت رأسي ببطء وهمست بـ:

- سعدت بلقائك سيّدتي.. كم أنتِ جميلة!.

شعرت بظافر يتنهّد بحرارة ثم يقول:

- اقتربنا من الوصول أمي.. سيصبح كل شيء على ما يرام، فلا تقلقي!.

هززت رأسي بتأكيد، وقلت بأدب:

- أنا أثق بسموّ الأمير ليث.. كما وثقت بحارسي ظافر...

مسحت دموعي وابتسمت بدفء.. كم يشعرني الوجود بقربها بالراحة! بالتأكيد كانت من أطهر الأرواح بهذا العالم.. وكم تشبهها إزالين!

- تقول أنكِ جميلة.. وأنها تثق بكِ.. كم أرادت رؤيتك!.

ابتسمت بينما أرفع وجهي أنظر له بتيه.. هل فعلًا قال آخر جملة عني؟ أم أنني أتوهّم، كما توهّمت أن الملكة الجميلة تتسع ابتسامتها؟

شعرت بقلبي يخفق بعنف.. فانسحبت للخارج قبل أن أفقد وعيي، أعصابي لم تعد تحتمل، وعيني لا تكف عن ذرف الدموع.. وتركته بالداخل.. ينظر بعينيها طويلًا.. بطول الحوار الخفي بينهما..

مرّ الوقت، حاولت قدر الإمكان أن أكون طبيعيّة بتعاملي مع ظافر أمام إيفي وكاليب، كما حاولت أن تكون معاملتي لها طبيعيّة.. أشعرّ بأنني أفتقدها من الآن.. أخشى عليها من هذا الأمير السادي، كما أخشى من المستقبل القريب..

قبل أن ننام ليلًا ، دخلت جليندا ببطء وبينما هي تمسك بفقرات ظهرها المتألمة من صعود الدرج أكثر من مرّة هذا اليوم قالت بأدب:

- الأمير يودّ العروس التي أعجب برقصها بالحفل...

هوى قلبي بقدمي ونظرت لظافر، وإيفي.. ماذا يعني هذا؟ كم فتاة أعجب برقصتها؟ تذكّرت انبهاره برقصتي، فابتلعت الغصّة المسنّنة -التي تكوّنت بحلقي- بصعوبة وهمست لجليندا:

- أي رقصة تقصدين؟.

ابتسمت جليندا وأشارت لإيفي قائلة:

- يريد العروس إيفي.. هو يعلم اسمك آنستي، وقال لي أنه سيكون متفرّغًا لكِ بالغد، منذ بداية اليوم!.

هل من المفترض أن أطمئن بعد أن قالت هذا؟

هويت على إيفي أحتضنها وأدفن رأسي بعنقها الصغيرة بينما أشهق أنفاسي بتأثر.. سنفترق.. ستتركني تلك الصغيرة وتذهب لذلك المتوحّش.. والذي لا يكتفي أبدًا من إيذاء العرائس!

- لقد قلت لكِ إليونورا! إنه يعلم بأنكِ الأجمل، لذا ادّخرك للنهاية!.

- لا تقولي نهاية!.

قلتها بشفتين مرتعشتين بينما توقّفت عن احتضانها ونظرت بعينيها البنيّتين، فضحك كاليب قائلًا:

- لا أحب لحظات الوداع تلك!.

تنحنحت جليندا فنهضت إيفي على الفور قائلة:

- حسنًا أنا قادمة!.

قبّلتني على وجنتي وقالت بمرح:

- بالتأكيد عروس الحكايات تنتظرني!.

ضحكت بسذاجة ثم صحّحت ما قالت:

- أقصد أميرة الحكايات! سأذهب للأمير وأراها، وسننتظرك إليونورا كوني بأفضل حال!.

هززت رأسي وقد بدأت أشعر بالدوار، فاقترب ظافر وهمس بعقلي:

- سنكون بخير لا تقلقي.

نهض كاليب ليحتضن إيفي ببراءة وتركها تذهب بعد أن احتضنتني، ثم صافح ظافرًا وقال أنه سيكون بمقرّ الساحر حتى يعطي له مهمّة أخرى.. وقبل أن يقترب مني ليصافحني تراجعت للخلف بتيه.. وتمدّدت أرضًا، فنظر لي بغرابة قائلًا:

- أتشعرين بالدوار؟.

هززت رأسي بشرود، فقال كاليب بقلق:

- حسنًا سأستدعي الحكيمة بينما أنا بطريقي للأسفل!.

رفعني ظافر لأجلس وأعطاني القليل من الماء، فشربت ثم همست لكاليب:

- لا تهتم بذلك.. سأذهب أنا للحكيمة...

التفت لظافر قائلة:

- لن أحتمل أن أجلس بهذا الطابق الكبير وحدي.

هزّ ظافر رأسه وساعدني على النهوض، وخرج ثلاثتنا من الطابق..



جلست بجانب فِراش إزالين، أنظر إليها باحترام وأتحدّث معها برسمية، بينما هي تبتسم لي وتجيبني براحة؛ تعاملني وكأنها إزالين، لا روز الأميرة!

كم كان الأمر مريحًا بأن خرجت الثلاث مذنبات مع حرّاسهن لغرفة الحكيمة العامة، ليتركا لنا مساحة الحديث.. لم يصبحن عرائس بعد الآن، لأصبح أنا العروس الأخيرة المتاحة للأمير...

تمنّى طّراد لنا الحظّ، وأخبر ظافرًا بأن الجميع الآن بات يعلم بالسرّ، لقد أخبرهم الساحر بطريقته، وجميعهم منتظرون إظهار الحقيقة.. شعرت بالمسؤولية وزاد الطنين بعقلي..

عدت للطابق، للنوم، لأجد أن الخادمات قد انتشرن يزلن كل شيء من الطابق، الستائر، الوسائد الأرضيّة، وأيضًا أدوات العرائس والصناديق الخاصة بالملابس، فصحت فيهن:

- ماذا يحدث؟ لماذا تزلن كل شيء!.

انحنت لي واحدة منهنّ قائلة:

- هذه أوامر.. أمرنا الأمير بإغلاق الطابق.. ظنًّا منه أنكِ ستبيتين مع صديقتك بغرفة الحكيمة...

- أنا؟.

قلتها بغرابة وغيظ، وهمست بـ:

- لا أصدّق! كيف أطرد من مكان نومي بهذه السهولة.. تبقّت لي ليلة أباتها قبل أن أذهب إليه، لم يعاملني هكذا!.

عضضت شفتيّ قهرًا، وسمعت إحدى الخادمات تهمس بـ:

- هل حقًّا هي آخر العرائس؟.

لترد أخرى:

- لم تستيقظ أي واحدة بعد.. إذًا هي الأخيرة!.

وضع ظافر يده على كتفي وقال بعقلي بشرودٍ غاضب:

- أسلوبه واحد في كل الحالات.. المفاجأة.. يفاجئ الفتيات بمنتصف طعامهنّ، وقت التدريب، أو بمنتصف الليل.. لا يريدك أن تكوني مرتاحة قبل اللقاء أبدًا...

وأضاف:

- سيسهل عليه استعبادك وأنتِ ضعيفة وخائفة...

ارتجف بدني وهمست بـ:

- وماذا سأفعل؟.

ربّت على كتفي وطمأنني:

- ستنامين بغرفة الحكيمة، لكن تحت تأثير تعويذتي.. سأحرص على أن تكوني مرتاحة بآخر ليلة، حتى يكون اللقاء قويًّا...

هززت رأسي بتوجّس.. وتحرّكنا لطابق الحكيمة مرّة أخرى..

وضعت رأسي على الوسادة المريحة، وقبل أن يغمض ظافر عيني ليلقي عليّ تعويذته، أمسكت يده ورجوته أن ينتظر.. أردت أن أصغي لتلك الأغنية التي تغنيها إزالين.. «استثنيني..»

كانت هذه إذًا أغنية الملكة الأخيرة لهما.. تستثني نفسها من القواعد.. ترى نفسها وحيدة.. غريبة.. وتطلب من رفيقها أن لا ينتظر لقلبها أن يستجيب، فقلبها سيظلّ ملكها، وملك من اختارته هي.. ستدع الماضي الذي ضعفت فيه ورضخت له، وتستثني نفسها من المستقبل، التي هي من أحداثه بريئة!

~~~~~

«استثنيني.. من قواعد العالم..

استثنيني من مظاهر الكون..

أنا لست مثلك، ولا مثلهم سأكون..

أنا شخصٌ غريب.. شخصٌ وحيد..

لنداء الحب.. لا أستجيب..

أنا شخصٌ فريد.. فلا تنتظر مني في يومٍ.. أن أستجيب..

لن تذوب عشقًا يا قلبي.. لن تكون إلّا لنفسي..

لن يأسرني الحب يومًا.. لن أكون إلا لنفسي..
~~~~~

فاستثنيني من ماضٍ كنت فيه أنا ضعيف..

واستثنيني من مستقبل أنا من أحداثه بريء..

استثنيني.. استثنيني.. دومًا وأبدًا استثنيني..»

~~~~~

كم كان صوت إزالين عذبًا.. ولدهشتي، انضمّ ظافر معها بالغناء بصوت عذبٍ أجشّ.. يردّدان الكلمات مرة بعد مرّة.. تغير صوت إزالين مختنقًا بالبكاءٍ، لكنّها تابعت، وتابع ظافر الغناء.. وهمست أنا ب:

- تمتلك صوتًا عذبًا سموّ الأمير...

وأغمضت عيني، مبتسمة بألم.. أتخيّل الملكة تبكي بينما تغنّي آخر كلماتها والتي ثبتت بعقل صغيريها.. حتى الآن..



- اتركني! دعني أرجوك!.

استيقظت ليلًا بفزع على صوت تلك الصرخة، التي أطلقتها إيفي باستجداء.. لأجد أنني ما زلت بغرفة الحكيمة.. صوت إيفي كان بكابوس.. كم بدا صوتها حقيقيًّا!

بحثت عن سمو الأمير بعيني.. وناديت بضعف:

- ظافر...

استعدت وجه إيفي المذعور، فانتشر الذعر على وجهي ونهضت من فراشي لأجد أمامي فراش إزالين، تنام بينما تحتضن يد طِراد الذي يبتسم بشرود بينما ينظر إليها.. تنهّدت وناديت مرّة أخرى، فظهر ظافر وجلس على المقعد بجانب فراشي وقال ليهدئني:
~~~~~

- أي كابوس ترينه الليلة ليس حقيقيًّا... بل مجرّد وهم وهواجس لا أكثر...

شهقت شهقاتٍ متقطّعة هادئة بينما أتنفّس بهدوء.. وأغمضت عيني مستسلمة لكلماته الغريبة التي سحرتني..

استيقظت باليوم التالي بذعر، كم رأيت من كوابيس.. كم شعرت بملمس السوط الملكي الذي تخيّلته على جسدي وارتعدت.. بحثت حولي عن أي أحد، فوجدت أنني أنام بطابق العرائس! تعجبّت ونهضت، لأجد ظافرًا يجلس بالقرب من شرفة القمر، فاقتربت منه وهمست:

- ظافر.. أنا مرتابة.. هل يمكنه تأجيل دخولي طابقه؟.

هزّ ظافر رأسه نفيًا وقال بأسف:

- لن يتركك...

شهقت دموعي وتساءلت:

- الأمير لا يقبل بعروس مذنبة أليس كذلك؟.

أومأ ظافر يهزّ رأسه بغرابة، فانطلقت ألقي نفسي بين أحضانه.. ألمس جسدي بجسده، بينما خلعت عنه قناعه واقتنصت شفتيه بينما أهمس:

- لن يقبل بي.. بينما أحبّك أنت ظافر...

أمسكني ظافر من خصري بكلتا يديه وتجاوب مع قبلاتي الحارّة، وهمس بي:

- حبيبتي...

تأوهت وأغمضت عينيّ.. لم أظنّه سينطقها قط!



{٢١}

= نهاية مذكّراتي =

- حبيبتي.. استيقظي!.

أتت كلمة حبيبتي مقترنة بالكلمة الأخرى.. ليست بصوت ظافر.. بل بصوت جليندا!

فتحت عيني بصدمة وألقيت بجسدي للأمام بذعر، لأرى أنني ما زلت على فراش المرضى بغرفة الحكيمة، وبجانبي جليندا، تطلب مني أن أستيقظ!

تنهّدت ومسحت على وجهي.. إذًا ما رأيته كان حلمًا.. للأسف!

كم بدا كل شيء حقيقيًّا.. شعرت بأنفاسه تلفح وجهي بحرارة.. حرارة المشاعر بيننا! كما شعرت بحرارة تلك القلادة الغريبة التي يرتديها، تكوي عنقي وصدره بدموعها الحارقة.. ربّما لأنه يخون حبيبته معي؟ لا.. لقد قال أنني حبيبته!

ربّما رأيت هذا الحلم بسبب تفكيري المستمر بالأمر.. تفكيري بكوني هي!

نظرت على يميني فوجدت طِرادًا يساعد إزالين على تناول الإفطار، وترفض هي بشدّة.. لأسمعه يهمس لها بداخل عقلها:

- هيّا تناوليه كما كنتِ تتناولين الطعام من يدي في طفولتك.. أتذكرين؟.

رأيت وجهها تظهر حمرته المحبّبة على وجنتيها وأنفها الرقيق بينما تنظر له بخجل، فيبادلها هو ابتسامة واثقة مطمئنة، لتتناول من يده الطعام! وكأنهما في عالمهما الخاص، لا يشعران بي، ولا بجليندا الواقفة بالقرب من فراشي!

نهضت ببطء، وبمنتهى التوجُّس بحثت عن ظافر.. شيء ما بداخلي يخبرني بأنه رأى حلمي فذهب بعيدًا، كما أن هناك شيئًا آملًا بداخلي بخبرني بأنه لا يراني إلا العروس التي ستساعده على الأخذ بالثأر وإعادة المُلك له!

همست بغير وعي متسائلة:

- أين ظافر؟.

ضحكت جليندا وقالت بينما تجذبني من يدي بحذر:

- لا يصح أن تتساءلي عن حارسك في يوم مثل هذا أيتها الأميرة! أنتِ من اختارها الأمير لتشاركه وقته الثمين.. لذا فقط اهتمّي بأمرك!.

ارتبكت وناديته بعقلي:

- أين أنت؟ ألن أراك مجددًا؟.

انقبض قلبي حين تخيّلت أنني لن أراه إلّا بالثوب الملكي، والتاج المرصّع..

نظّفت جسدي بالنهر الجاري وساعدتني الماشطة على التزيّن كما رفعت شعري بطريقة مغرية تبرز نعومته كخيوط الحرير الأسود، أتت معلّمة الحياكة بأكثر من تصميم للملابس لي، بينما تهمس بتشجيع:

- فتاتي الموهوبة ابتهجي! ستكونين الأميرة عزيزتي!.

ابتسمت بوهن، بينما الماشطة تضيف بعضًا من اللون الأحمر إلى وجنتيّ.. همست بداخلي بينما أشاهد انعكاسي بالمرآة:

- كم مضى من الوقت.. على رؤية انعكاسي الدميم؟ كم مضى على معاملتهم لي كخرقة بالية؟.

تنهّدت واستطردت بطعمٍ صدئ بحلقي:

- كم مضى على اكتشافي تلك الكذبة؟ كوني جميلة.. يتم تجهيزها لتكون عروس الأمير، لا بل أميرة تشاركه وقته! قلبها ينبض له، بحبه، بعشقه! بينما لم ترَ إلّا ظلّه!.

ضحكت بسخرية من نفسي وأضفت:

- أما الآن وقد علمت من يكون، بمرضه وميوله الشاذّة، كما علمت أن حارسي بدماء ملكيّة.. اكتشفت كوني قد خدعت.. نعم خدعت! قلبي لا ينتمي لأيٍ من الأميرين، ليث، أو غيث.. الطيّب أم المريض.. بل ينتمي لحارس اسمه ظافر.. لكن، بما أنه قد تحوّل -بينما أسبل أهدابي مرّة- لأميرٍ وسيم طيّب القلب، سأهبه قلبي الدامي، سأضحّي بما تبقى من نبض قلبي وقطرات دمائي ودموع عيني من أجله.. كما أراد مني دومًا، لا أكثر، ولا أقل!.

سقطت عبرة ثقيلة ساخنة من عيني فالتقطتها الماشطة بمنديلٍ قماشيّ أنيق قبل أن تفسد زينة وجهي الرقيقة، ربّما كانت تتابع لمعانها بعيني منذ مدّة! وبالرغم من ذلك تجاهلتها قائلة وبلهجة مازحة:

- لا تنسينا يا سموّ الأميرة!.

هززت رأسي بشرود، لا أعتقد أنني سمعت أصلًا ما قالته، أو فهمت ما تريد مني أن أفهمه.. فقط همست بداخلي، أوثّق العهد غير المكتوب بيني وبين حارسي.. والإنسان الوحيد الذي دقّ له قلبي:

- ظافر.. أو ليث.. أيًا كان اسمك.. أميرًا كنت أم حارسًا.. ما أقدم عليه الآن هو بسبب حبّي لك.. وإن توقّف قلبي لهذا، سأكون أكثر من سعيدة لكون قلبك سينعم ببعض دقّات الرضا والراحة.. حتى إن كانت دقّات قلبك الثمينة تنتمي لغيري منذ البداية!.

تنهّدت تزامنًا مع انتهاء الماشطة من زينتي، ونظرت للفساتين في يد الخادمات، ولفت نظري فستان واسع باللون الأبيض.. اخترته فورًا.. حينما ذكّرني بما كانت

ترتديه عرائس البرج العالي.. والملكة جينروز الجميلة.. كم كانت صافية به ونقيّة كما كانت بحياتها.. اخترت أن أرتدي هذا الفستان لتكون روحي نقيّة، حتى يأخذوني للبرج العالي دون الحاجة للانتظار.. في حالة لم يحتمل قلبي العناء.. وتوقّف..

خرجت من غرفة الماشطة بهدوء ظاهري، مبتسمة تحيّة لمن ينادونني ويتمنّون لي التوفيق، خادمات ساعدنني من قبل، خادمات الماشطة، مساعدات كبيرة الطهاة، الفتيات بالمطبخ.. الحكيمة ومساعداتها.. حتى إنني رأيت طِرادًا يقف خارج غرفة الماشطة، إزالين مستندة لجذعه القوي بيديها وتلوّح لي مبتسمة، وهزّ هو رأسه لي بتأكيد.. كم بدوا واثقين من كوني سأصبح الأميرة! وكم بدوت واثقة بأن هذا سيكون آخر يوم لي بهذا العالم!

من الواضح أن الساحر لم يخبرهم بأي شيء! كيف ينظرون لي بهذا الفخر، وبعيونهم اللامعة بكوني سأصبح أميرة غيث؟ كيف ذلك!

رفعت رأسي لأصعد لطابق الأمير، بينما أتمنّى أن ألتقي بظافر أمام باب طابق الأمير.. فابتسمت عيناي وقلت بتلقائية، أجرّب صوتي حينما أراه:

- كنت متأكّدة من كوني سأراك فور وصولي!.

تخيّلت أنه يمدّ يده إليّ بساعته الرملية الغريبة قائلًا:

- تلك الساعة، غالية جدًّا على قلبي...

تابعت التخيّل، لأراه يصمت للحظة ثم يستطرد:

- لطالما قضيت أمامها وقتي، أنتظر وأنتظر.. لكن بوجودك الآن جاهزة لمقابلة الأمير، ليس عليّ الانتظار أبدًا...

أعطاها لي، فتخيّلت أنني أخذتها بتردد وألمس أصابع يده الدافئة بيدي، بينما أقول وقلبي ينزف ألمًا:

- يبقى عليك انتظار حبيبتك.. لتشاركك حياتك الجديدة!.

شعرت بأنني أرى ابتسامة عينيه، فابتسمت لسعادته وكبت دموعي.. وتحرّكت نحو الطابق، الذي لم يكن على بابه إلّا حارسين.. ولم يكن ظافر واحدًا منهما!

انسحب الحارسان، ولم ينسيا أن ينحنيا لي بأدب.. فبقيت وحيدة أمام هذا الباب المهيب.. داكن اللون، تنبعث منه رائحة غريبة، زكيّة لكن تزال غريبة، ترسل لقلبي دقّات غير مطمئنّة، وانقباضات ملتاعة بمعدتي..

طرقت أنا الباب، وكان مفتوحًا.. تردّدت بالدخول، إلا أن فضولي جعلني أدفع الباب وأخطو أولى خطواتي للداخل.. لأجد نفسي بممرٍ مظلم، لا أعلم إن كان عريضًا أم لا، تفاصيله كلّها قد ابتلعها السواد بمهارة، لكنّني اكتفيت بأن سرت بخطواتٍ هادئة مستقيمة، بينما أمد ذراعيّ أمامي، ألوَّح بكفّيّ أمام وجهي ككفيفة بائسة.. شعرت برجفة ما تسري بجسدي، جعلتني أفتح عينيّ على اتساعهما.. لألمح ضوءًا خافتًا على شمالي، فاتّجهت إليه، وحين أصبحت قريبة، ابتعد الضوء قليلًا.. فتوقّفت بحذر لابتعاده عني كالسراب، وتنهّدت قائلة بصوتٍ ناعم:

- لقد أتيت سموّ الأمير...

لقد أتى صوتي مرتجفًا قليلًا، به نبرة مختلفة عن كل مرّة مضت، من ما جعله غريبًا عليّ.. واعتقدت أنه لا يمتّ للإغراء بصِلة!

- جعلتيني أنتظر كثيرًا.. يا جميلتي...

ارتجف بدني واهتزّ بوضوح حين سمعت عبارته بصوته العميق، ورغمًا عني استشعرت بالخباثة بين ذبذباته الهادئة.. على عكس صوت ظافر المريح، الذي يبث الهدوء لقلبي..

شعرت بالطعم الصدئ يظهر جليًّا بحلقي، فابتلعت تلك الغصّة المريرة الخفيّة وجلست مكاني كما أخبرتني جليندا.. وانحنيت برأسي للأسفل قائلة بغرابة:

- أعتذر منك سموّ الأمير...

غرابة ما تفوّه به لأنني لم أتأخر قط، لقد انتهيت بالوقت المناسب وكنت أقف على بابه!

وقتها شعرت بحركاتٍ خفيفة، حتى انتهت بلمسة شعري.. فأغمضت عيني مرتعدة حين تخيّلته يجذبني من شعري الناعم فجأة.. لكن لدهشتي، وجدته فقط يمسّده ويمسح عليه ببطء.. فتنهّدت بخفاء، وقلبي يخفق بعنف.. ربّما لن يبدأ بالقسوة.. يمكنه التلاعب بي كما يشاء، فهو الأمير الذي يأمر وينهي!

وجدت صوته يسألني:

- أتعلمين لم الظلام حالك هكذا؟.

زاد صوت تنفّسي وأجبته نفيًا:

- لا سموّك.. لست أدري!.

سمعت صوت ضحكته الهادئة التي جعلت القشعريرة تسري بجسدي.. ومن بعدها نبرته الغريبة:

- لأذكّرك بأول مرّة رأيتني بها.. كان فقط ضوء القمر يضيئ تاجي اللامع.. وباقي جسدي دامس اللون.. أسود كالظل...

تذكّرت ذلك اليوم الذي رأيته به، فرفعت وجهي له بتساؤل، لأجده قد قرّب الشمعة من وجهي فرأيته كما قال، كالظلّ، يهمس بجانب أذني:

- أعلم بأنك يومها تطلّعت للنظر إليّ، إلى ملامحي.. وسماع صوتي؛ شعرت بذلك! لذا، أردت أن أجرّب هذا الشعور! وها أنتِ أمامي كما تخيّلت بالضبط!.

هززت رأسي بفهم ولم يخف اهتزاز جسدي عنه قط. عقلي يخمّن الخطوة التالية، إلّا أنني شعرت بشيءٍ ساخن على ذراعي الموضوعة بانصياع على فخذي، اتّسعت عيناي وكتمت تأوهي، وبيدي الأخرى لمست موضع الألم، وتفاجأت حين لمست يدي شيئًا دافئًا متحجّرًا، رفعته إلى عيني، وعلى ضوء شمعته الواهنة.. أدركت ما هو، فكتمت صرختي المتفاجئة لأجده يهمس باستنكار:

- لا تكوني صامتة هكذا.. عبّري عن ما بداخلك.. كما فعلت!.

زاد صوت أنفاسي وظهر الذعر بصوتي حين همست بـ:

- سموّ الأمير.. الشمع.. لقد سال منه عليّ.

كنت أعتقد أنه لا يقصد هذا، حتى سمعت صوت ضحكته المكتومة، والتي سرعان ما تحوّلت إلى ضحكات عالية أجفلتني.. أغمضت عيني وهمست برجاء بداخلي بينما أتحسّس موضع الألم أخفّفه:

- أتمنى أن ينتهي هذا سريعًا!.

نفخ الشمعة بأنفاسه الهادئة الباردة ليطفئها، وأمسك بيدي بالظلام، ليجعلني أستقيم واقفة.. وجذبني بهدوء لأسير خلفه، لمكانٍ آخر بالطابق..

شعرت بأننا نعبر ستارًا خفيفًا، كان له على وجهي ملمس الأشباح، فاقشعرّ بدني مرّة أخرى، وشهقت أنفاسًا مرتعبة..

دخلنا لغرفةٍ ما، فأبعد الأمير يده الباردة من فوق معصمي، ليذهب ويوقد الضوء.. فجأة وجدت أن الغرفة مضاءة بثريا كبيرة بالأعلى، ثريا عظيمة بها عدد كبير من الشموع.. وبمجرّد أن هويت بنظري من عليها وجدت سريرًا خشبيًا موضوعًا أسفلها، وقتها فقط، أدركت أن هناك حبلًا يتدلّى من الثريا!

لاحظ الأمير ارتباكي فقال:

- خمسون شمعة.. يسقط ما ذاب منها على جسد من أريد...

شهقت بذعر وأمسكت بالجزء المحترق من ذراعي، فضحك هو ضحكة متلذّذة قائلًا:

- لعبة جديدة.. لكنّها لم تعجبني قط، تنهي دقّات قلب الفتاة في أقل من عشر دقائق، لم تحتمل أيٌّ منهن أكثر من هذا.. لأحرم أنا من صوتهن العذب بالتوسّل والاستجداء!.

وضعت يدي على قلبي بذعر بينما أتفقّد باقي محتويات الغرفة المريبة.. وجدت أكثر من سوط معلق على الحائط، أدوات بدائيّة للتعذيب وأيضًا ألواح خشبيّة بها مقابض للأيدي والأقدام.. تلك التي انتهت بها حياة الملكة وابنتها!

نظر لي الأمير متلذّذًا بنظرة الذعر بعيني، وكم كرهت هذا! أخفيت مشاعري تلك حول قناع رخيص ووقفت ممشوقة الجسد بثقة مصطنعة، أنتظر نهاية هذا الأمر.. كم تخيّلت ما فعله بالعرائس.. وكم تمنّيت أن يكون جزاؤه من جنس عمله، ليعتبر كل قلبٍ قاسٍ بهذا العالم!

شعرت به يقترب، حتى توقّف أمامي مباشرة، لم أنحنِ برأسي هذه المرّة أيضًا، كفى انحنائي له عند الباب..

- تلك النظرة بعينيك عزيزتي.. تشعرني بالثورة!.

قال آخر كلمة متأوهًا بحماس فنظرت له بغير فهم، وتركني هكذا، أخمّن المقصود من ما قال، وأتساءل عن أي نظرة يقصد!

دار حولي ببطء مدروس، ينهش بعينه كلّ ذرّة بي، بينما عباءته الملكيّة الحمراء الناعمة تخدش ذراعيّ الناعمتين إلّا من البقعة الحمراء المجعّدة من نقطة الشمع الخبيث..

- أحب نظرة الخوف، الذعر، مع بعض دموع الألم.. لكن حين رأيتك.. رأيت تلك النظرة بعمق عينيكِ الجذّابتين، تشعرني بأنني قد أتخلّى عن هذه الهواية فداءً لهما!.

عبست بتوجُّس لم أستطع إخفاءه.. وفجأة وجدته يجذب ذراعيّ خلف ظهري، أظنّه يحاول تكبيلي! وتذكّرت كلمات ظافر، بأنه لن يستطيع فعل هذا، فأخفضت رأسي أمثل انصياعي للأمر وانتظرت النتيجة، إلا أنني قبل أن أغمض عينيّ لمحت شيئًا يلمع بالقرب من الستار الأحمر القاني.. وفي أقل من ثانية استدرت برأسي قليلًا وعيناي مثبتتان على تلك النقطة اللامعة بالستار.. هل هو القمر من خلف الستار؟ أم إحدى نجومه المفقودة؟ ظهرت بجانب المغرور لتشهد انتهاك هذا السادي لحرمة كرامتي؟

بدأ الضباب الرمادي يتكوّن حول تلك النقطة اللامعة المتوهّجة، والتي لم يلحظها الأمير الواقف خلفي حتى الآن. بدأت أرى الضباب يكوّن صورة ما، لم أستطع التركيز عليها لكون الأمير اقترب مني جدًّا.. نظرت لقسمات وجه الأمير غيث، لأرى أن عينيه تنضحان بالخبث والدناءة، تنظران لشفتيّ بشهوة ذئبٍ جائع.. فضممت شفتيّ بقوّة مرتعشة.. وفجأة اكتملت الصورة على الستار.. لأجد أنه شخص يقف متربّصًا.. لا.. ليس شخصًا.. بل إنه قابض أرواح!



- ظافر!.

شهقت رغمًا عني حين وجدته ينقض على جسد غيث، وبخطوة واحدة حائمة في الهواء كان قد ثبّته على واحد من تلك الألواح الخشبيّة الدنيئة، وابتعد ليتطاير الضباب من حوله حتى اختفى، بعد أن كوّن صورة واضحة، لشخصٍ يتّشح السواد حتى على وجهه.. فمن يقف بيني وبين الأمير غيث الآن.. هو حارسي.. ظافر.. وليس سموّ الأمير ليث كما توقّعت!

شعرت بدقّات قلبي الخائنة تدق بحبه من جديد، تكاد تقتلع صدري سعادة وشوقًا لرؤيته. لقد أنقذني للتوّ من قبلة خبيثة من شقيقه.. وعدوّه في نفس الوقت..

- أيّها الحقير! كيف تتجرّأ على الدخول متسلّلًا من النافذة!.

قالها الأمير غيث بغضبٍ مكتوم، ليتحرّك ظافر ليقف أمام وجهه بالضبط، ويهمس بشيء جعل القشعريرة تسري بجسدي:

- وكيف تجرأت أنت على ملأ العالم بخطاياك؟.

للتوّ.. لاحظت أن صوتهما كان متقاربًا، لكن شتّان بين النبرتين! نبرة دافئة عميقة.. ونبرة خبيثة خادشة!

حاولت النهوض، لكن هواجسي بداخلي ثبّتتني أرضًا، وجعلتني أراقب كل شيء من موقعي.. هواجسي التي تنحصر في الخوف والتوجُّس من رؤية وجه حارسي الذي وقعت بحبّه.. ومن رؤية وجه مولاي الأمير، الذي ساعدته بقلبي..

وحدث ما خشيت رؤيته.. خلع ظافر قناعه.. ورأيت أنا انعكاسه الدميم بوجه أخيه، الذي استحال لون وجهه للأحمر القاني الغاضب، ونفرت عروقه الزرقاء المقتحمة لجبهته وعنقه.. وابتسمت أنا بتأثّر أحمق.. أفكّر في حظّي الذي دومًا ما يخفي عني وجهه.. إلى متى سأظل أقارنه بوجه غيث؟ ولم أرَ ليثًا مرّة؟

- كيف! كيف هذا! ما هذا الهُراء!.

قالها الأمير غيث المكبّل من معصميه وساقيه بدهشة جعلت كلماته تخرج غير متّزنة بالبداية.. إلا أن صوته بعدها أصبح كصوت حوريّة لعينة، تهمس من عمق البحر لآذان الواقفين على الشاطئ..

- كيف حالك يا.. شقيقي؟.

سمعت ليثًا يقولها باستنكار، خصوصًا الكلمة الأخيرة، وقد جعل هذا قلبي يدق ويهوي..

وفجأة لمحت عيني ضوءًا شديدًا، فوجدت ظافرًا قد رسم بيديه في الهواء شيئًا ما.. يعرضه على غيث الذي جحظت عيناه بصدمة.. وكان ما يعرضه عليه هو

ذكرى اليوم الذي تخيّلته أنا مرارًا وتكرارًا.. ذكرى يوم توقّف قلب ملكة وأميرة، بفعل ضربات سوطٍ هوجاء.. من طفلٍ مظلم القلب!

- أتتذكّر هذا اليوم أخي؟ أشك في هذا!.

اتّجه لغيث وجذبه من شعره الداكن المماثل لشعره وصرخ به بقوّة ليثٍ هادر:

- ارفع وجهك واشهد على ميلاد ذلك الكائن الدنيء بداخلك!.

ترك وجهه بقوّة، واتّجه لسوطٍ أسود قويّ، معلّق بالجدار، أمسكه بيده واقترب منه ببطء، فلمحت جانب وجهه، وكانت عيناه لامعتين.. لكنهما قويّتان في نفس الوقت.. وقف أمام شقيقه والصورة القديمة تلوح فوقهما كالغيوم الملبّدة..

ساد الصمت للحظة، قبل أن يمزّقه صوت السوط الذي ضرب الجسد المكبّل أمام عينيّ، فشهقت بصدمة قائلة:

- ظافر لا تفعل!.

قلتها رغمًا عني.. بلا مراعاة أنني أخاطب الأمير، فقط قلتها خشية عليه.. لا أريد للانتقام أن يعميه.. لا أريده أن يُصاب بتلك الميول الدنيئة كما أُصيب شقيقه قديمًا!

فعلها أكثر من مرّة بمنتهى السهولة، وكأنه قد تدرّب على هذا كثيرًا، وهدر في مرّة:

- عِش المعاناة.. أحبّها كما أحببت أن تذيقها لغيرك!.

وسمعت صرخات غيث القادمة من بعيد تعلو، وتثير الرجفة بقلبي، رفعت عينيّ بينما أنظر للصورتين أمامي.. صورة شابّين.. وصورة طفل أمام وردتين يافعتين.. فسقطت دمعة من عيني.. وحين بلّلت عبرتي الأرض توقّف ليث!

ولدهشتي، وجدته ينظر للأعلى، وما هي إلا ثوانٍ حتى جذب تلك الصورة المؤلمة المتحرّكة فوقهما، ليحيل بينها وبين شقيقه.. لأرى أن الملكة جينروز وأميرتها

الصغيرة قد اختفيتا من الصورة، ومن تبقّى مكبّلًا بالألواح هو فقط الأمير غيث! وأن من يضرب بالسوط هو نفسه... غيث.. الطفل السادي!

شهقت بذعرٍ وقلبي يتمزّق، وباتت مطالبتي للهواء أمرًا ضروريًا، لصعوبة دخول الهواء لرئتيّ!

أغمضت عيني الدامعة بألم.. وهمست بينما أشهق أنفاسي بصعوبة المشهد أمامي:

- قـ.. قلبي.. يـ.. يتوقّف...

ومع تزامن خفوت دقّات قلبي، همست بداخلي بـ:

- ظافر.. لا تنخدع بخفوت دقّات قلبي.. سيظل دومًا ينبض باسمك.

فجأة التفت إليّ ظافر.. لا.. بل الأمير ليث، وقد رأيته يرتدي الزيّ الملكي.. حتى التاج على رأسه.. كيف حدث هذا! هل أتخيّل؟ كم يبدو أنيقًا متناسقًا مع جسده القويّ.. وكم بدا وجهه وسيمًا! يذيب القلب كما تخيّلته!

لم أكن لأتمنّى أكثر من هذا بلحظاتي الأخيرة.. من أحببت، يقترب مني بلهفة، يحاصر ملامح وجهي بعينيه بلون المحيط، بينما شفتاه تهمسان باسمي..

بصعوبة رسمت على شفتيّ ابتسامة هادئة جميلة.. لم أرد أن أرى نظرة القلق تلك بعينيه قط..

- لقد فعلت هذا من أجل أن أراك مرتاحًا راضيًا.. فكن كذلك أرجوك!.

هوى جسدي ببطء، تجذبني الأرض تريد احتضاني.. إلا أنني سقطت بين ذراعين قويّتين، أعرف دفئهما حقّ المعرفة.. أسمع دقّات قلب حارسي ومولاي بالقرب من قلبي الذي اختفت دقّاته، حروف اسمي تخرج دافئة لأذني ببطء من بين شفتيه.. وفجأة خفت كلّ شيء.. صمت كل شيء.. واسودّ كل شيء.. كسواد

أول ليلة مظلمة رأيتها بهذا العالم، لأدرك أن الظلام قابع بداخلي أنا.. لقد سكنت دقّات قلبي تمامًا، وانتهيت!

جحظت عينا الأمير ليث بينما يراقب شحوب تلك الجميلة بين أحضانه.. لا حول لها ولا قوّة، مسح على شعرها الناعم بيدين مرتعشتين، يهمس بعبارات الأسف بالقرب من أذنها بينما يشدّد من احتضانها..

- إليونورا.. لا أريدك أن تسامحيني.. كم كنت أنانيًّا، نعم كنت كذلك حين رفضت التصريح بما أشعر به أمامك ولو لمرّة!.

رفع يدها الناعمة، والتي بدأ الدفء يرحل عنهما شيئًا فشيئًا، إلى صدره.. على موضع قلبه بالذات.. وهمس بأذنها مغمض العينين:

- هذا القلب شعر بكل ما شعرت به.. ولم يطمئنك بذلك يومًا!.

صوت صراخ أخيه المكتوم يأتي من خلفه متزامنًا مع صوت كل ضربة سوط أحدثها الطفل الصغير أمامه، صوت الفتاة التي يرتاح جسدها الساكن على صدره يلوح بعقله بين الحين والآخر.. تهمس باسمه.. تحدّثه.. صوت ضحكاتها.. مرورًا بصوت حديثها لنفسها.. حتى صوت شهقتها الأخيرة!

تركها من بين يديه بألم، ليرتاح جسدها الرقيق على الأرض الباردة.. أسبل أهدابها بعد أن ودّع عينيها بقبلة من عينيه.. والتفت ببطء لأخيه الذي ينال قسطًا من العذاب لا رحمة به، وهدر بكل ما به من مشاعر غضب ناجمة عن فراقها:

- أفقدتني أسرتي.. أمي وأختي.. وحبيبتي!.

أخذ نفسًا مرتعشًا إلى رئتيه ثم هدر بصوته الذي زلزل القلعة كلّها:

- سأنهي قلبك الخبيث بيديّ!.

اقترب منه وأزال صورة ذلك الطفل الممسك بالسوط بقسوة، دافعًا إياهًا بمقبرة الزمن بعقله الباطن، وأحاط يديه حول أخيه المعذّب وتمتم ببعض الكلمات

الخافتة وبين شفتيه بغضب مارد خرج للتوّ من قمقمه، ليختفي جسد الأمير غيث بشوالٍ باهت اللون، تزامنًا مع ظهور تلك الفقّاعة الكبيرة حوله.. والتي بدأت تمتلئ بالماء بكلمات الأمير الحقيقيّ.. رغبة منه بجعله يتذوّق ما ذاقه هو من عذاب.. انتقامًا لكل من توقّف قلبهم بسببه..

ظلّ يراقب ذلك الذي يتململ داخل الشوال بالماء، يحاول تخليص نفسه منه لينجو، وتذكّر هو نفسه ذلك الموقف، حين كان يعافر بالتقاط أي أنفاس من الهواء لرئتيه الصغيرتين، إلا أن الماء كان يبدله في كلّ مرّة.. حتى كاد أن يختنق..

رفع يده يمرّرها بين خصلات شعره بغضب حتى إنه كاد أن يقتلعها.. وظلّ يهمس بدهشة وغير تصديق بينما ينظر لتلك التي فقدها:

- لقد اختفت من عالمي الآخر كما اختفت سابقًا! لم تعد موجودة!.

ضرب فقّاعة الماء القويّة بيديه بغضب وهدر بنفسه لائمًا:

- انصرفت عنها بالانتقام.. وها هو القدر ينتقم منها بدلًا من ذلك الحقير!.

أسبل أهدابه واضعًا يده على قلبه.. متذكّرًا آخر ما قالته هي له:

- لقد فعلت هذا من أجل أن أراك مرتاحًا راضيًا.. فكن كذلك أرجوك!.

ضرب قلبه بيده بقوّة وهو يهمس متسائلًا وكأنه يحدّثها:

- كيف؟ كيف؟.

شعر بخطواتٍ خافتة من خلفه، فاستدار بسرعة، متمنيًا أن تكون هي.. لكن كيف؟

اتّسعت عيناه حين وجد أنه الساحر!

- لا تحزن بُنيّ.. انتهت أيام الشرّ وانقضت.

نظر الأمير ليث بعمق عينيّ الساحر، فتذكّر تلك الأيام التي قضاها تحت سقف بيته البسيط، والذي لم يكن ليخرج منه إلا للتدريب، أو للتنقل والذهاب للحياة.. لرؤيتها!

التفت الساحر للفتاة الناعمة الغائبة روحها أرضًا، وهمس بـ:

- احترت بوصف هذه الفتاة...

انطلق ليث قائلًا بوجوم:

- مضحيّة...

تنهّد ثم استطرد:

- ضحَّت بحياتها، وبعالمها الآخر من أجل من تحب...

ابتسم الساحر مربّتًا على كتف الأمير.. ثم تحرّك لحمل جثمان الأمير.. غيث.. الذي توقّف قلبه..

قال الساحر بهدوء:

- سيلتحق الأمير بوالده.. لقد جهّزت قبره بنفسي...

أزال تلك الفقّاعة الكبيرة بمياهها، وأخرج الأمير من ما هو موضوعٌ به، وقال بثقة:

- أن تسامح شخصًا.. هي الحكمة.. لكن أن لا تسامحه في حالة عدم تغيّره فيما بعد، هي الأكثر حكمة...

هزّ ليث رأسه بشرود.. بينما لسان حاله يقول:

- لم يكن ليتغيّر.. لقد تأكدت من قلبه القاسي...

عدا الساحر يخرج حاملًا جسد الأمير ليقوم بدفنه، بالمقابر التي لا تقام إلا للملوك والأمراء.. وقبل أن يعبر من باب الطابق، قال:

- ما هي إلا دقائق وسيكون الجميع بالغابة.. ينتظرون كلمتك سموّ الأمير...

انقبض فكّ ليث، وأغمض عينيه متنهّدًا حتى انغلق الباب.. فرفع يديه وبحركة واحدة من إصبعه تغيّرت ملامح الطابق.. وغرفة الأمير، لغرفة أكثر هدوءًا وجمالًا..

اتّجه إلى فتاته الجاثية أرضًا.. حملها بين ذراعيه بأسى، ووضعها على فراشه.. وجلس بجانبها، ممسكًا بيدها.. عزّ عليه وداعها.. كما عزّ عليه رؤيتها تتعذّب في كل مرّة أخفى عنها حقيقته..

شعر بحرارة غريبة تأتي من قلبه.. فمدّ يده بجيب ملابسه وأخرج تلك القلادة السوداء أسطوانيّة الشكل، والتي استحال لونها الخارجيّ للون الشفّاف وظهر ما بداخلها.. فابتسم بحزن وشرود.. وما هي إلّا لحظة وتذكّر شيئًا ما.. عبارة قديمة قالها الساحر الذي تبنّاه بفترة ابتعاده عن القصر:

- تلك القلادة بُنيّ.. هي تميمة.. تحفظ.. تمنع.. وتعيد ما عجز الزمن عن إعادته.. وبما أن بها قلب من تحب، ودموع حزنك عليها.. ستجد الطريق إليها دومًا...

وتذكّر تركه لها بعد رقصة الوداع، والتي بكى لفراقها وذرف دموع الألم، كما تذكّر لحظة شقّه صدرها والوصول لقلبها.. قلبها البريء الصافي.. تذكّر أخذه قطعة من قلبها بأظافره كقابض أرواح، ووضعه في تلك التميمة، تذكّر ريّه لقطعة قلبها بدموعه.. وكتابته على صدرها سبب موتها، نقشًا بأظافره فوق قلبها، والذي شعر بخدشه بجسده لا بجسدها:

- ماتت في سبيل من تحب...

لم يرد أن يعلم أحد أي شيء عنها.. فمحا ما كتبه، ونقش بإيجاز:

- مقتولة...

ثم طبع قبلة على شفتيها ليبلّل وجهها بدموعه، وحين شعر بالحارس يأتي ليأخذها للزنزانة، نظر إليها مليًّا، وحوَّل دموع عينه على وجهها لآثار بغيضة، بقع وتشوّهات.. وهمس بتأثر:

- آسف حبيبتي.. لكن لن أسمح أن تكوني لغيري!.

ودعها بينما هي محمولة على جواد الحارس المبعوث من القصر وهمس بلمعة عينيه بعينيها المغلقتين:

- سأنتظرك دومًا.. يا أميرتي الاستثنائيّة...

أفاق من شروده ليلاحظ تلاحق أنفاسه.. ولمع أمامه الحل!

مزّق طرف فستانها الأبيض لتنكشف رقبتها المرمريّة أمامه، وبعض السنتيمترات الأخرى من جسدها الأبيض الذي استحال للشحوب.. أغمض عينيه وحين فتحهما لمعت واحدة فقط.. اليسرى.. وظهرت بيده اليسرى مخالب طويلة قاسية، وبقلبٍ دامٍ، شقّ صدرها فوق قلبها بحذر.. حتى انكشف قلبها أمامه، بلونه المائل للبياض، وقد بدأت الدماء به ومن حوله تجفّ وتتبخّر.. تنهّد بأمل وبيده الأخرى أخرج قلادته.. تميمتهما.. فتح غطاءها وسكب ما بها فوق صدرها.. دموعه.. وقطعة من قلبها!

راقب تشرّب قلبها هذا السائل الشفّاف اللامع، وهمس بأمل:

- استيقظي أميرتي.. لن أحتمل فراقك!.

مسح على موضع قلبها ليعود كما كان، ومسح بيديه البشريّتين على جسدها بحركات خفيفة دون لمسه، متمتمًا ببعض الهمسات الخافتة المسحورة؛ ليتحوّل ما ترتديه لأجمل التحف الفنيّة جمالًا.. قماش بلونٍ آخر غير الأبيض، مضيفًا إليه لمسات من اللون الذهبي بنعومة، أصلح التجعّد البسيط بذراعها بلمسة واحدة من أنامله شاتمًا من كان السبب، ذلك التجعّد المحمرّ الذي تركه أسود القلب عليها

بشمعته الذائبة.. لمس شعرها متخلّلًا إيّاه بأصابع يده حتى أعاد حيويّته إليه، ورسم فوق رأسها تاجًا.. ليظهر أمام عينيه كما تخيّله بالضبط.. تاج أميرته.. تاج حبيبته..

- إليونورا!.

ناداها بلهفة حين شعر بعينيها ترتجفان.. وفجأة ظهر لونهما الذهبي أمام عينيه!

سمعت قلبي ينبض من جديد، كما أشعر بدفء غريب يجتاحني.. التقطت أولى أنفاسي منذ فترة، وفتحت عينيّ.. لألتقط ببصري تاجًا مرصّعًا.. تاج الأمير.. كم يبدو مختلفًا.. زواياه غير حادّة كملمس التاج على غلاف آخر كتاب نويت قراءته.. مهلًا.. هل ما زلت حيّة؟!

شهقت بدهشة حين رأيته، ينظر لي بكل الشوق الموجود بالعالم.. تلمع عيناه الزرقاوان لتغرقاني حبًّا بموجاته الناعمة.. تبتسم شفتاه لي.. لأجد أنني أنظر لأكثر الرجال وسامة على وجه الأرض!

تأوهت بغير تصديق، ناطقة باسمه:

- ظافر!.

وللحظة تذكّرت مكانتي، فأخفضت رأسي قائلة بخشوع:

- سموّ الأمير...

لم أشعر إلا بجذبه لي، لأرتاح على صدره.. يعانقني طويلًا.. طويلًا.. حتى دمعت عيناي!

أخرجني من صدره القوي وحملني، فتعلّقت برقبته بذراعيّ بينما أنظر له بعينيّ الدامعتين بغير تصديق.. دار بي حول الغرفة بسعادة بينما تراقص حولي فستاني الجديد، وعباءته الملكيّة، عيناه تبتسمان لعينيّ بينما يقول بتأثر:

- أنتِ هنا! أنتِ معي!.

هززت رأسي أمام عينيه وقد بدأت عيني بذرف الدموع بينما شفتاي ترتجفان، فتوقّف عن الدوران بي وأنزلني بالقرب من الشرفة لأقف على قدميّ بغير اتّزان، أحاط ذراعه اليسرى حول خصري وجذبني إليه ليلتصق جسدانا، وبيده الأخرى مسح دموعي الحارّة اللامعة من فوق وجنتيّ الناعمتين، وبات يهمس بالقرب من وجهي، يلفحني بأنفاسه الدافئة المحببة لي:

- لا بأس حبيبتي.. أنا هنا.. ودومًا سأكون!.

لمعت عيناي برؤية ابتسامة عينيه المتأثرتين، فهمست متأوهة:

- حبيبتك؟ أنا هي؟.

أومأ ببطء دون أن يشيح ببصره عني، فخرجت مني شهقة ناعمة متأثرة، ألجمتها شفتاه اللتان اقتنصتا شفتيّ بقبلة جامحة مليئة بالشغف، تفاعلت أنا معها بكل جنون.. وباتت تخفت بنعومة، حتى أصبحت بنعومة الورد.. وشعرت بأننا كيانٌ واحد.. وتأكدت بأن هذا سيكون شعوري دومًا وأبدًا!

نظر لي، يراقب تأثير قبلته عليّ، ووجهي أحمر بخجل.. نظراتي خجولة.. تظهر وجنتاي كوردتين من الجوري.. ولم أنطق إلّا بكلمة واحدة، كسرت بها الصمت الناعم..

- كيف؟.

لم يخفض تشديده على خصري قط، ولم أنزل أنا يدي الموضوعة على صدره براحة، تتحسّس مضخّة قلبه.. بل وصل بيده الحرّة ليدي، يشبك أصابع يدي بيده، وكأن يدي صنعت لترتاح بين قبضته القويّة والدافئة في آنٍ واحد! وهمس لعينيّ:

- كانت أنتِ طوال هذا الوقت.. كما ستظّلين أنتِ للأبد!.

هززت رأسي بغير فهم، ونطقت شفتاي بـ:

- أنا هي حبيبتك؟! لكن.. القلادة.. منعها لي بتلك الحرارة الغامضة، معاملتك لي وقت اعترافي بحبك و.. وكوني مؤامرتك الأخيرة!.

ضغط على كفي بيده ببطء، بينما يقول:

- القلادة؛ كانت تميمتك.. بقطعة من قلبك ودموعي.. هي من منعتنا من الخطر.. وحين غامرت بفقدك.. أعادتك إليّ!.

سالت دموعي مرّة أخرى.. فاقترب مني، يروي ظمأه بها، يمسحها من على وجهي بشفتيه بنعومة.. بينما يهمس:

- دموعي جزء منك الآن.. لذا احتفظي بدموعك بالداخل، لتؤنس وحدة دموعي!.

تأوهت لكلمته ورفعت ذراعي أحيط عنقه بها بينما أدفن وجهي بدفئه فاحتضنني هو بحرارة.. فهمست بـ:

- كنت أنت قابض روحي.. لقد حلمت بهذا! رقصت معي الرقصة الأخيرة.. كما حلمت بتقبيلك لي.. وحبّك!.

- كم انتظرت هذا اليوم...

قالها لي فارتسمت ابتسامة مرتعشة متأثّرة على شفتيّ بينما أغمض عيني، فقال هو متسائلًا:

- ألا تشعرين بالسوء من أنانيّتي؟ من كوني اخترتك أنت من بين كل الفتيات بالحياة الأولى، وأيضًا اخترتك لتكوني ملكي بالعالم الآخر؟.

هززت رأسي نفيًا وقلت بدفء:

- كل ما أشعر به الآن أنساني جميع ما شعرت به يومًا...

أخرجني من صدره ونظر لعينيّ، وسألني بترقّب:

- هل هذا معناه أنك متقبلة امتلاكي لكِ؟.

هززت رأسي مبتسمة بخجل.. فاقترب بوجهه مني.. طابعًا قبلة عميقة دافئة على وجنتي.. بينما يهمس:

- أنتِ أميرتي إليونورا...

أبعد وجهه عني وهمس لعينيّ فقط:

- أحبّك...

رفعت يده ألمس بها وجهه، وقلت بتأثر وقلبي يرقص فرحًا:

- أحبك ظافر، وأحب كوني ملكك.. يا أميري ليث!.

رفع أنامله يتحسّس وجهي كما أفعل أنا.. وفجأة لمحنا شيئًا ما، يظهر على يميننا عبر الشرفة.. السماء.. كانت تضيء بلونٍ دافئ!

- هل هذه.. الشمس؟.

قلتها أنا بذهول وقلبي يخفق بسرعة برجاء أن يكون ما قلته صحيحًا.. اقتربنا أنا وأميري للشرفة، واستندت عليها بيدٍ واحدة، بينما الأخرى ترتاح على صدره.. ولدهشتي، ولدهشته.. راقبنا مظهر الشروق.. لأول مرّة.. وكم كنت شاردة بمظهر السماء التي تضيء باللون الأصفر المحبب، الدافئ.. كدفء قلبينا والمشاعر بيننا!

رفعت عيني لظافر بذهول، فوجدته يرفع حاجبيه غير مصدّق لما يحدث، قائلًا:

- لقد عادت الشمس!.

كنت أنا أنظر للعشب بالغابة التي بدأت تظهر ملامحها القاسية أمامي، وأشير إلى حالها بأصابع مرتجفة، بينما تتبدل من اللون الباهت للون الأخضر النضر،

تزهر الأشجار زهورًا بمختلف الألوان، كما تنبت الفروع المظلّلة بمنتهى السحر.. ظهرت العصافير تتنقّل بين فروع الأشجار والنخيل بمرح، كما ظهر ضوء الشمس جليًّا واضحًا أمام عيني.. حتى إنني رفعت يدي من على الشرفة لأخفي الضوء قليلًا من على وجهي بتأثّر..

أدارني ظافر إليه فنظرت له وعيناي متسّعتان لتلك النظرة بعينيه.. كانت نظرة عاشقة بكل ما تحمل كلمة العشق من معانٍ، يراقب لون عيني الدافئ بعد أن أناره ضوء النهار العذب.. وراقبت شفتيه بينما يهتزّان بكلماته المؤثّرة:

- إليونورا.. دفء الضوء.. ضوء الشمس! هذا معنى اسمك!.

وضعت يدي على قلبي الخافق، بينما أهمس بتيه:

- أنا.. من فعلت هذا؟!.

نظر لي وأومأ مؤكّدًا وقال بينما يقرص وجنتيّ بأنامله برفق:

- دفء مشاعرك.. أعاد الشمس.. أعاد الدفء لهذا العالم!.

ضحكت بخفوت بغير تصديق، وراقبت ابتسامته تتّسع حتى انفلتت منه ضحكة هادئة قصيرة أذابت قلبي عشقًا..

أخرجتنا بعض الأصوات الغريبة من شرودنا.. قادمة من الأسفل؛ أصوات تهليل وفرحة، ظهرت بوضوح، تأتي من الغابة.. وبعض الهتافات..

- يعيش الأمير ليث!.

- تحيا الأميرة إليونورا!.

ما زال أميري محيطًا بي بتملّك، نظرنا للأسفل بدهشة لنرى أن الجميع يقف مهلّلًا لنا، وحين وجدونا نظهر لهم.. انحنوا بطاعة، بينما يردّدون عباراتهم.. التي جعلت قلبي يخفق بشدّة، فهدأني حبيبي بالمسح على ظهري بنعومة..

أفقنا من شرودنا على صوت طرق على الباب، فالتفتنا، ونادى الأمير ليث بصوته الذي أعشقه:

- تفضّل.

فُتح الباب بهدوء ظاهري، ليظهر أمامنا طِراد.. انحني برأسه ونظراته لبرهة قائلًا:

- الأمير ليث.. الأميرة إلينورا...

نظرت له أنا وليث بتساؤل، وقد وجدت صعوبة بالتأكد من كونه هو طِرادًا الذي أعرفه أم لا.. لقد بدا أصغر عمرًا، وكأنه بأواخر العشرين، وقد اختفت الشعرات الفضّية من شعره الأشقر. شعرت بدقّات قلبه متحمّسة تحت لمستي، واتّسعت عيناي بدهشة حين سمعت طِرادًا يقول بعد أن رفع وجهه لنا مبتسمًا بإشراق للخبر السار الذي يحمله:

- لقد استيقظت عرائس البرج العالي!.

امتلأت عيناي بالدموع ونظرت لليث الذي تساءل وملامح الدهشة قد رسمت خطوطها على ملامحه:

- جميعهنّ؟.

ثبّت طِراد نظره علينا، وقال بتأكيد:

- جميعهنّ مولاي.. جميعهن!.

نظرت لظافر بحماس وتأثر، وهمست له:

- سموّ الملكة!.

هزّ رأسه لي بخفوت وأمسك بيديّ، فضغطت أنا عليهما بينما أصابعنا متشابكة، نستمدّ القوّة من بعضنا البعض.. وما هي إلا ثوانٍ وكنّا نهرول للبرج، نلحق بطِراد الذي يخبرنا بأن كل شيء بات أفضل.. عاد لشبابه كما عاد الساحر والده رجلًا بأواخر الأربعين وعادت زوجة الساحر، والدته، أربعينيّة جميلة الملامح.. وأن إزالين قد استعادت كامل عافيتها!

عبرنا الطابق، حتى رأينا جميع العرائس ينظرن لبعضهنّ البعض بغرابة وسعادة، العفيفات منهنّ فقط استيقظن، أما الباقيات.. اختفين!

تأوهت بدهشة ورفعت يدي لفمي بتأثر حين رأيت إيفي الصغيرة، جميلة يافعة كما كانت دومًا، وأكثر! تتجه إليّ منحنية.. فربّت على شعرها بسعادة ورفعت وجهها الدامع إليّ.. كما كان وجه جلاديس، وباقي العرائس!

تبعت أميري لتلك الغرفة المنفصلة، وحين دلفنا إليها دقّ قلبي بعنف المشاعر التي أرى.. فما أرى أمامي، هي الملكة جينروز.. تحتضن ابنتها الشابّة الجميلة المتعافية.. الأميرة روز.. أو كما أعرفها أنا.. باسم إزالين!

جذبني أميري بعناق، وسرعان ما شاركنا الملكة والأميرة بعناقٍ كبير، أغمضت له عيني الدامعة تأثّرًا، لكن سرعان ما كبت دموعي لتبقى بجوار دموع حبيبي بداخلي.. كما قال لي..

ابتسمت الملكة لي وربّتت على جبيني، وشدّدت إزالين من الإمساك بيدي.. وهمست بداخلي:

- لطالما علمت أنكِ حبيبة أخي وأميرته!.

ضحكت بتأثر وابتسم لي أميري ليث.. وظلّ طِراد يراقبنا بتأثر وإحراج، وقبل أن ينصرف.. نادته الملكة، بابتسامتها ويديها الممدودتين أمامه، قائلة:

- أهلًا بك في أسرتنا يا بُنيّ!.

لم يصدّق نفسه، فانحنى برأسه وفي نفس الوقت انطلق إلينا يشارك في ذلك العناق الكبير، فضحكنا معًا، ولم يغفل أحد منا عن النظرات المتبادلة بعيني وعين الأمير.. أو بين الأميرة روز وحبيبها طِراد.. أو نظرة الملكة جينروز التي شملتنا جميعًا!



كم أصبح كل شيء رائعًا!

مملكة الشمال كانت السبب بإعادة ضوء الشمس لجميع ممالك العالم الآخر، مما جعلها المملكة الحاكمة.. أصبحت الخادمات أكثر إقبالًا على العمل بضوء النهار، بداخل القلعة وخارجها، وكافأ الأمير الحرّاس والخدم بالزواج وجعل لهم قرية خاصّة للعيش بها، بجانب العمل.. عادت الفتيات يستيقظن بالزنازين، لكن زنازين مختلفة.. وسط الزهور والورود عطرة الرائحة، ناعمة الملمس!

انتشرت الزراعة وازدهرت المحصولات الصيفيّة الجميلة، وانتشرت الورود تبثّ عبيرها في أرجاء المملكة.. أحببت الشتاء جدًّا لأن الصيف يحضر بعده، كما يحضر الخريف والربيع.. أحببت كل شيء.. أحببت نفسي بين أسرتي الجديدة، كما أحببت تاجي، منصبي.. وذبت عشقًا بأميري! الذي أناديه بكلا اسميه.. ظافر وليث!

جلاديس وإيفي أصبحتا وصيفتيّ، أعاملهما كأختين.. تحسّن سمع جلاديس كثيرًا لسبب مجهول، ووافقت إيفي على الزواج من كاليب! كم بدوا مترابطين.. شعرت بأول مرّة بأنهما لبعضهما البعض بلا شك! فلقد بدوا يشبهان بعضهما البعض بطريقة غريبة!

لقد عادت فتاة أو أميرة الحكايات لزوجها العزيز، الساحر! لكن كسيّدة جميلة، وزوجة محبّة! كم بدوا رائعين معًا! أدين لهما بعمري كلّه كما تدين لهما أسرتي بأكملها، فكانا هما الاثنان بمثابة الأب والأم الروحيّين للأمير ليث.. حبّي الأول والأخير!

تزوّجت روز من طِراد كما أصبحت أنا زوجة وأميرة فعليّة لأميري الوسيم، لنصبح أنا وروز أميرتين من أجمل ما يكون.. وعشنا في سعادة وهناء مع زوجينا، تحت ظلّ وحبّ الملكة الأم.. جينروز الجميلة..

آه كدت أنسى! أنا أحمل ولي العهد الآن! ومتأكدة من كونه صبيًّا.. سيكون وسيمًا كوالده، بعينيّ الدافئتين أو عينيه.. لا فارق، المهم أن يحظى بحبّنا الذي لن ينتهي!



= الخاتمة =

لم أكن أعلم أن بمجرّد استيقاظي بهذا العالم.. أنني سأغيّره.. لقد أثّرت في كل نفس قابلتها.. لقد أحدثت فارقًا.. أعدت شمس العالم الآخر، كما تركت ذكرى جميلة بحياتي الأولى..

ولأجل هذا، قرّرت كتابة مذكّراتي بالعالم الآخر، والتي استعنت بكل نفس قابلتها للتعبير عن ما حدث، وخصوصًا أميري العزيز ليث.. حارسي الظافر بي.. والذي عبّر لي.. وبقوّة.. عن ما بداخله! تعويضًا عن كل يومٍ قضاه دون أن يعبّر لي عن حبّه، واستغللت أنا هذا أفضل استغلال!

سأظلّ دومًا حبيبته، مدلّلته، وسيظل هو دومًا حارسي وأميري..



=النهاية !=

تنهّدت بعد أن انتهيت من خطّ آخر كلمة في مذكّراتي، والتي لست أعني حقًا كلمة «النهاية» بها، فلا نهاية للحب! وابتسمت لتسلّل يدي أميري إلى خصري الرفيع... والذي لن يظلّ على حاله كثيرًا بسبب الحمل، التفت له مبتسمة بعشقٍ لأجده يطبع قبلة رقيقة على شفتيّ.. فعضضت على شفتي السفلي بخجل وحب.. وهمست لعينيه:

- أميري ليث.. لمَ قالوا يومًا أنك تظفر بكل شيء؟!.

ابتسمت عيناه لي، ولامس وجنتيّ بأنامله، ملامسًا زاوية شفتيّ بنظرة ذات مغزى.. وقال قبل أن نغوص بعالم آخر.. من المشاعر..

- ظفرت بأشياء كثيرة فكانوا يغارون.. لكن ما أشعر أنا بالغيرة من نفسي بسببه، هو أنني ظفرت بكِ أميرتي...

تنهّد بحرارة قائلًا:

- أحبّك إليونورا...

نهضت ورميت نفسي بأحضانه بينما أهمس بين شفتيه:

- وأحبك.. أيها الظافر ليث!.

.. تمت بحمد الله..